مؤلفة الرواية الأعلى مبيعًا «*الدب الأخير*»

هانا غولد

«رواية لا تُقاوم»

The Times

الحوت المفقود

وحده يستطيع أن يعيدها إلى الأمان

رسوم: ليفي بنفولد

الحوت المفقود



الحوت المفقود

تأليف: هانا غولد
رسوم: ليفي بنفولد
ترجمة: السيد أحمد صلاح المهدي
تدقيق: نابغة عبدالباري

الطبعة الأولى: 2024 م

ISBN 978-9948-787-05-1



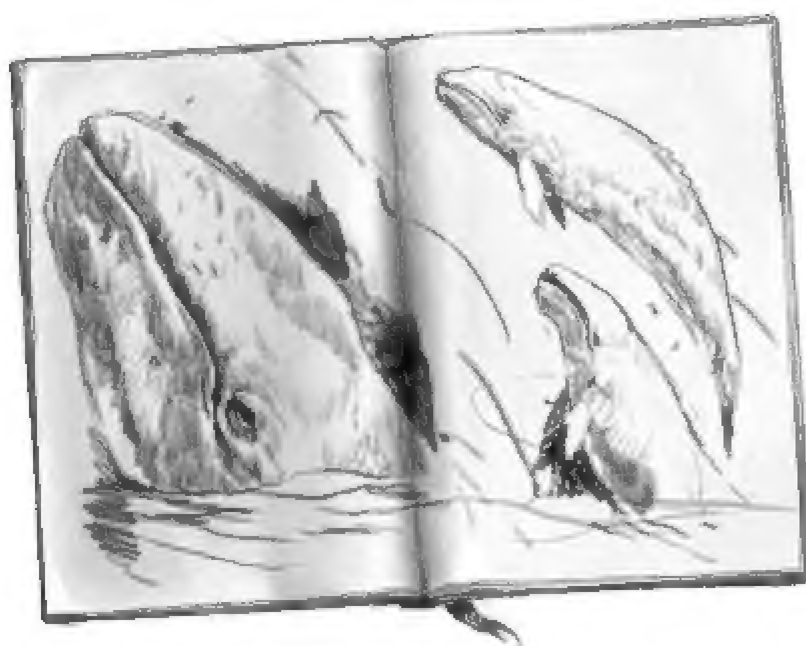
دار أشجار للنشر والتوزيع
DAR ASHJAR PUBLISHING & DISTRIBUTION
هاتف: 4270575 4 971+ فاكس: 4270576 4 971+
ص ب: 231347 دبي، الإمارات العربية المتحدة
info@darashjar.com /www.darashjar.com

darashjar Darashjar darashjar dar_ashjar Dar Ashjar darashjar

حاصل على إذن الطباعة من المجلس الوطني للإعلام
رقم إذن الطباعة: MC-10-01- 5171946
طُبعت في: تركيا
التصنيف العمري: E «تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقا لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

الحوت المفقود

هانا غولد



رسوم ليفي بنفولد





إلى كريس، محيطي وعالمي



الفصلُ الأوَّلُ

الـوُصولُ

كانَ الضَّجيجُ هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ لاحَظَهُ (ريو تيرنر) عِندَما خَطا إلى صالَةِ الوُصولِ في مطارِ لوس أنجلوس الدَّولِيِّ. لَمْ يَكُنْ مِنَ المُقَدَّرِ لِلمَطاراتِ أَنْ تكونَ أماكنَ هادئةً، كانَتْ كَوَحْشٍ عِملاقٍ مُترامي الأَطْرافِ، أَوْ كَملعَبِ كُرَةِ قَدَمٍ غارقٍ في هُتافِ المُشَجِّعينَ.

ثاني شَيْءٍ لاحَظَهُ (ريو) كانَ جَدَّتَهُ.

مَضَتْ خَمسَةُ أعْوامٍ مُنْذُ آخِرِ مَرَّةٍ رَأى فيها (ريو) جَدَّتَهُ، إلّا أنَّهُ انْتَبَهَ لَها عَلى الفَوْرِ. كانَتْ أطولَ مِنْ أيِّ شَخْصٍ آخَرَ، وَتَرْتَدي حُلَّةً مِنْ قِطْعَةٍ واحِدَةٍ ذاتِ لَوْنٍ تِرْكوازيٍّ لامِعٍ، وَنَظّارَةً بإطارٍ أَسْوَدَ سَميكٍ، وَكانَ لَها شَعْرٌ مُجَعَّدٌ شَديدُ البَياضِ.

تَلَفَّتَتْ حَولَها. وَتَطَلَّبَ الأمْرُ مِنْها بِضْعَ دَقائِقَ لِتَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ. تَوَقَّفَتْ أَمامَهُ، وَسَأَلَتْهُ: «ريو؟ إنَّهُ أنْتَ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟ بِالكادِ عَرَفْتُكَ، تَبْدو شَديدَ . . .»

اِنْخَفَضَ صَوْتُها حَتّى غابَ تَمامًا. تَساءَلَ (ريو) عَمّا كانَتْ توشِكُ أَنْ تَقولَهُ، لكنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَسْأَلَها عَلى أيِّ حالٍ. وَبدَلًا مِنْ ذلِكَ، كَتَّفَ ذِراعَيْهِ عَلى صَدْرِهِ عَلى نَحْوٍ دِفاعِيٍّ.

أَكْمَلَتْ حَديثَها بِسرعَةٍ وَعَيناها مُمْتَلِئتانِ بِشَيْءٍ لَمْ يَتَعَرَّفْ (ريو) إلَيْهِ: «لقَدْ وَصَلْتَ إذنْ، أنا مَسرورةٌ لِلغايَةِ لأنَّكَ هُنا.»

ضَمَّتْهُ إلَيها وَعانَقَتْهُ. لَمْ يكُنْ ذلكَ النَّوْعُ مِنَ العِناقِ الَّذي اعْتادَ عَليهِ - عَميقًا، دافِئًا وَمُريحًا. كانَ عِناقًا بِزَوايا حادَّةٍ، وَأكْواعٍ صَلبَةٍ، وَيَعْبَقُ بِرائحَةِ النَّعْناعِ. عَدَّ (ريو) مِنْ واحِدٍ إلى ثَلاثَةٍ، لكنَّهُ لَمْ يكُنْ قادِرًا عَلى تَحَمُّلِ عِناقِها أَكْثَرَ مِنْ ذلكَ، فَسَحَبَ نَفْسَهُ بِقُوَّةٍ بَعيدًا عَنْها.


WELCOME

عَلَتْ وَجْنَتَيْها بُقْعَتانِ فاقِعَتا اللَّوْنِ. تَلَعْثَمَتْ: «ريو، لَقَدْ مَضى وَقتٌ طَويلٌ وَأَعْرِفُ أنَّ كلَّ هذا، حَتْمًا يَبدو لكَ الآنَ غريبًا وَغيرَ مَعقولٍ، لكنّي أُريدُكَ أنْ تَشعُرَ أنَّك في بيتِكَ أثناءَ إقامَتِكَ مَعي. فَفي النِّهايَةِ أنا جَدَّتُكَ.»

عِندَ هذا الجُزءِ الأَخيرِ مِنْ كَلامِها، رفَعَ (ريو) عَينيهِ مِنْ عَلى الأَرضِ الَّتي كانَ يُحَدِّقُ فيها، وَنظَرَ إلَيها مُتفاجِئًا. كانَتْ جَدَّتُهُ تُوَقِّعُ بِطاقاتِ المُعايَدَةِ وَأعيادِ الميلادِ الَّتي تُرْسِلُها إلَيهِ بِعِبارةِ: «**مِنْ جَدَّتِكَ**»، لكنَّها بِالنِّسْبَةِ لَهُ لَمْ تَكُنْ تُشْبِهُ الجَدّاتِ عَلى الإِطْلاقِ. عَلى الأَقَلِّ بِالمُقارَنَةِ مَعَ جَدَّتِهِ الأُخرى الَّتي كانَتْ تَنتَعِلُ شِبْشِبًا بِقاعِدَةٍ مَطّاطِيَّةٍ سَميكَةٍ، وَتُحِبُّ أَنْ تُنادِيَهُ «بَطَّتي» عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ في آخِرِ مَرَّةٍ نادَتْهُ فيها بِهذا الاسْمِ، لَمْ يَرَ مِنْقارًا أَوْ ريشًا نَمى عَلَيهِ. لا، هذِهِ السَّيِّدَةُ لَمْ تُشْعِرْهُ بِأَنَّها جَدَّةٌ عَلى الإِطْلاقِ؛ لِذا فَقَدْ قَرَّرَ بَينَهُ وَبينَ نَفْسِهِ أَنْ يُنادِيَها بِاسْمِها الأَوَّلِ: (فران).

عَندَما لَمْ يُجِبْها، فَرَكَتْ (فران) يَدَيْها مَعًا عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الجَوَّ لمْ يَكُنْ بارِدًا، وقالَتْ: «حَسَنٌ، أَعتقِدُ أَنَّنا مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ نَتحَرَّكَ.»

رَفَضَ (ريو) عَرضَها بِأَنْ تَحمِلَ حَقيبَتَهُ؛ فَقَدْ كانَ قادِرًا تَمامًا

عَلى حَمْلِها بِنَفْسِهِ. تَبِعَها ناحِيَةَ المَخْرَجِ، حَيثُ أوقَفَتْ سَيّارَتَها ذاتَ الدَّفْعِ الرُّباعِيِّ، المُغَطّاةِ بِطَبَقَةٍ سَميكَةٍ مِنَ الغُبارِ، في مَواقِفِ السَّيّاراتِ.

صَعِدَ (ريو) إلى المَقْعَدِ المُجاوِرِ للسّائقِ. رَبَطَ حِزامَ الأمانِ وَمَضَغَ شَفَتَهُ، مُحاوِلًا أنْ يَتَجاهَلَ حاجَةً مُفاجِئَةً وَمُلِحَّةً للذَّهابِ إلى الحَمّامِ.

الْتَفَتَتْ (فران) إلَيهِ حينَ أَحَسَّتْ بِعَدَمِ ارْتِياحِهِ، وَبَدَتْ وَكَأنَّها عَلى وَشَكِ أنْ تَقولَ لَهُ شَيئًا. لكنْ، مَهْما كانَ ذلكَ الشَّيْءُ الَّذي أرادَتْ أنْ تَقولَهُ، فقدْ ماتَ عَلى شَفَتَيها مَرَّةً أخْرى. صَفَّتْ حُنْجَرَتَها، بَدَلًا مِنْ ذلكَ، وقالَتْ: «أنا . . . آسِفَةٌ بِشَأْنِ والِدَتِكَ.»

شَعَرَ (ريو) فَجْأَةً بِحُرْقَةٍ لاسِعَةٍ في عَينَيهِ. مَسَحَ دُموعَهُ بِعصَبِيَّةٍ آمِلًا في ألّا تَكونَ (فران) قدْ رَأتْها. نظَرَ مُتعمِّدًا خارِجَ النّافِذَةِ كَي يَتَجَنَّبَ المَزيدَ مِنَ الحَديثِ. وبعْدَ لَحظَةٍ قَصيرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ، أدارَتْ (فران) مِفْتاحَ مُحَرِّكِ السَّيّارَةِ بِقُوَّةٍ، وَانْطَلَقا.

كانَتْ كاليفورْنيا هِيَ المَكانُ الَّذي وُلِدَتْ وَتَرَعْرَعَتْ فيهِ والِدَةُ (ريو). غادَرَتْها قَبلَ أنْ تُتِمَّ سَنَتَها العِشرينَ، أوَّلًا في بَعْثَةٍ لِدراسَةِ الموسيقا في نيويورك، ثُمَّ بَعْدَ التَّخَرُّجِ، كَعازِفَةِ (كَمانٍ)

فِي أورْكِسترا لندن (الفيلهارومنيَّة). وَطَوالَ تلكَ الفَترَةِ لَمْ تَعُدْ إلى كاليفورْنيا إلّا مَرَّةً واحدَةً بِصُحبَةِ (ريو)، وكانَ حينَها مُجَرَّدَ طِفْلٍ رَضيعٍ.

حَدَثَ هذا منذُ وَقتٍ طَويلٍ، حتّى إنَّهُ لا يَستطيعُ أنْ يتذَكَّرَ أيَّ شَيءٍ عنْ هذِهِ الرِّحلَةِ.

لكِنْ مِنَ النّاحيَةِ العَمليَّةِ، وَبُحكْمِ جِنْسيَّةِ والِدَتِه، كانَ (ريو) نِصْفَ أَمريكِيٍّ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ "نِصْفًا" صَغيرًا لِلغايَةِ؛ فَقدْ عاشَ في لَنْدن طيلَةَ حَياتِهِ الَّتي بَلَغَتْ أحَدَ عَشَرَ عامًا وَثلاثَةَ أشْهُرٍ، وكانَ يَتَحَدَّثُ بلكْنَةٍ إنْجليزيَّةٍ صَريحَةٍ؛ لِذا، فإنَّ هذا العالَمَ الغَريبَ البَعيدَ الَّذي تَسْطَعُ فيهِ الشَّمْسُ بِلا نِهايَةٍ، بِنَخيلِهِ الباسِقِ المُتَمايِلِ، وَشَواطِئِهِ الذَّهبيَّةِ بَدا دائمًا كَالحُلُمِ بِالنِّسْبَةِ لَهُ. وفي الحَقيقَةِ كانَ (ريو) يَتطلَّعُ إلى العَودَةِ إلَيهِ طيلَةَ حَياتِهِ تَقْريبًا.

لكِنْ لَيسَ بِهذِهِ الطَّريقَةِ.

فَتَحَ نافِذَةَ السَّيّارَةِ، وَأَخَذَ جُرْعَةً عَميقَةً مِنْ هواءِ كاليفورْنيا. لِسوءِ الحَظِّ لَمْ يَكُنْ هذا أذْكى شَيءٍ يَفعَلُهُ المَرْءُ عَلى الطَّريقِ السَّريعِ. فَقَدْ سَعَلَ (ريو) وَبَصَق بِشِدَّةٍ حينَ أَحَسَّ بِالدُّخانِ يَملَأُ رِئَتَيهِ.

هذِهِ كانتْ كاليفورْنيا. كُلُّ شَيءٍ كانَ ضَخْمًا لِلغايَةِ هُنا: السَّيّاراتُ، لافِتاتُ الطُّرُقِ، البِناياتُ، حتّى السَّماءُ وَهيَ تَدورُ فَوقَ رُؤوسِهِمْ في صَمْتٍ لَيْلَكِيٍّ شاسِعٍ. كأنَّ شَيئًا ما رَفَعَ السَّيّارَةَ مِنْ عَلى الأرضِ، وألْقى بِها في عالَمٍ مَليءٍ بِالعَمالِقَةِ. كانَتْ لَندن مَدينَةً، لكِنَّها لا تَبدو هكَذا عَلى الإطْلاقِ.

كانتْ والِدَتُهُ تَقولُ دائمًا إنَّ كاليفورْنيا مَختلفَةٌ. إنَّها مُسالِمَةٌ، إنَّ طَبيعَتَها سَتُلائمُ (ريو)، وإنَّها . . .

أغْلَقَ النّافِذَةَ بِحَرَكَةٍ سَريعَةٍ. تَجاهَلَ مُحاولاتِ جَدَّتِهِ في الحَديثِ مَعهُ وَأَغْمَضَ عَينَيهِ. وَحاوَلَ أنْ يَتظاهَرَ بأنّهُ لا يَزالُ في لندن، حَيثُ والدَتُهُ الّتي لَمْ تُرسِلْهُ بَعيدًا، إلى الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ العالَمِ؛ لِيُقيمَ مَعَ سَيِّدَةٍ بالكادِ يَعْرِفُها.



الفصلُ الثّاني

أوشن بـاي

لا شَكَّ أنَّ النُّعاسَ غَلَبَ (ريو) أثناءَ الرِّحلَةِ؛ لأنَّهُ لمْ يَشْعُرْ بِنَفْسِهِ إلّا والسَّيّارَةُ تَتَباطَأُ حَتّى تَوَقَّفَتْ تَمامًا. قالتْ لَهُ جَدَّتُهُ: «لقَدْ وَصَلْنا، مَرحَبًا بِكَ في بلدَةِ أوشن باي.»

حَلَّ وَقْتُ الغَسَقِ، وَصارَ عَليهِ أَنْ يَرمِشَ بِضْعَ مَرّاتٍ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أنَّهُ يَرى بِوضوحٍ. كانتْ بلدةُ أوشن باي السّاحِليَّةُ الصَّغيرَةُ عَلى مَسافَةِ ساعَةٍ تَقريبًا شَمالَ لوس أنجلوس، لكِنَّهُ لَمْ يكُنْ قادِرًا بَعْدُ

عَلى تَحديدِ مَوقعِ البَلْدَةِ عَلى الخارِطَةِ. كانتْ جَدَّتُهُ (فران) تُقيمُ في ضَواحي البَلدَةِ، وكانَ القَمرُ يُلْقي بِنورِهِ عَلى بيتٍ شاطِئيٍّ ضَخْمٍ وَعَتيقٍ وَغيرِ مُتَّسِقٍ، مَصنوعٍ مِنَ الخَشَبِ. كانَ شَكْلُ المَبنى مُحَيِّرًا، مُكَوَّنًا مِنْ ثَلاثَةِ طَوابِقَ، وَمَطْلِيًّا مِنْ أَعْلاهُ إلى أَسْفَلِهِ بِلَوْنٍ أَخْضَرَ باسْتيليٍّ ناعِمٍ. أَحَسَّ (ريو) بِمَشاعِرِهِ تَلينُ نَحْوَ البَيتِ عِندَ رُؤيَتِهِ، كَأَنَّ لِلبَيتِ خَصائِصَ عِلاجِيَّةً سِحْرِيَّةً، وبِإمْكانِهِ أَنْ يَصْقُلَ أَكْثَرَ الحَوافِ خُشونَةً.

فَرَكَ (ريو) عَينيهِ. كانتِ الشَّقَّةُ الَّتي يَعيشُ فيها مَعَ والِدَتِهِ صَغيرَةً لِلغايَةِ، حَتّى خُيِّلَ إليهِ أَنَّ بِاسْتِطاعَتِهِ حَشْرَ سِتِّ شُقَقٍ مِثْلِها داخِلَ ذٰلِكَ المَنْزِلِ.

تَمْتَمَتْ (فران) وَنَبْرَةٌ مِنَ الفَخْرِ في صَوْتِها: «إِنَّهُ جَميلٌ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟»

أَحَسَّ (ريو) أَنَّ البيتَ مُمَيَّزٌ فِعْلًا، لكِنَّهُ حينَ تَرَجَّلَ مِنَ السَّيّارَةِ كانَ الضَّجيجُ الَّذي سَمِعَهُ شَيئًا مُخْتَلِفًا تَمامًا. كانَ هَديرًا مُهيبًا وَعَظيمًا. ذلِكَ النَّوعُ مِنَ الضَّجيجِ الَّذي لا يُصْدِرُهُ إلّا شَيءٌ خارِقُ القُوى.

كانَ هذا هُوَ هَديرُ المُحيطِ.

لمْ يَكُنْ (ريو) يحِبُّ الأَصْواتَ العالِيَةَ، لكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ هذا

الصَّوتَ مُختَلِفٌ. شَعَرَ بِقُوَّةِ الصَّوتِ تَجْتاحُ جَسَدَهُ، وَتَمَلَّكَتْهُ رَغْبَةٌ مُفاجِئَةٌ بِأَنْ يَعُبَّ مِنهُ حتّى أَسْفَلِ مَعِدَتِهِ، وأَنْ يَفُكَّ رِباطَ الحُزْنِ الوَثيقِ القابِضِ عَلى صَدْرِهِ.

قالتْ (فران) وقدْ وَقَفَتْ عَلى عَتَبَةِ البابِ، وَهِيَ تُلَوِّحُ بِاتِّجاهِهِ: «سَيَكونُ هُناكَ كَثيرٌ مِنَ الوقتِ لِكَي تَسْتَكشِفَ الشّاطِئَ، هَيّا بِنا إلى الدّاخِلِ.»

تَبِعَها بِتَرَدُّدٍ عَبْرَ الرَّدْهَةِ الواسِعَةِ إلى المَطْبَخِ، وعَلى عَكْسِ مَطبَخِ شَقَّتِهِ في لندن، لمْ يكُنْ هناكَ صُوَرٌ أَوْ رُسوماتٌ مَدرسِيَّةٌ، أَوْ قَوائِمُ تَسَوُّقٍ مَثَبَّتَةٌ عَلى الجُدْرانِ بِشكْلٍ غَيْرِ مُرَتَّبٍ. لمْ يكُنْ هُناكَ حتّى أيُّ أَكْوابٍ مُتَّسِخَةٍ أَوْ أَطْباقٍ مُهْمَلَةٍ، أَوْ كَعْكَةِ زَنْجَبيلٍ نِصْفِ مَأْكولَةٍ. بَدَلًا مِنْ ذلكَ كانَ المَطْبَخُ هُنا مَليئًا بِأَجْهِزَةٍ كَهربائِيَّةٍ مَعْدَنِيَّةٍ عَصريَّةٍ، تلمَعُ وَتَبرُقُ بِشِدَّةٍ حَتّى إنَّهُ اسْتَطاعَ أَنْ يَرى انْعِكاسَ صورَتِهِ عَلَيها، رأى صَبِيًّا بِوَجْهٍ شاحِبٍ وَنَحيفٍ وَتَعابيرَ حَذِرَةٍ، وَشَعْرٍ بُنِّيٍ فاتِحٍ أَشْعَثَ جامِحٍ، لمْ يَبْدُ قَطُّ مُرَتَّبًا مَهما حاوَلَ تَمْشيطَهُ. اللَّوْنُ الوَحيدُ الَّذي ظَهَرَ في الانْعِكاسَ كانَ لِقَميصِهِ الأَصْفَرِ المُفَضَّلِ لَديهِ الَّذي اشْتَرَتْهُ لَهُ والِدَتُهُ في عيدِ ميلادِهِ الأَخيرِ.

بعدَ بِضْعِ دَقائِقَ وَضَعَتْ (فران) أمامَهُ طَبَقَ طَعامٍ يَتَصاعَدُ

منهُ البُخارُ. قالَتْ لَهُ: «خَضْراواتٌ حارَّةٌ، أَعْدَدْتُها باكِرًا باسْتخدامِ وَصْفَتي السِّرِّيَّةِ، تَناوَلْها الآنَ.»

أجابَ (ريو): «شُـ -كْـ - ـرًا لَكِ،» مُنْزعِجًا مِنَ الطَّريقَةِ الَّتي كانَ صَوتُهُ يَرتَجِفُ بِها كُلَّما أَحَسَّ بِالتَّوَتُّرِ. الأَشْياءُ الوَحيدَةُ الَّتي يَعرِفُها عَنْ جَدَّتِهِ هيَ أَنَّها كانَتْ كَبيرَةَ المُعَلِّمينَ، وأَنَّها قَدْ عاشَتْ في أوشن باي طيلَةَ حَياتِها، وأَنَّها تَتَحدَّثُ بِلَكْنَةٍ أمريكِيَّةٍ.

بينَما كانَ يَتَناوَلُ طَعامَهُ، تابَعَتْ جَدَّتُهُ حَديثَها معَهُ مِنَ الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَطْبَخِ: «فَكَّرْتُ بِاصْطِحابِكَ غَدًا في جَوْلَةٍ في المَدينَةِ، أَوْ رُبَّما يُمْكِنُنا أَنْ نَذْهَبَ للتَّسَوُّقِ، أَوْ، أَوْ . . . رُبَّما يُمْكِنُني أَنْ أُرِيَكَ الميناءَ، أَوْ حتّى آخُذَكَ إلى المَنارَةِ! هُناكَ في الأَعْلى، يُمكِنُكَ أَنْ تَرى لِأَمْيالٍ وَأَمْيالٍ، إِنَّهُ مَشْهَدٌ رائِعٌ. أَوْ إِنْ كُنْتَ تَشعُرُ بِالتَّعَبِ، فَيُمكِنُنا أَنْ نَتَمَشّى عَلى طولِ الشّاطِئِ مَعًا؟»

نظَرَتْ إليهِ بِتَرَقُّبٍ مِنْ فوقِ نَظّارَتِها.

بَقِيَتِ الكَلماتُ الَّتي أرادَ (ريو) أَنْ يَرُدَّ بِها حَقًّا عالِقَةً في حَلْقِهِ. لَمْ يأتِ هُنا للاسْتِمْتاعِ أوِ التَّسَوُّقِ، وَبِالتَّأكيدِ لَمْ يأتِ هُنا لِقضاءِ وقْتٍ مَعَ سَيِّدَةٍ لمْ تكُنْ حتّى جُزْءًا مِنْ حَياتِهِ عندَما كانَ في أَمَسِّ الحاجَةِ إِلَيها.

لِحُسْنِ الحَظِّ انْصرَفَ انْتباهُ جَدَّتِهِ عنْهُ حينَ دَخَلَ قِطٌّ إلى المَطْبَخِ. كانَ لِلقِطِّ فِراءٌ أبيَضُ طَويلٌ، وَعَلى عَينِهِ اليُسْرى بُقْعَةٌ سَوداءُ. أَعْلَنَ القِطُّ عَنْ وُجودِهِ بِمُواءٍ مُحْتَجٍّ.

«قُرْصانُ! ها أنتَ ذا! هلْ تَرغَبُ في التَّعَرُّفُ إلى ضَيفِنا؟»

لمْ يَبْدُ أنَّ القِطَّ كانَ مُهْتَمًّا بِالتَّعَرُّفِ إلى (ريو) بِالتَّحديدِ، لكِنَّ (ريو)، مَعَ ذلِكَ، أحَسَّ بِشيءٍ يَلينُ في صَدرِهِ. فقَدْ كانَ دائمًا يُريدُ حَيوانًا أليفًا، حَتّى لَوْ كانَ مُجَرَّدَ هامِستر، لكنَّ قَوانينَ الشَّقَّةِ في لندن منَعَتْ ذلِكَ. مالَ نَحْوَ القِطِّ لِيَمْسَحَ وراءَ أُذُنيهِ، كافَأَهُ القِطُّ بِخَرْخَرَةٍ عالِيَةٍ.

«هذا حَفيدي (ريو)، لَقَدْ جاءَ مِنْ لندن لِيُقيمَ مَعَنا في إجازَةٍ خاصَّةٍ، هَلْ تُريدُ أنْ تَقولَ لَهُ مَرْحَبًا؟»

«أنا لَسْتُ هُنا لِقَضاءِ *عُطْلَةٍ*! وَلستُ هُنا لِلاسْتِمتاعِ! أنا هُنا فَقَطْ لِأَنَّني مُضْطَرٌّ لِأَنْ أكونَ هُنا!» انْفَجَرَتِ الكَلِماتُ خارِجَةً مِنْ صَدْرِهِ قَبْلَ أنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ إيقافِها!

لمْ يَعرِفْ (ريو) عَلى وَجْهِ اليَقينِ سَبَبَ ما حَدَثَ! هلْ هُوَ الصَّوتُ السَّخيفُ الَّذي اسْتَخْدَمَتْهُ جَدَّتُهُ في الحَديثِ مَعَ قُرْصانَ، ذلِكَ الصَّوتُ الَّذي يَستَخْدِمُهُ الرّاشِدونَ مَعَ الأطْفالِ. أوْ لِأَنَّهُ كانَ مُرْهَقًا بعْدَ رِحلَةِ طَيَرانٍ اسْتَمَرَّتْ اثْنَتي عَشْرَةَ

ساعَةً، أوْ لأنَّها قالَتْ «إجازَةً خاصَّةً» بِطَريقَةٍ أمريكيَةٍ، أوْ رُبَّما بِسَبَبِ كُلِّ شَيْءٍ.

فتحَتْ (فران) فَمَهَا ثُمَّ أغْلَقَتْهُ. اعْتَقَدَ (ريو) أنَّها سَتَقولُ شَيئًا، لكِنَّها اكْتَفَتْ بِهَشِّ قُرْصانَ بَعيدًا عَنِ الطّاوِلَةِ، ثُمَّ انْشَغَلَتْ بإزالَةِ خُصُلاتٍ مِنَ الفِراءِ الأبيضِ مِنْ عَلى بَدْلَتِها.

انْقَضى وَقْتُ وَجْبَةِ العَشاءِ في صَمْتٍ مُطْبِقٍ.

حينَ جاءَ وَقْتُ النَّومِ، تَبِعَ (ريو) جَدَّتَهُ صاعِدًا دَرَجاتِ سُلَّمٍ خَشَبِيٍّ مُتَهالِكٍ. كانَ بإسْتِطاعَتِهِ سَماعُ صَوْتِ المُحيطِ مِنْ وَراءِ الجُدْرانِ. أشارَتْ لَهُ صَوْبَ الحَمّامِ الرَّئيسيِّ الَّذي بِداخِلِهِ أكْبَرُ (بانيو) رَآهُ في حَياتِهِ، يُمْكِنُهُ أنْ يَتَّسِعَ لِفيلَيْنِ عَلى الأقَلِّ - صَعِدَتْ جَدَّتُهُ مَزيدًا مِنَ الدَّرَجاتِ حَتّى أعلى حُجْرَةٍ في البيتِ (العِلِّيَّةِ).

قالَتْ وَهِيَ تَدْفَعُ البابَ: «هذِهِ هِيَ غُرْفَتُكَ.»

كانَتْ عِلِّيَّةً واسِعَةً ذاتَ سَقْفٍ مُقَبَّبٍ، وَعَلى الفَورِ اتَّجَهَتْ أنْظارُ (ريو) مُنْبَهِرَةً نَحْوَ السَّريرِ المُزْدَوَجِ. كانَ أكبرَ بِكَثيرٍ مِنْ سَريرِهِ الصَّغيرِ في شَقَّتِهِ في لندن. كانَ هُناكَ نافِذَةٌ مُسْتَطيلَةٌ، تَنْسَدِلُ عَلَيها بِشَكْلٍ عامودِيٍّ سَتائِرُ زَرْقاءُ داكِنَةٌ. عَبَقَ المَكانُ

بِرائحَةٍ نَظيفَةٍ وَمُنْعِشَةٍ تُشْبِهُ قَليلًا رائِحَةَ المَوادِّ المُطَهِّرَة.

كانَتْ غُرْفَةٌ تَبُثُّ في النَّفْسِ السَّكينَةَ، وَشَعَرَ (ريو) بِذلِكَ في أعْماقِهِ. غُرْفَةٌ دافِئَةٌ وَمُريحَةٌ عَلى نَحْوٍ مَألوفٍ. لمْ يَسمَعْ صَوتًا لِأيِّ سَيّارَةٍ أوْ حافِلَةٍ أو دَرّاجَةٍ نارِيَّةٍ. كُلُّ ما اسْتطاعَ سَماعَهُ هُوَ صَوْتُ هَديرِ البَحْرِ.

تَوَقَّعَ أنَّ جَدَّتَهُ قَدْ تَرَكَتْهُ واخْتَفَتْ، لكِنَّهُ تَفاجَأَ عِنْدَما اكْتَشَفَ أنَّها ما تَزالُ تَحومُ بِتَرَدُّدٍ عِندَ بابَ الحُجْرَةِ. وَضَعَ (ريو) حَقيبَتَهُ عَلى الفِراشِ وَفَتَحَ أقْفالَها. تَراجَعَ مُبْتَعِدًا حينَ انْبَعثَتْ مِنَ الحَقيبَةِ رائحَةُ كَعْكِ الزَّنْجبيلِ الَّذي وَضَعَتْهُ لَهُ والِدَتُهُ. كانَتْ رائِحَتُها نَفّاذَةً لِلغايَةِ، حَتّى إنَّها كادَتْ تَحْبِسُ أنْفاسَهُ.

قالَتْ جَدَّتُهُ: «كانتْ هذِهِ غُرْفَتُها كَما تَعرِفُ.»

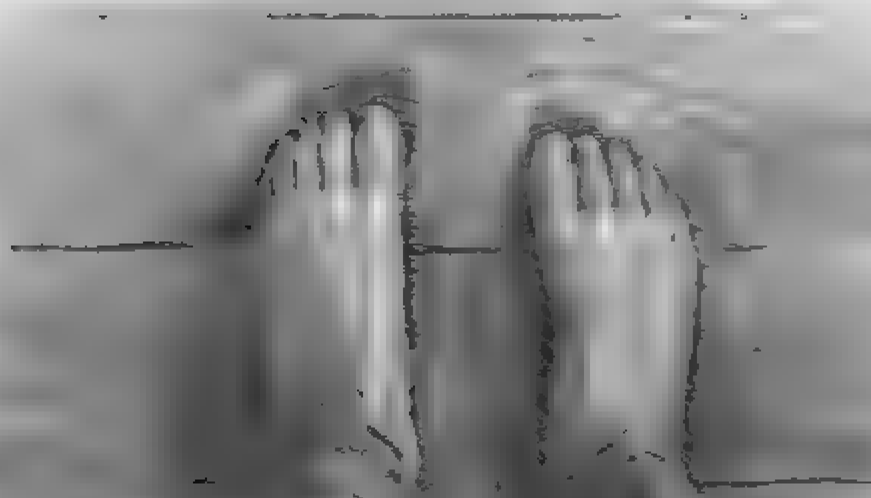
استَدارَ (ريو) نَحوَها بِسرعَةٍ: «ماذا؟ هذِهِ كانَتْ غُرْفَةُ أُمّي؟»

أَوْمَأَتْ جَدَّتُهُ مُوافِقَةً: «اعْتادَتِ التَّدَرُّبَ عَلى عَزْفِ (الكَمانِ) لِساعاتٍ وَهِيَ واقِفَةٌ هُناكَ. أمامَ النّافِذَةِ. ما زالَ بِإمكانِكَ رُؤْيَةُ آثارِ قَدَمَيْها مَحْفورَةً عَلى ألواحِ الأرْضيَّةِ الخَشبِيَّةِ.»

نَظَرَ (ريو) حَيثُ أشارَتْ. إلى رُقْعَةٍ داكِنَةٍ قَليلًا وَغائِرَةٍ،

حَيثُ الخَشَبُ مُتَآكِلٌ بِشَكْلٍ أكْثَرَ وُضوحًا مِنَ الألواحِ الأُخرى المُحيطَةِ بِهِ، وحَيثُ، إذا أَمْعَنْتَ النَّظَرَ، تَسْتطيعُ أَنْ تُميِّزَ أَثَرًا لِقَدَمَينِ.

ودونَ تَرَدُّدٍ، سارَ (ريو) خِلالَ الغُرْفَةِ، وَوَضَعَ قَدَميهِ بِحَذَرٍ حيثُ كانَتْ والِدَتُهُ تَقِفُ مِنْ قَبْلُ طيلَةَ تلكَ السَّنواتِ، وَلِأَنَّها امْرَأَةٌ ضئيلَةُ البِنْيَةِ، فَقَدْ تَطابَقَ مَوضِعُ قَدَمَيْها مَعَ قَدَمَيْهِ بِشَكْلٍ مِثالِيٍّ. أَحَسَّ بِالخَشَبِ دافِئًا تَحْتَ أصابِعِ قَدَمَيْهِ، وَأَحَسَّ بِشَيْءٍ آخَرَ أيضًا. شَيءٍ بِكْرٍ وَحَيٍّ. واقِفًا هُناكَ، اسْتطاعَ (ريو) أنْ يَشْعُرَ بِأَلْحانِ والِدَتِهِ تَدُبُّ عالِيًا في روحِ البَيتِ حيثُ كانَتْ مُخْتَبِئَةً كُلَّ تِلكَ السَّنواتِ.



أغْمَضَ (ريو) عَينيهِ، وَأَحَسَّ بِأنَّ والِدَتَهُ هُنا أيضًا، أمامَهُ تَمامًا، وقَدْ ثَبَّتَتْ (كَمانَها) أَسْفَلَ عُنُقِها وَعَيناها تَلْمَعانِ كأنّما-

«أنا . . . يُؤْسِفُني أنَّ الأمورَ قَدْ آلَتْ إلى ما آلَتْ إلَيهِ، لكنّها في المَكانِ المُناسِبِ الآنَ.» قالَتْ (فران) مُتَلَعْثِمَةً. تَيَبَّسَ عُنُقُ (ريو) وَكَتِفاهُ حينَ سَمِعَ صَوْتَ جَدَّتِهِ، وَتَلاشَتِ الألْحانُ فَجْأَةً.

«سـ-سـ-سوفَ تَتَحَسَّنُ،» قالَ (ريو) بِغَضَبٍ. «سَأعودُ إلى لندن بَعْدَ أربَعَةِ أسابيعَ، و . . . وَسَتَرينَ! سَيكونُ كُلُّ شيءٍ طَبيعيًّا مَرّةً أُخْرى.»

فَتَحَتْ (فران) فَمَها لِتَقولَ شَيئًا، لكِنْ بَدا أنَّها قَرَّرَتْ لَحْظَتَها ألّا تَفْعَلَ. «فَلْتَنَمْ جَيِّدًا إذَنْ، سَأَراكَ في الصَّباحِ.»



الفصلُ الثّالثُ

الأُمُّ

قَبْلَ شَهْرٍ واحِدٍ بِالتَّحْديدِ، اكْتَشَفَ (ريو) أَنَّ والِدَتَهُ عازِمَةٌ عَلى إِرْسالِهِ إلى كاليفورْنيا. حَدَثَ ذلكَ في مَساءِ يومِ ثُلاثاءَ مِنْ شهرِ ديسمبر. كانَ جالِسًا عَلى الأريكَةِ مَعَ والِدَتِهِ يُشاهدانِ فيلمًا وَثائقِيًّا عَنْ دِبَبَةِ القُطْبِ الشَّمالِيِّ، وَيَتناوَلانِ شَريحَتَينِ كَبيرتَيْنِ وَطَرِيَّتَينِ مِنْ كَعكِ الشّوكولاتَةِ مَحفوظَتينِ داخِلَ حَقيبَةِ (كَمانٍ) فارِغَةٍ بِجانِبِ إبريقٍ مِنَ الشّايِ.

قالَتْ والِدَتُهُ: «ريو، أيُّها القِطُّ.» كانَتْ تِلكَ طَريقَتَها الخاصَّةَ في مُناداتِهِ؛ لأنَّ أُذُنَيهِ كانَتا مُدبَّبَتينِ قَليلًا في طَرَفَيهِما العُلْويِّ. أكْمَلَتْ بتَرَدُّدٍ: «أنا . . . أنا . . . لَدَيَّ شَيءٌ لِأُخبِرَكَ بِهِ.»

أجابَها (ريو) شارِدَ الذِّهْنِ: «مممم.» كانَ يَتَساءَلُ بينَهُ وَبينَ نَفْسِهِ إنْ كانَتْ سَتَدَعُهُ يَلْتَهِمُ آخِرَ ما تَبَقَّى مِنْ قِطْعَةِ الكَعْكِ الثّانِيَةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ كانَ قَدِ الْتَهَمَ للتَّوِّ حِصَّتَها كُلَّها تَقريبًا.

«سَيَكونُ عَلَيَّ الذَّهابُ بَعيدًا لِبَعْضِ الوَقْتِ.» تابَعَتْ والِدَتُهُ كَلامَها بِهُدوءٍ شَديدٍ لِدرجَةِ أنَّ (ريو) ظَنَّ أنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ السَّمْعَ.

الْتَفَتَ إلَيها مُتَفاجِئًا: «الذَّهابُ بَعيدًا؟» لَمْ يكُنْ بِاسْتِطاعَتِهِ تَذَكُّرُ آخِرِ مَرَّةٍ غادَرا فيها لندن. «أينَ؟»

احْتَقَنَ وَجْهُها عَلى نَحْوٍ مُقْلِقٍ. دَسَّتْ خُصْلَةً مُتَدَلِّيَةً مِنْ شَعْرِها الأحْمَرِ خلْفَ أُذُنِها. ابْتَلَعَتْ ريقَها بِتَوَتُّرٍ وقالَتْ: «الـ . . . ـمُسْتَشفى.»

شَعَرَ (ريو) بحَلْقِهِ يَضيقُ بِشِدَّةٍ حتّى صارَ بِالكادِ قادِرًا عَلى التَّنَفُّسِ. نَظَرَ إلَيها مَذْعورًا.

«مُسْتَشفى؟ أ-أ-أيُّ نوعٍ مِنَ المُسْتَشْفَياتِ؟»

«مُسْتَشفى مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ.» قالَتْ والِدَتُهُ، ثُمَّ مَسَحَتْ بَعضَ الفُتاتِ مِنْ عَلى ذَقْنِهِ. شَرَحَتْ لَهُ كيفَ أنَّ بَعضَ المُسْتَشفَياتِ

لَيْسَتْ فَقطْ مِنْ أَجْلِ النّاسِ الّذين يُعانونَ أمْراضًا جَسَدِيَّةً، وأنَّ بَعضَها يَكونُ مِنْ أجْلِ الأشْخاصِ الّذين يَحتاجونَ إلى المُساعَدَةِ بِطُرُقٍ أخْرى غَيْرِ مَرئِيَّةٍ.

«قالَ الطَّبيبُ إنَّني إنْ لَمْ أذْهَبْ . . .»

ابْتَلَعَ (ريو) ريقَهُ بِقُوَّةٍ وَعَيناهُ تَتَلَفَّتانِ مِنْ حولِهِ بِانْفِعالٍ. تَنْظُرانِ في كُلِّ شَيءٍ عَدا وَجْهِ أُمِّهِ، ابْتِسامَتِها المَعْقوفَةِ مِنْ طَرَفَيها، وَعَيْنَيها اللّامِعتينِ الذَّكِيَّتينِ.

لكِنَّ الأمْرَ ازْدادَ سوءًا بَعْدَ ذلكَ. شَرَحَتْ لَهُ أنَّهُ سَيُقيمُ مَعَ جَدَّتِهِ (فران) لِمُدَّةِ أربعَةِ أسابيعَ. كانَ والِدُهُ خَيارًا غَيْرَ مَطروحٍ، بِسبَبِ طِفْلِهِ الرَّضيعِ الّذي رُزِقَ بِهِ حَديثًا. أمّا جَدَّتُهُ لِوالِدِهِ فَكانَتْ تَعيشُ في مَنْزِلٍ ريفِيٍّ صَغيرٍ بِغُرفَةِ نَوْمٍ واحِدَةٍ، وَهذا جَعَلَها مُسْتَبْعَدَةً أيْضًا.

صاحَ (ريو): «أربَعَةُ *أسابيعَ!*» انْدَفَعَ شيءٌ ما في مَعِدَتِهِ بِسرعَةٍ جَعَلَهُ يشعُرُ بِالغَثَيانِ. «لكنَّكِ نادِرًا ما تَتَحَدَّثينَ مَعَها!»

«هذا لأنَّ جَدَّتَكَ (فران) وَأنا شَخْصانِ مُخْتَلِفانِ تَمامًا، وَفي آخِرِ مَرَّةٍ الْتَقينا بِها في لندن . . . حَسَنًا، لَقَدْ اخْتَلَفْنا حِيالَ بَعضِ الأمورِ.»

«إذَنْ لِماذا تُرْسِلينَني إلى هُناكَ؟»

أجابَتْهُ بِتَعَبٍ: «لأنَّهُ أَفْضَلُ مَكانٍ مِنْ أجْلِكَ (ريو) أيُّها القِطُّ. لأنَّهُ مَكانٌ صِحِّيٌ. أحْيانًا تَحْتاجُ أنْ تَضَعَ جانِبًا خِلافاتِكَ مَعَ الآخَرينَ، حَتّى تَفْعَلَ الشَّيْءَ الصَّحيحَ. كَما أنَّ هذا الإجْراءَ سَيَكونُ فَقَطْ حَتّى . . . حَتّى تَتَحَسَّنَ حالَتي.»

كانَ هُناكَ صَمْتٌ يَتَأَرْجَحُ في الهَواءِ، ذلكَ النَّوعُ مِنَ الصَّمْتِ الَّذي يَأْتي قَبْلَ اللَّحَظاتِ الحاسِمَةِ، وكانَ (ريو) يَعرِفُ أنَّهُ أسْوَأُ نَوْعٍ مِنْ بَينِ كُلِّ أنْواعِهِ.

كانَتْ والِدَتُهُ دائمَةَ التَّقَلُّبِ وَعَلى نَحْوٍ لا يُمْكِنُ التَّنَبُّؤُ بِهِ. أحْيانًا تَكونُ خَفيفَةً وَمُحلِّقَةً مِثْلَ مِزْمارٍ، وأحْيانًا تَكونُ حَزينَةً وَثَقيلَةً مِثْلَ قَرْعاتِ طَبْلٍ. اعْتَقَدَ (ريو) أنَّ كُلَّ الرّاشِدينَ هكَذا، حتّى أخْبَرَهُ والِدُهُ أنَّ أُمَّهُ **مُختلِفَةٌ**. عِندَما ضَغَطَ عَلى والِدِهِ لِيَفْهَمَ منهُ ما تَعْنيهِ كَلِمَةُ «مُخْتَلِفَةٌ» بالضَّبْطِ، أجابَهُ بِأَنَّ أُمَّهُ لَمْ تَكُنْ سَليمَةً في رأسِها. لكِنْ ما الَّذي يُمكِنُ أنْ تَعنيهِ هذِهِ الإجابَةُ؟

غالِبًا ما كانَتْ النَّوباتُ المُظْلِمَةُ تَأْتيها بِشَكْلٍ مُفاجِئٍ وَغَيْرِ مُتَوَقَّعٍ، وفي أوقاتٍ لا يُمكِنُ التَّنَبُّؤُ بِها، ثُمَّ تَسْتَمِرُّ لأيّامٍ أَوْ لِأسابيعَ، أوْ، كَما حَدَثَ في آخِرِ مَرَّةٍ، لِأشْهُرٍ. حتّى إنَّها في تلكَ المَرَّةِ أخَذَتْ إجازَةً مَرَضيَّةً مِنَ الأورْكِسْترا وَهوَ شَيْءٌ لَمْ تَفعَلْهُ قَطُّ في حياتِها. وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ فَصْلَ الخَريفِ كانَ مُفْعَمًا

بألْوانٍ ذَهبيَّةٍ وَبرونْزيَّةٍ وَسماءٍ زَرقاءَ نَضِرَةٍ، إلّا أنَّ والِدَتَهُ قَضَتْ كُلَّ يومٍ مِنْ أيّامِهِ مَحْبوسَةً داخِلَ الشَّقَّةِ كَما لَوْ أنَّها صارَتْ فَجْأَةً خائفَةً مِنَ العالَمِ الخارِجِيِّ.

العالَمُ الخارِجِيُّ، كَما يَستطيعُ (ريو) أنْ يَراهُ، لَمْ يَتغيَّرْ.

لكِنَّ أُمَّهُ تَغيَّرَتْ.

لَمْ يكُنْ يعرِفُ ما يُمكِنُ أنْ يَتوقَّعَهُ عندَ عَودَتِهِ إلى البَيتِ مِنَ المَدرسَةِ. أحْيانًا لا تُبَدِّلُ حتّى ثِيابَ النَّوْمِ، وإنْ فعَلَتْ، فَستكونُ جالِسَةً عَلى الأريكَةِ وَالسَّتائِرُ مُنْسَدِلَةٌ بِإحْكامٍ. حتّى وِشاحَها المُفَضَّلَ، المَصنوعَ مِنَ الحَريرِ وَالمُلَوَّنَ بِنُقوشِ ريشِ الطّاووسِ، والّذي في العادَةِ لا تَرتَديهِ إلّا مِنْ أجْلِ حَفَلاتِ العَزْفِ الموسيقِيَّةِ، صارَ الآنَ مُلَطَّخًا بِبُقَعٍ مِنَ الشّاي. وَمُؤَخَّرًا صارَتْ في الشَّقَّةِ رائِحَةٌ حامِضَةٌ عَفِنَةٌ لا تَزولُ مَهْما كانَ عَدَدُ النَّوافِذِ المَفْتوحَةِ. وَلَمْ يكُنْ بِاستِطاعَةِ (ريو) تَذَكُّرُ آخِرِ مَرَّةٍ طَهَتْ فيها وَجْبَةَ عِشاءٍ كَما يَجِبُ.

لكِنْ أنْ تُرْسِلَهُ بَعيدًا إلى كاليفورْنيا؟ وَحْدَهُ؟

نظَرَ إلى كُلِّ شَيءٍ حَولَهُ للمَرَّةِ الأخيرَةِ كَأنَّما لِيَتَشَبَّعَ بِهِ: إلى أرفُفِ الكُتُبِ المُكْتَظَّةِ بالسِّيَرِ الذّاتِيَّةِ الّتي تُحِبُّ أُمُّهُ أنْ تَقرَأَها، وَحامِلِ النّوتاتِ الموسيقِيَّةِ المُقَلْقَلِ بالقُرْبِ مِنَ النّافِذَةِ، وَصُوَرِهِما

الَّتي الْتَقَطاها عَلى الشّاطِئِ في عيدِ ميلادِهِ السّابِعِ مَرصوصَةً عَلى رَفِّ المِدْفَأَةِ، وَأخيرًا نَظَرَ إلى أُمِّهِ. وحينَ فعَلَ أدرَكَ أنَّهُ بِالكادِ تَعَرَّفَ إلَيْها. كانَ وجهُها مُسْتسلِمًا وَمرتَخِيًا ومُخيفًا بَعضَ الشَّيءِ.

قالَ (ريو): «لكِنْ . . . لِمَ لا يُمكِنُني أنْ آتِيَ مَعَكِ؟»

أجابَتْهُ: «آه يا (ريو)، المُستشْفى لَيْسَ مَكانًا مُناسِبًا للأطْفالِ.»

«قلْتِ بِنفْسِكِ كَمْ كَبَرْتُ وَنَضَجْتُ.»

أجابَتْهُ بِرِفْقٍ: «ناضِجٌ أكثَرَ مِنَ اللّازِمِ، ولا يُفتَرَضُ بكَ أنْ تكونَ كذلِكَ. يُفترَضُ بكَ أنْ تكونَ في الخارِجِ تلعَبُ كَأَيِّ فتًى في الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ، وليسَ عالِقًا هُنا للاعْتِناء بي.»

اعترَضَ (ريو): «لكنّي أحِبُّ الاعْتِناءَ بِكِ. ماذا لَوْ لَمْ أكُنْ راغِبًا في الذَّهابِ بَعيدًا إلى أمريكا؟»

جَعَلَتْهُ فكرَةُ الابْتِعادِ عنْها يشعُرُ بِنَفْسِهِ عارِيًا ومكْشوفًا وَعُرْضَةً للخَطَرِ، كأنَّ شَخْصًا ما انتزَعَ مِنْ عَليهِ مِعْطَفًا سَميكًا، لَمْ يكُنْ يعرِفُ حتّى إنَّهُ يَرتَديهِ. ارتَجَفَ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّ مِفتاحَ التَّدْفِئَةِ كانَ مُدارًا حتّى أقْصى دَرَجَةٍ.

تَنَهَّدَتْ والِدتُهُ، ثُمَ قَرَصَتْ أرنَبَةَ أنْفِهِ بِأصابِعِها، وقالَتْ: «المُسْتَشفى مكانٌ لِلكِبارِ مِثْلي . . . الَّذينَ يَحتاجونَ إلى المُساعَدَةِ.

أراد (ريو) أن يحتج أن يواصل الاحتجاج على تغيير رأيها
لكن والدته بدأت بالبكاء وتساقطت دموع قطيعة وتسعة
من عينيها إلى داخل كوب الشاي الذي تمسك به وانسكبت من
على حوافه وعلى الرغم من أن حالتها هذه كانت دائما تصيبه
بالخوف إلا أنه ضم يدها بين يديه كانت يدا دافئة وخشنة من
العزف على (الكمان) لكنها كانت أيضا أنعم يد عرفها



وَ(ريو)، الَّذي لَمْ يَرَ نَفْسَهُ شُجاعًا قَطُّ، أَخَذَ أَكْبَرَ وَأَشْجَعَ نَفَسٍ في حياتِهِ، وقالَ بِصوتٍ صَغيرٍ: «حَسَنًا، سَأَذْهَبُ.»



الفصلُ الرّابعُ

مُكالَمةٌ هاتِفيّةٌ

اِعْتَقَدَ (ريو) أنَّهُ سَيحتاجُ وَقْتًا طَويلًا حتّى يَغْشاهُ النُّعاسُ، لكِنَّهُ سُرْعانَ ما غَطَّ في نَومٍ عَميقٍ وَشاسِعٍ كأنَّهُ غاصَ إلى أَعمَقِ عُمْقٍ في المُحيطِ، مَكانٍ مُعْتِمٍ وَموحِشٍ، حيثُ تَلتَفُّ حَولَهُ الظِّلالُ وَالأَصواتُ الغامِضَةُ. وحينَما اسْتَيقَظَ أخيرًا، شَعَرَ بأنَّهُ اضْطَرَّ إلى رُكوبِ غَوّاصَةٍ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الصُّعودِ إلى سَطْحِ البَحْرِ.

وبَينما تَسَلَّلَ ضَوءُ النَّهارِ عَبْرَ سِتارَةِ النّافِذَةِ، شَعَرَ (ريو) بِالارْتِباكِ. لقدْ كانَ السَّريرُ أَلْيَنَ مِنْ سَريرِهِ في لندن، والهَواءُ أَنْقى. وَالصَّوْتُ! لَمْ يَبْدُ الصَّوْتُ هُنا كَضجيجِ حَرَكَةِ المُرورِ.

إِنَّهُ المُحيطُ الهادِئُ!

أَكْبَرُ مُحيطٍ في الكَوْكَبِ بِأَسْرِهِ، مِنْطَقَةٌ هائلَةُ الاتِّساعِ حتّى إِنَّها تَفوقُ في اتِّساعِها كُلَّ القارّاتِ مُجْتَمِعَةً.

قَفَزَ (ريو) مِنْ عَلى الفِراشِ، ورَكَضَ نَحْوَ النّافِذَةِ. رفَعَ السِّتارَةَ بِانْفعالٍ، ثُمَّ شَهَقَ.

كانَ المَشْهَدُ مُذهِلًا في ضَوْءِ النَّهارِ السّاطِعِ. لوحَةٌ يَمْتَزِجُ فيها اللَّونُ الأَزْرَقُ وَالزُّمُرُّدِيُّ وَالتُّرْكوازِيُّ، وعَلى سَطْحِها يَتراقَصُ الزَّبَدُ الأَبْيَضُ فَيَبْرُقُ كَالأَلْماسِ. امْتَدَّ البَحرُ أمامَ عَينيهِ إِلى ما لا نِهايَةَ، حتّى ذابَ في زُرْقَةِ السَّماءِ، ولَمْ يَعُدْ بِاسْتِطاعَتِهِ تَبيُّنُ مِنْ أينَ يَبْدَأُ أَحَدُهُما، وَمِنْ أَيْنَ يَنتَهِي الآخَرُ. انْدفَعَ شَيءٌ خَفيفٌ وَخَفّاقٌ عَبْرَ شَرايينِهِ، نافِضًا عَنْ جَسَدِهِ آخِرَ ما تَبَقّى مِنْ فُتاتِ النَّومِ. لكِنَّهُ بعدَ ذلِكَ نَظَرَ نحوَ أَلْواحِ الأَرضِ الخَشَبِيَّةِ كأَنَّهُ اسْتَشْعَرَ شَيئًا قادِمًا مِنْها، وعَلى الفَورِ تَبَدَّدَ مِنْ شَرايينِهِ ذلِكَ الشُّعورُ المُنْعِشُ.

«أُمّي.» هَمَسَ (ريو) وقدْ عَصفَتْ بِقلْبِهِ مَوْجَةٌ مِنَ الشَّوقِ

إلى مَوطِنِهِ.

أمسَكَ بِهاتِفِهِ المَحمولِ. كانَتْ قَدْ شَرَحَتْ لَهُ أَنَّها لَنْ تَكونَ قادِرَةً عَلى إرسالِ الرَّسائِلِ الهاتِفِيَّةِ إليهِ، ليسَ لأنَّها لا تُريدُ التَّواصُلَ مَعَهُ، لكنَّ الطَّبيبَ يُفَضِّلُ أَنْ تَسْتَريحَ اسْتِراحَةً تامَّةً. لكِنْ تَسْتَريحُ مِنْ ماذا؟ مِنْهُ هُوَ؟ أحْيانًا، وأَثْناءَ أَكْثَرِ أَفْكارِهِ السَّوْداوِيَّةِ، يَتساءَلُ (ريو) إنْ كانَ هُوَ سَبَبُ مَرَضِ والِدَتِهِ.

بَدَلًا مِنْ أَنْ تَستخْدِمَ والِدَتُهُ هاتِفَها المَحْمولَ، اتَّفَقَتْ مَعَهُ عَلى الاتِّصالِ بِهاتِفِ جَدَّتِهِ الأَرْضِيِّ كُلَّ يَومِ أَحَدٍ، وَبِسبَبِ فارِقِ التَّوقيتِ، اتَّفقا أَنْ تَتَّصِلَ في وَقْتِ شايِ بَعْدِ الظَّهيرَةِ في لندن.

عادَ إليهِ شَيءٌ مِنَ انْتِعاشِهِ السّابِقِ. فأَوَّلُ مُكالَمَةٍ هاتِفِيَّةٍ مَعَ والِدَتِهِ مَوْعِدُها اليومَ!

ابْتَسمَتْ (فران) بِحَذَرٍ حينَ دخَلَ (ريو) إلى المَطْبَخِ: «ها أنتَ ذا! هلْ نِمْتَ جَيِّدًا؟»

أَوْمَأَ (ريو) موافِقًا. اسْتَغرَقَ في تَأَمُّلِ المَشهَدِ الصَّباحِيِّ: رائحَةُ القَهوَةِ الطّازَجَةِ تَملأُ الهَواءَ، وَقُرْصانُ مُسْتلقِيًا عَلى الأرضِ، باسِطًا أطْرافَهُ في بُقعَةٍ مِنَ ضَوءِ الشَّمسِ.

قالَتْ (فران): «هذا هُوَ المُحيطُ كَما تَرى. أفْضَلُ دَواءٍ في العالَمِ.»

صَمَتَتْ قَليلًا، ثُمَّ أكمَلَتْ: «لا أعْرِفُ ما تَتَناوَلُهُ عادَةً عَلى الإفْطارِ، لكِنْ يُمْكِنُني أنْ أُعِدَّ لِكَ (البان-كيك أو الوافل) أوِ البيضَ. ما الَّذي تُفضِّلُهُ؟»

«أنا-أنا-أنا . . .» خَفَتَ صَوْتُهُ حتّى غابَ. عادَةً ما يَتناوَلُ (ريو) طَبَقًا مِنْ رَقائقِ الذُّرَةِ فَقطْ. وَأحْيانًا يَأكُلُها جافَّةً حينَ لا يَتوفَّرُ الحَليبُ. لكِنْ بِالنِّسْبَةِ لَهُ فلَمْ تكُنْ هذِهِ أمورٌ يُحِبُّ التَّحَدُّثَ عَنْها.

قالَتْ (فران)، حينَ اعْتَقَدَتْ خَطَأً أنَّ صَمْتَهُ يَعني تَرَدُّدَهُ: «لأقْتَرِحْ عَلَيْكَ هذا. لِمَ لا أُعِدَّ لَكَ كُلَّ هذِهِ الأشْياءِ، وَبعدَها يُمكِنُكَ أنْ تُقَرِّرَ؟»

رَفَعَ (ريو) حاجِبَيْهِ. *كُلَّ هذِهِ الأشْياءِ؟*

لَمْ تَنْتَظِرْ (فران) إجابَتَهُ. أخْرجَتِ المِقلاةَ مِنَ الخزانَةِ، وَشَمَّرَتْ كُمّي حُلَّتِها الخضْراءِ حتّى مِرْفَقَيْها، ثُمَّ شَرَعَتْ تُخْرِجُ أدَواتِ طَهْيٍ مُخْتَلِفَةً مِنَ الأدْراجِ، حينَ رَنَّ الهاتِفُ.

كانَ صَوتُ الرَّنينِ مُفاجِئًا وَصاخِبًا لِلغايَةِ حتّى إنَّ قُرْصانَ قَفَزَ في الهَواءِ فَزِعًا.

أجابَتْ (فران) الهاتِفَ. وبعْدَ بِضْعِ كَلِماتٍ ناوَلَتْهُ السَّمّاعَةَ. حاوَلَ (ريو) جاهِدًا ألّا يَنتزِعَ السَّمّاعَةَ مِنْ يَدِها بِعُنْفٍ.

«مَرحَبًا (ريو) أيُّها القِطُّ،» هَمَسَتْ والِدَتُهُ عَبْرَ الهاتِفِ.

كانَتْ (فران) عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَطْبَخِ مَشغولَةً بِخَفْقِ عَجينِ (البان-كيك)؛ لِذا تَوَجَّهَ (ريو) إلى البابِ الخَلْفِيِّ حيثُ السَّماءُ في الخارِجِ زَرقاءُ بَهِيَّةٌ، وَالشَّمسُ كُرَةٌ صَفراءُ مُعَلَّقَةٌ عالِيًا، وَأَكْثَرُ سُطوعًا وَجُرْأَةً مِنْ شَمسِ لندن الضَّعيفَةِ. مِنَ الصَّعْبِ عَليهِ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّهُ بِالأمسِ فقَطْ اسْتيقَظَ في ذُرْوَةِ فَصْلِ الشِّتاءِ.

جلَسَ عَلى عَتَبَةِ البابِ وأَنْصَتَ لِوالِدَتِهِ. غَمَرَهُ صَوتُها المَألوفُ وهِيَ تَحكي لَهُ عَنْ يَومِها الأَوْلِ في المُستَشْفى، وقَدْ أَطْلَقَتْ عَليهِ اسْمَ عِيادَةٍ، وعَنِ الأَشْياءِ الَّتي صارَتْ تَقومُ بِها. كانَ اتِّصالُها مُريحًا بِالطَّريقَةِ الَّتي يَكونُ بِها المَطَرُ مُريحًا أَحْيانًا؛ حينَ يَكونُ جُلُّ ما تُريدُ فِعْلَهُ هوَ البَقاءُ داخِلَ البَيتِ مُتَدَثِّرًا بِدِفْءٍ تُشاهِدُ أفْلامًا.

بلَعَ ريقَهُ بِقُوَّةٍ وَتَمْتَمَ: «أَتَمَنّى لَوْ كُنْتُ مَعَكِ هُناكَ.»

«إِنَّها أَربعَةُ أَسابيعَ فقَطْ،» قالَتْ والِدَتُهُ. «سَتَنْقَضي هذِهِ المُدَّةُ سَريعًا، وَعِنْدَما أَلْتَقِي بِكَ بعدَها، فَسَيكونُ بِإمكانِكَ أَنْ تَحْكِيَ لي عنْ كُلِّ الأَشْياءِ الَّتي قُمْتَ بِها.»

مِثْلُ ماذا؟ أرادَ أَنْ يقولَ لَها. ما الَّذي يمكِنُ أَنْ يَقومَ بِهِ في

هذِهِ البلدَةِ طيلَةَ أربعَةِ أسابيعَ؟ لكِنَّهُ بِالطَّبْعِ لَمْ يَقُلْ هذا.

سأَلَتْهُ والِدَتُهُ: «كيفَ حالُ جَدَّتِكَ؟»

اخْتَلَسَ نَظْرَةً عَبْرَ البابِ الخَلْفِيِّ حيثُ (فران) تُقَلِّبُ شَيئًا على المَوْقِدِ. هناكَ كَثيرٌ مِنَ الأشياءِ الَّتي يُريدُ قَوْلَها، لكنَّهُ في النِّهايَةِ اخْتارَ أَبْسَطَها.

«إنَّها ليسَتْ أنْتِ.»

«رُبَّما هذا شَيءٌ جَيِّدٌ،» أجابَتْ والِدَتُهُ بِصوتٍ حَزينٍ. «(ريو) أيُّها القِطُّ؟»

«نَعَمْ،» أجابَها، وهوَ يَعُضُّ شَفَتَهُ وَيَشْعُرُ بِالعَجْزِ.

«عَلَيَّ الذَّهابُ سَريعًا، لكنْ هَلّا أسْدَيْتَ لِيَ مَعروفًا؟» سَأَلَتْهُ.

«ارْفَعْ سَمّاعَةَ الهاتِفِ عالِيًا حتّى أتَمَكَّنَ مِنْ سَماعِ صَوتِ المُحيطِ. مَضى وقْتٌ طَويلٌ منْذُ عُدْتُ إلَيهِ . . . أُريدُ أنْ أُغْمِضَ عَيْنَيَّ، وأتَخَيَّلَ أنَّني هُناكَ مَعَكَ.»

اسْتَقامَ (ريو) واقِفًا عَلى قَدمَيهِ، كانَ هذا شَيئًا يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ. «انْتَظِري لَحظَةً!»

اتَّجَهَ نَحْوَ الشاطِئِ، اقْتَرَبَ مِنهُ قَدْرَ الإمْكانِ دونَ أنْ يَفْقِدَ الاتِّصالَ، كانَ صَوْتُ ارْتِطامِ المَوجِ يَمْلأُ الهَواءَ كَصوتِ الرَّعْدِ حينَ يَشُقُّ السَّماءَ.

«هَلْ تَستطيعينَ سَماعَهُ؟»

كانَتْ هُناكَ لَحْظَةُ صَمْتٍ قَصيرَةٌ. قَرَّبَ (ريو) سَمّاعَةَ الهاتِفِ مِنَ الأمْواجِ أكْثَرَ. كانَتْ تَندفِعُ داخِلَةً في البَحرِ تارَةً، وَخارِجَةً مِنهُ تارَةً. *داخِلَةً تارَةً وخارِجَةً تارَةً.*

«أسْتَطيعُ» تَمْتَمَتْ والِدَتُهُ. «أوه، لا يُمكِنُني أنْ أصِفَ لَكَ كَمْ يَجعَلُني هذا الصَّوْتُ سَعيدَةً.»

عندَما وَضَعَ سَمّاعَةَ الهاتِفِ على أذُنِهِ مَرَّةً أخْرى، كانَ باسْتِطاعَةِ (ريو) أنْ يُقْسِمَ بِأنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ ابْتِسامَةِ أُمِّهِ.

ثُمَّ تَثاءَبَتْ عالِيًا.

«أُمّي؟» قَرَّبَ السَّمّاعَةَ مِنْ أُذُنِهِ أكْثَرَ. لَمْ يكُنْ مُسْتَعِدًّا لِقولِ كَلِمَةِ وَداعًا. لَيْسَ الآنَ.

«نَعم، (ريو) أيُّها القِطُّ»

«أ-أ-أنتِ سَتَتَحَسَّنينَ، ألَيسَ كذلِكَ؟»

أطْلَقَتْ تَنْهيدَةً طَويلَةً وَعميقَةً. لَمْ تكُنْ تَنهيدَةً لَطيفَةً راضِيةً، بَلْ كانَتْ مِنَ النَّوْعِ الآخَرِ. بَعْدَ ذلِكَ أخْبَرَتْهُ أنَّ عَلَيْها الذَّهابَ. حَدَّقَ (ريو) في المُحيطِ. كانَ بِإمْكانِهِ رُؤيَةُ باخِرَةٍ سِياحِيَّةٍ ضَخمَةٍ بَعيدًا في البَحرِ. كانَتْ تُبْحِرُ بَعيدًا بَعيدًا عَنهُ.

«إلى اللِّقاءِ» هَمَسَ (ريو).

جَلَسَ هُناكَ لِأطْوَلِ وَقْتٍ مُمكِنٍ حَتّى انْفَتَحَ البابُ الخَلفِيُّ، فانْدَفَعَتْ خارِجَةً نَحْوَهُ الرّائحَةُ السّاخِنَةُ (للوافل والبان كيك) وَالبَيضِ المَقْلِيِّ.

نادَتْ (فران): «الفَطورُ جاهِزٌ!»

لكِنَّ (ريو) لَمْ يتحَرَّكْ. مِنْ غيرِ المُمْكِنِ أنْ يَتناوَلَ أيَّ شَيءٍ الآنَ. بَدلًا مِنْ هذا، ضَمَّ رُكْبَتَيهِ إلى صَدْرِهِ، وَتَمَنّى مِنْ أعْماقِ قَلبِهِ أنْ يَتمَكَّنَ مِنْ سَماعِ صَوْتِ ابْتسامَةِ أُمِّهِ مَرَّةً أخْرى.



الفصلُ الخامسُ

غُلْبَةُ البَهْجَةِ

بَقِيَتْ شَمسُ كاليفورنيا دافِئَةً طيلَةَ الأيّامِ القَليلَةِ التّالِيَةِ، لكنَّ (ريو) قَضى مُعظَمَها في غُرفَةِ نومِهِ. عرَضَتْ عَليهِ (فران) أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أنْ تأخُذَهُ في جَولَةٍ في (أوشن باي)، لكنَّهُ في كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَجِدُ عُذْرًا كي لا يَذهَبَ، عَلَّها تَفهَمُ بِهذِهِ الطَّريقَةِ ما يَشعُرُ بِهِ نَحْوَها.

حتّى إنَّهُ صَنَعَ لِنفْسِهِ تَقْويمًا للأيّامِ، وَصارَ يَشْطُبُ بِالقلَمِ

عَلى كُلِّ يَومٍ يَمُرُّ. انْقَضى يَومٌ آخَرُ، وَصارَ أقْرَبَ بِمقدارِ يَومٍ واحِدٍ مِنْ مَوعِدِ مُكالَمَةٍ أُخْرى مَعَ والِدَتِهِ. وأقْرَبَ بِمِقدارِ يَومٍ واحِدٍ مِنْ مَوعِدِ العَودَةِ إلى لندن.

لكِنَّ الوَقتَ، رغْمَ هذا، ظَلَّ يَزحَفُ بِبُطْءٍ. كانَتِ اللَّيالي هِيَ الأسْوَأُ. كانَ (ريو) يَستيقِظُ وأَلَمٌ حادٌّ يَغْرِزُ مَخالِبَهُ في مَعِدَتِهِ، لا يَزولُ مَهْما تَقَلَّبَ في فِراشِهِ. أحْيانًا كانَ الألَمُ شَديدًا إلى دَرَجَةٍ لا يَعودُ مَعَها قادِرًا عَلى التَّنَفُّسِ.

في يومِ الخَميسِ، كانَ (ريو) واقِفًا عَلى أَثَرِ قَدَمي والِدَتِهِ يُحاوِلُ دونَ جَدْوى اسْتِدعاءَها مِنْ أَلْواحِ الأرْضِ الخَشَبِيَّةِ، حينَ سَمِعَ طَرْقًا عَلى بابِ حُجْرَتِهِ.

«طق طق!» نادَتْ (فران) مِنْ خَلْفِ البابِ. لَمْ يفْهَمْ (ريو) لِمَ احْتاجَتْ جَدَّتُهُ أنْ تَقولَ تلكَ الكَلماتِ بَدَلَ أنْ تَكْتَفِيَ بِالطَّرْقِ. كانَتْ مُجَرَّدَ عادَةٍ أخْرى مِنْ عاداتِها المُزْعِجَةِ.

«ادْخُلي!» صاحَ (ريو).

أطَلَّتْ بِرَأْسِها مِنْ وراءِ البابِ، وقالَتْ: «أحْضَرْتُ لَكَ مَلابِسَكَ النَّظيفَةَ.»

كانَ (ريو) يَعرِفُ أنَّ عَليهِ أنْ يَكونَ مُمْتَنًّا؛ فَقَدِ اعْتادَ عَلى غَسْلِ مَلابِسِهِ بِنَفْسِهِ في لندن. لكِنْ، لِسَبَبٍ ما، ظَلَّتْ كَلِمَةُ

«شُكْرًا» عالِقَةً في حُنْجُرَتِهِ. بَدَلًا مِنْ هذا الْتَقَطَ قَميصَهُ الأَصْفَرَ وَقَرَّبَهُ مِنْ وَجْهِهِ. وَبِأَلَمٍ أَدْرَكَ أَنَّ رائحَتَهُ لَمْ تَعُدْ تشبِهُ رائحَةَ بَيتِهِ.

وضَعَتْ (فران) بَقِيَّةَ مَلابِسِهِ عَلى السَّريرِ وهِيَ تَتَنَهَّدُ، ومِنْ فوقِ نَظّارَتِها، ألقَتْ عَليهِ نَظرَةً مِنْ نَظَراتِها المُضحِكَةِ الَّتي كانَتْ مولَعَةً بِها. ثُمَّ صَفَّتْ حُنْجَرَتَها بِشِدَّةٍ.

قالَتْ وقَدْ تورَّدَتْ وَجْنَتاها قَليلًا: «أَعْلَمُ أَنَّ هذا وقْتٌ عَصيبٌ عَليكَ، لكنّي واثِقَةٌ مِنْ أنَّ والِدَتَكَ لا تُريدُ مِنكَ أنْ تَقضِيَ كُلَّ وقتِكَ حَبيسًا في غُرفَتِكَ.»

جَفَلَ (ريو). مَتى سَتَفْهَمُ أنَّهُ لا يُريدُ التَّحَدُّثَ عَنْ والِدَتِهِ؟ لَيْسَ مَعَ أيِّ أَحَدٍ. ولَيسَ مَعَها هيَ عَلى وَجْهِ الخُصوصِ.

أَكْمَلَتْ جَدَّتُهُ: «أنا . . . أنا فَكَّرْتُ أنَّكَ سَتُحِبُّ هذا؟»

سمِعَ صوتَها وهِيَ تُغادِرُ الغُرفَةَ، ثُمَّ وهِيَ تَدخُلُ مَرَّةً أُخْرى، وتَضَعُ شَيئًا بِجِوارِهِ عَلى السَّريرِ. شَيئًا جَعَلَ أَغْطِيَةَ الفِراشِ تَغوصُ قَليلًا تَحْتَ ثِقلِهِ. أَبْقى (ريو) عَينَيهِ مُثَبَّتَتينِ عَلى المُحيطِ حَتّى اغْبَشَّتْ رُؤْيَتُهُ، ولَمْ يُكَلِّفْ نَفْسَهُ النَّظَرَ إلى العُلْبَةِ إلّا بَعْدَ أنْ أغلَقَتْ جَدَّتُهُ البابَ.

كانَتْ عُلْبَةَ أحْذِيَةٍ، لِماذا تَرَكَتْ لَهُ عُلْبَةَ أحْذِيَةٍ يا تُرى؟

ثُمَّ لاحَظَ المُلْصَقَ الصَّغيرَ في الرُّكْنِ العُلْوِيِّ الأيمَنِ مَعَ كِتابَةٍ بِخَطِّ اليَدِ كانَ بِمَثابَةِ لَكْمَةٍ في قَلْبِهِ.

عُلْبَةُ بَهْجَتي

«أمّي.» هَمَسَ (ريو). أحَسَّ بِشيءٍ جامِدٍ وَهَشٍّ يتكَسَّرُ في أعماقِهِ.

مَرَّرَ أصابِعَهُ على الغِطاءِ. بِقَدْرِ ما يَستطيعُ أنْ يَتذَكَّرَ، لطالَما جَمعَتْ والِدَتُهُ الأشْياءَ الَّتي جَعلَتْها تَبتَسِمُ.

لَمْ تكُنْ قَطُّ أشْياءَ باهِظَةَ الثَّمَنِ، لَمْ تكُنْ خَواتِمَ ذَهبيَّةً، أوْ حُلًى فاخِرَةً، بَلْ أشياءَ بَسيطَةً: تَذْكِرَةَ قِطارٍ مِنْ تلكَ المَرَّةِ الَّتي ذَهبوا فيها إلى الشّاطئِ، حَصا عَلى شَكْلِ قَلْبٍ؛ لِأنَّ والِدَتَهُ قالَتْ إنَّ القُلوبَ المَصنوعَةَ مِنَ الطَّبيعَةِ هِيَ الأفْضَلُ عَلى الإطْلاقِ، وَريشَةً كَبيرَةً بَيضاءَ، وَأصدافًا بَحريَّةً يُمكِنُكَ أنْ تَسمَعَ فيها صَوتَ المُحيطِ مِنْ عَلى بُعْدِ أمْيالٍ وَأميالٍ.

قالَتْ والِدَتُهُ إنَّها قَدْ جَمَعَتْها؛ لِأنَّها تُذَكِّرُها بِأنْ تكونَ سَعيدةً.

لَمْ يَفهَمِ الأمْرَ تَمامًا في ذلِكَ الوقْتِ. لماذا يَحتاجُ أيُّ شَخصٍ إلى تذكيرٍ بأنْ يكونَ سَعيدًا؟ إنَّهُ شَيءٌ طَبيعِيٌّ كَالتَّنَفُّسِ بِالتَّأكيدِ. لكِنَّ والِدَتَهُ قالَتْ إنَّ الشُّعورَ بِالسَّعادَةِ لَيْسَ سَهْلًا

عَلى بَعضِ النّاسِ كَما هُوَ سَهْلٌ عَلى آخَرينَ. وهكَذا، مَعَ مرورِ الوَقْتِ، صارَ (ريو) يُحِبُّ أنْ يَجمَعَ الأشْياءَ مِنْ أجْلِها. أيَّ شَيءٍ يَحميها مِنَ الشُّعورِ بِالحُزنِ.

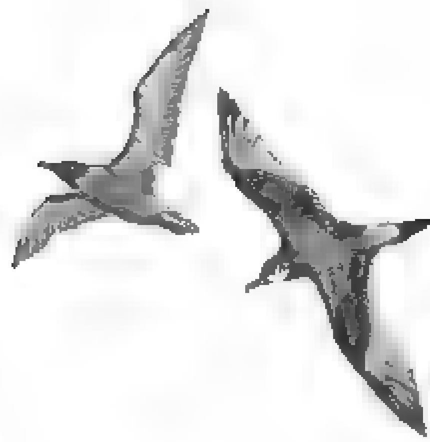
اسْتَغرقَ مِنهُ الأمْرُ بِضْعَ دَقائقَ حَتّى يَفْتَحَ العُلْبَةَ. وَضَعَ أوَّلًا أصابِعَهُ أسْفَلَ الغِطاءِ، ثُمَّ رَفَعَ أحَدَ أطْرافِهِ إلى الأعْلى، قَبْلَ أنْ يَفْتَحَهُ كامِلًا بِحَذَرٍ. كانَتْ عُلْبَةُ الأحْذيَةِ مُمتلئةً حَتّى آخِرِها بِكَثيرٍ مِنْ أدواتِ الزّينَةِ وَالأوراقِ، ووِشاحٍ حَريريٍّ قَديمٍ، حينَ قَرَّبَهُ (ريو) مِنْ أنْفِهِ، كانَ نَسيجُهُ لا يَزالُ يحمِلُ أثَرًا باهِتًا مِنْ عِطْرِ الياسَمينِ الَّذي تُفَضِّلُهُ أمُّهُ.

شَيئًا فَشيئًا، أخْرَجَ كُلَّ ما في العُلْبَةِ مِنْ حاجِيّاتٍ، وَرَصَّها عَلى السَّريرِ مِنْ حَوْلِهِ: شهادَةِ تَقديرٍ قَديمَةٍ مِنَ المَدْرسَةِ تَقولُ إنَّ (بيلا) أظهرَتْ قُدُراتٍ اسْتِثنائيَّةً في العَزْفِ بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ في مِثْلِ عُمُرِها، فاتورَةِ شِراءِ أوَّلِ (كَمان) لَها، عَدَدٍ مِنْ بِطاقاتِ التَّهنئةِ بِعيدِ ميلادِها، خِطابِ القَبولِ مِنْ معهَدِ الموسيقى في نيويورك، صورةٍ لِأمِّهِ عَلى مَتْنِ قارِبٍ بِشَعْرٍ يَتطايَرُ في الهَواءِ، وأكبَرِ ابْتِسامَةٍ رآها (ريو) في حَياتِهِ، وحتّى تَذْكِرَةُ رِحلَةِ قارِبٍ.

كانَ هُناكَ شَيءٌ أخيرٌ في قاعِ العُلْبَةِ: دَفترُ رَسْمٍ بِحجمِ A4.

كانَ يَعرِفُ أنَّ والِدَتَهُ تُحِبُّ أنْ ترسُمَ في أوقاتِ فراغِها؛ كيومِ رَسمَتْ كَلْبَ الجيرانِ الألمانيِّ، وطائرَ أبو الحِنّاءِ الشَّقِيِّ الَّذي اعتادَ أنْ يأتِيَ أحيانًا إلى نافِذَةِ مَطبَخِهِمْ، بالإضافَةِ إلى رُسوماتٍ لا حَصْرَ لَها (لريو). لكنْ ما الَّذي رَسَمَتْهُ يا تُرى حينَ كانَتْ أصغَرَ سِنًّا؟ طَوى الصَّفَحاتِ الأولى في تَرَدُّدٍ . . .

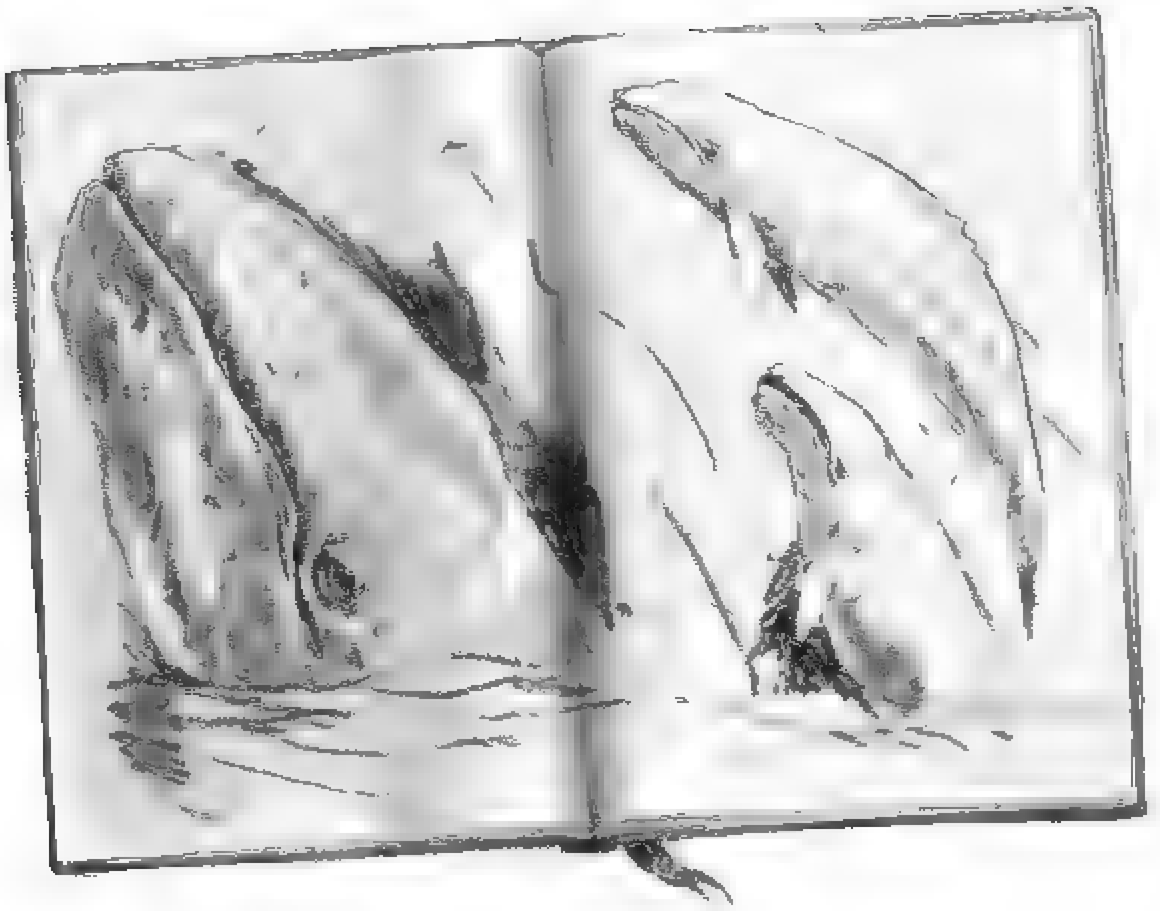
كانَ دَفتَرُ الرَّسْمِ مَليئًا بِالحيتانِ.



الفصلُ السّادسُ

حيتانٌ رَمادِيّةٌ

كانَ دَفْتَرُ الرَّسْمِ مَليئًا بِالحيتانِ فِعْلًا: رأسٌ، ذيلٌ يَرتفِعُ خارِجًا مِنَ المُحيطِ، ماءٌ يَندفِعُ عاليًا مِنْ فَتحَةِ تَنَفُّسٍ، رَسْمَةٌ لِحوتٍ يقْفِزُ في الهَواءِ، وأُخْرى بِها حوتٌ يَسبَحُ مُنْزلِقًا عَلى سَطْحِ الماءِ، وَرُسوماتٌ أخْرى تَستعرِضُ المَزيدَ مِنَ الذُّيولِ، والمَزيدَ مِنَ القَفَزاتِ المُذْهِلَةِ، والمَزيدَ مِنَ الرُّؤوسِ المُطِلَّةِ مِنَ الماءِ. بَعْضُها كانَتْ لِحيتانٍ بِمُفْرَدِها، وَأخْرى لأُمَّهاتٍ مَعَ صِغارِها.



أشاحَ (ريو) بِنظَرِهِ بَعيدًا عَنِ الرُّسوماتِ، والْتَفتَ نَحْوَ المُحيطِ عَبْرَ النّافِذَةِ. كانَ سطْحُ المُحيطِ مُنْبَسِطًا وَهادِئًا. تَذَكَّرَ حَديثَ والِدَتِهِ عَنِ الحيتانِ كُلَّما أرادَتْ إثارَةَ حَماسَتِهِ تِجاهَ كاليفورنيا. مِنَ الواضِحِ أنَّ كَثيرًا مِنها موجودٌ هُنا. حيتانٌ بِحَجْمِ مَلاعِبِ كُرَةِ القَدَمِ، وَحيتانٌ بِقلوبٍ كَبيرَةٍ بِحَجمِ السَّيّاراتِ. وَحيتانٌ تَسْبَحُ ذَهابًا وَإيابًا عَلى طولِ ساحِلِ كاليفورنيا كُلَّ عامٍ.

«هذا هُوَ أَفْضَلُ وَقْتٍ في السَّنَةِ لِزيارَةِ كاليفورنيا،» كانَتْ

والِدَتُهُ تَقولُ باتِّقادٍ. «سَتَمُرُّ الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ بالقُرْبِ مِنْ (أوشن باي) أثْناءَ هِجْرَتِها السَّنوِيَّةِ نَحْوَ الجَنوبِ. حَتّى إنَّكَ سَتَتَمَكَّنُ مِنْ رُؤْيَةِ أَحَدِها!»

كانَ ما يزالُ قادِرًا عَلى تَذَكُّرِ نَبْرَةِ الحَماسِ في صَوتِها، كأنَّ رُؤيَةَ حوتٍ هوَ أفضلُ شَيءٍ عَلى وَجْهِ الأرضِ - أفْضَلُ مِنَ المُثَلَّجاتِ أوْ قِطاراتِ المَلاهي أوْ حتّى أعيادِ الميلادِ. كانَ (ريو) يَشُكُّ في أنَّ رُؤيَةَ حوتٍ يمكِنُ أنْ تكونَ مُثيرَةً إلى هذا الحَدِّ، لكنَّهُ الآنَ، وهوَ يَنظُرُ إلى الرُّسوماتِ، أَحَسَّ بِقشْعَريرَةٍ غَريبَةٍ تَسْري في عَمودِهِ الفِقَرِيِّ.

تَمتَمَ وَأصابِعُهُ تَتَلَمَّسُ الأوراقَ بِرِفْقٍ «أنتُمْ كائناتٌ جَميلَةٌ.»

عادَ (ريو) بعدَ ذلِكَ لِتَصَفُّحِ دَفْتَرِ الرَّسْمِ بِبُطْءٍ، صَفْحَةً تلْوَ الأخْرى. كانَتْ كُلُّ الرُّسوماتِ مُذْهِلَةً، إلّا أنَّ واحِدَةً مِنْها لَفَتَتِ انْتِباهَهُ أكْثَرَ مِنْ غَيْرِها.

كانَتْ تلْكَ الرَّسْمةُ بِقَلَمِ الرَّصاصِ، وكانَتْ لِحوتٍ يُطِلُّ بِرأسِهِ إلى الأعْلى مِنْ بينِ الأمْواجِ، عَينُهُ واضِحَةٌ وَمُفعَمَةٌ بِالحَياةِ، حتّى إنّ (ريو) تَوَقَّعَ مِنْها أنْ تَرْمِشَ. مالَ بِجِذْعِهِ نَحْوَ اللَّوحَةِ لِيرَاها بِشَكْلٍ أفْضَلَ، ثُمَّ قَرَّبَ عَيْنَهُ مِنْها قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ.

اسْتَغْرَقَهُ الأمْرُ بَعْضَ الوَقْتِ لِيُمَيِّزَ الشَّيءَ الَّذي أقْلَقَهُ حِيالَ

التّعابيرِ المَرْسومَةِ في عينِ الحوتِ؛ إذْ لَمْ تَكُنْ نَظرَةُ الحوتِ تُشْبِهُ نَظرَةَ حَيَوانٍ مُفْترسٍ عَلى الإطلاقِ. جَفَلَ (ريو) حينَ أدرَكَ السَّبَبَ. لقَدْ كانَتْ نظرَةً إنسانِيَّةً على نَحْوٍ اسْتِثْنائيٍّ.

كانَ عَلى وَشَكِ أنْ يَنتصِبَ مُبتَعِدًا عَنِ اللَّوحَةِ حينَ لاحَظَ وُجودَ شيءٍ آخَرَ في زاويَةِ الوَرَقَةِ. كانَتْ كِتابَةً بِخَطِّ اليَدِ. كانَتْ قَدْ بَهتَتْ، لكنَّهُ تَمكَّنَ مِنْ قِراءَتِها.

(وايت بيك) (هامَةٌ بَيضاءُ)

وَبينَما (ريو) يُمْعِنُ النَّظَرَ في بَقِيَّةِ لَوحاتِ الدَّفْتَرِ، لاحَظَ أنَّ عَشْرَ لَوحاتٍ مِنْها، عَلى الأقَلِّ، كانَتْ للحوتِ نَفسِهِ، كُلُّ واحِدةٍ مِنْ تلكَ اللَّوحاتِ كانتْ مَرْسومَةً بِنَفْسِ الحُبِّ والعِنايَةِ والانْتِباهِ، والأكْثَرَ مِنْ ذلِك، كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها كانَتْ مَرسومَةً بِالبَهْجَةِ المُطْلَقَةِ نَفْسِها.

«ما المُمَيِّزُ فيكَ؟» تَساءَلَ بِلُطْفٍ. «مَنْ أنتَ يا (وايت بيك)؟»

كانَتْ هُناكَ طَريقَةٌ واحِدَةٌ فَقَطْ لاكْتِشافِ ذلِكَ.

لَمْ يُعِدْ (ريو) دَفْتَرَ الرَّسْمِ إلى عُلْبَةِ الأحذيَةِ. لكنَّهُ بَدَلًا مِنْ ذلِكَ نَزَعَ بِحَذَرٍ أهَمَّ رَسْمَةِ (لِوايت بيك) وَدَسَّها في جَيْبِ بِنْطالِهِ القَصيرِ. كانَتِ اللَّوحَةُ حَبْلًا وَثيقًا يَرْبِطُهُ بِأُمِّهِ، حَبْلًا

طَوْقَ الزَّمانَ وَالمَكانَ، وَعَلى نَحْوٍ غَريبٍ وَمُفاجِئٍ وَغيرِ مُتَوَقَّعٍ، كانَ حَبْلًا مُريحًا أيْضًا.

نَزَلَ دَرَجاتِ السُّلَّمِ الخَشَبيِّ بِسرعَةٍ نَحْوَ المَطْبَخِ، وَبِالكادِ انْتَبَهَ لِجَدَّتِهِ (فران). كانَ مُسْتَعْجِلًا لِلغايَةِ وهُوَ يُهرولُ خارِجًا مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ، حيثُ المُحيطُ الهادِئُ، وحيثُ شَمْسُ كاليفورنيا السّاطِعَةُ تَنعكِسُ عَلى سَطحِهِ في مِليونِ ذَرَّةٍ بِلَّوريَّةٍ مِنَ الضَّوْءِ.

رَكَلَ حِذاءَهُ الرِّياضِيَّ عَنْ قَدَميهِ، وَرَكَضَ عَلى الرِّمالِ الدّافِئَةِ باتِّجاهِ الشّاطِئِ. كانَ المَكانُ خالِيًا إلّا مِنْ فَتاتَيْنِ تَحْمِلانِ لَوْحَيِ تَزَلُّجٍ عَلى الماءِ. طَغى صَوْتُ المُحيطِ عَلى كُلِّ الأصْواتِ الأخْرى، حتّى صَوْتُ أفْكارِهِ. ضَجَّتْ أُذُناهُ بَصَخَبِ ارْتِفاعِ الأمْواجِ راعِدًا وَمُدَوِّيًا، ثُمَّ بِهديرِ انْكسارِها وهِيَ تنحَسِرُ خادِشَةً الأرضَ وَمنسَحِبَةً إلى الوراءِ.

حَدَّقَ (ريو) في أفُقٍ لا حُدودَ لَهُ، حَيثُ لا شَيءَ سِوى الأمْواجِ الزَّرقاءِ المُتتالِيَةِ، والنَّوارِسِ البيضاءِ الّتي تُحَلِّقُ فوقَ سَطْحِ الماءِ مِنْ حينٍ إلى آخَرَ. أخْرَجَ نَفَسًا عَميقًا مِنْ صَدْرِهِ لَمْ يكُنْ يُدرِكُ أنّهُ يحبِسُهُ في أعماقِهِ؛ لأنَّ هذا المحيطَ اليَومَ لَمْ يكُنْ فَقَطْ مُجَرَّدَ مُحيطٍ، مُجَرَّدَ مِياهٍ زَرقاءَ مُتَلألِئَةٍ شاسِعَةٍ.

كانَ أيضًا مَوطِنًا لِحوتِ أُمِّهِ.

تَفَحَّصَ الأُفُقَ مِنَ اليَسارِ إلى اليَمينِ، ثُمَّ مِنَ اليَمينِ إلى اليَسارِ مَرَّةً أخْرى. لَمْ يكُنْ أحمَقَ لِيَتَوَقَّعَ رُؤيَةَ حوتٍ يَقْفِزُ فَجأَةً مِنَ الماءِ أمامَ ناظِريهِ، ناهيكَ عَنْ رُؤيَةِ (وايت بيك). لَمْ



يكُنْ يَعرِفُ حتّى إنْ كانَ الحوتُ ما يَزالُ حَيًّا أمْ ماتَ مُنْذُ وقْتٍ طَويلٍ. وَمَعَ ذلِك فَقَدِ انْتابَتْهُ رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ في أنْ يَرى حوتًا، فأَخَذَ يُحَدِّقُ ويُحَدِّقُ ويُحَدِّقُ، حتّى شعَرَ بحُرْقَةٍ في عَينيهِ، ورغْمَ تَحديقِهِ بِكُلِّ تلكَ القُوَّةِ، فإنَّ المياهَ ظَلَّتْ ساكِنَةً.



إلى أنْ . . .

طـراااااااااااخْ.

طــشششششش .

بــووووووووم.

فاجَأَتْهُ مَوجَةٌ عالِيَةٌ مِنْ حيثُ لا يعلَمُ! لَطَمَتْهُ عَلى صدرِهِ بِجَلَبَةٍ صاخِبَةٍ جَعلَتْهُ يسقُطُ عَلى وجهِهِ في الماءِ.

«آآآآآآآآخ!»

حينَ تمَكَّنَ (ريو) مِنَ الوُقوفِ عَلى قدَميهِ أخيرًا بِسِرْوالٍ مُخَضَّلٍ بِالماءِ وَفَمٍ مُمتلِئٍ بِرَمْلِ الشّاطِئِ الخَشِنِ - دَفَعَتْهُ غَريزَتُهُ لِتفَقُّدِ رَسْمَةِ أُمِّهِ في جَيبِ بِنطالِهِ.

«لا» تَمْتَمَ (ريو). «أرْجوكِ لا!»

لكنَّ اللَّوحَةَ كانَتْ قَدِ اخْتفَتْ.

انْتابَتْهُ نَوبَةُ هَلَعٍ شَديدَةٌ مُروِّعَةٌ. هَوى عَلى رُكْبَتيهِ، وتَلَفَّتَ حَولَهُ بِذُعْرٍ. لا يُعْقَلُ أنْ يكونَ قَدْ فَقدَها. لَيسَ بِهذِهِ السُّرعَةِ!

غَرَسَ أصابِعَهُ في الرَّمْلِ، حَفَرَ بينَ حَصى الشّاطِئِ وَالأصدافِ، لكِنْ دونَ جَدْوى. يُمكِنُ أنْ تَكونَ في أيِّ مَكانٍ. حَتّى إنْ وَجَدَها، فستكونُ تالِفَةً.

أطلَقَ صَرخةً مَكتومَةً. سَمِعَ بعدَها صَوتًا خافِتًا لِخُطُواتٍ سَريعَةٍ مِنْ ورائِه.

عَلى بُعْدِ عَشَرَةِ أمْتارٍ مِنْ ورائِهِ، كانَتْ هُناكَ فَتاةٌ في مِثْلِ عُمْرِهِ تَقريبًا، بِشَعْرٍ أشْقَرَ مُتشابِكٍ، بَدا وَكَأَنَّها لَمْ تُمَشِّطْهُ وَلا لِمرَّةٍ واحدَةٍ مُنذُ وِلادَتِها. سَطَعَ ضَوءُ الشَّمْسِ عَلى وَجهِها، فَمَنَحَهُ لَوْنًا مُشْرِقًا بَرّاقًا، يَشي بِقَضائِها وَقْتًا طَويلًا في الهَواءِ الطَّلْقِ.

لَمْ تَقُلِ الفَتاةُ شَيئًا. لكنَّها مَدَّتْ إليهِ يَدَها فقَطْ.



وفي داخِلِها - بِمعجِزَةٍ عَجيبةٍ - كانَتْ رَسْمَةُ أُمِّهِ مَطْوِيَّةً في مُرَبَّعاتٍ، تَمامًا كَما تَرَكَها (ريو). بِالكادِ نَجَحَ في مَنْعِ نَفْسِهِ مِنْ أنْ يَنْتَزِعَها مِنها بِقُوَّةٍ.

مَدَّتْ يَدَها نَحْوَهُ بِالوَرَقَةِ، وقالَتْ: «لَقَدْ سَقَطَتْ مِنْ جَيْبِكَ هُناكَ. كانَتْ عَلى وَشَكِ أنْ تَطيرَ في مَهَبِّ الرّيحِ، لِكنّي أَمْسَكْتُ بِها. إنَّها لكَ، أليسَ كَذلِكَ؟»

أَوْمَأَ (ريو) مُوافِقًا. صَفّى حُنْجُرَتَهُ،

واعْتدَلَ واقِفًا بارْتِباكٍ. أجابَها أخيرًا: «أَجَلْ، إنَّها لي.» أخَذَ الوَرَقَةَ مِنْ راحَتِها، مُسْتَشْعِرًا دِفأَها بأنامِلِهِ.

«لَمْ أنظُرْ إلَيها بِالمُناسَبَةِ، إنْ كانَ هذا ما تُفَكِّرُ بِهِ.»

احْمَرَّ وجْهُ (ريو). لأنَّ هذا تَمامًا ما كانَ يُفَكِّرُ فيهِ.

نظَرَ بِريبَةٍ نَحوَ الفَتاةِ. لكِنْ لَمْ يَبْدُ عَليها الاسْتهزاءُ أو القَسْوَةُ – لَيسَ كَما يَفْعَلُ زُملاءُ فَصلِهِ في لندن.

شيءٌ حِيالَ الصَّراحَةِ والوُضوحِ في وَجْهِها، جَعَلَ مِنَ المُستَحيلِ عَليهِ ألّا يُصَدِّقَها.

«شـ - شـ - شكرًا لكِ.» قالَ لَها، كانَ يشعُرُ بِالخجَلِ مِنَ الطَّريقَةِ الَّتي أساءَ ظَنَّهُ بِها، وهوَ أمْرٌ لَطالَما طَلَبَتْ إليهِ أُمُّهُ ألّا يَفْعَلَهُ.

سألَتْهُ الفَتاةُ حينَ لاحَظَتْ لُكْنَتَهُ «أنتَ لَسْتَ مِنْ هُنا؟ مِنْ أينَ أتَيْتَ؟»

«لندن، إنجلترا.» أجابَها، باصِقًا بَعْضَ حَبّاتِ الرَّمْلِ المُبْتَلَّةِ.

«إذنْ لا يُفْتَرَضُ بِكَ أنْ تقترِبَ كَثيرًا مِنَ المُحيطِ إنْ لَمْ تكُنْ مُعتادًا عليهِ.»

عَقَدَتْ حاجِبَيها وهيَ تنظُرُ إلى مَلابِسِهِ المُبْتَلَّةِ، لكِنْ بِلُطْفٍ، وَقالَتْ: «هُناكَ تَيّارٌ قَوِيٌّ، لا يُمكِنُكَ أنْ تَراهُ، لكِنَّهُ

هُناكَ، وإنْ لَمْ تكُنْ حَذِرًا فَسَيَجْذِبُكَ إلى البَحْرِ.»

«أنا . . . كنْتُ . . . فقطْ . . .»

وَجَدَ (ريو) لسانَهُ مَعقودًا.

كانَ لَدى هذِهِ الفَتاةِ ثِقَةٌ بِالنَّفْسِ لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ في أيِّ شَخْصٍ يُماثِلُهُ في العُمُرِ.

لَمْ يَستَنْتِجْ هذا بِسَبَبِ المِشْمَلِ[1] الأحمرِ الَّذي كانَتْ تَرتَديهِ ذي الجُيوبِ الَّتي لا حَصْرَ لَها، أوِ القَميصِ الأخضَرِ قَصيرِ الأكْمامِ الَّذي يُماثِلُ لَونَ عَيْنَيها. بلْ بِسَبَبِ الطَّريقَةِ الَّتي كانَتْ تَقِفُ بِها بِاعْتِدادٍ.

كأنَّها تَمْلِكُ المُحيطَ بِأَكْمَلِهِ.

«هَلْ تَعيشينَ هُنا؟»

أشارَتْ ناحِيَةَ الفَنارِ: «أعيشُ هُناكَ مَعَ أبي.»

تَبَسَّمَتْ حينَ ذَكَرَتْ والِدَها. ذلكَ النَّوعُ مِنَ التَّبَسُّمِ الَّذي أضاءَ وَجْهَها كُلَّهُ.

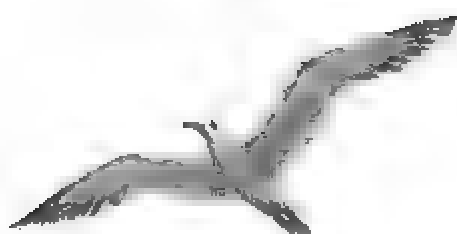
لَوْ كانَ (ريو) حَسودًا لَشَعَرَ بِالغَيْرَةِ مِنْ تلكَ الابْتِسامَةِ وَكُلِّ ما توحي بِهِ.

«عَلى أيِّ حالٍ،» قالَتْ وهِيَ تَغمِزُ لَهُ، «أنتَ تَعرِفُ ما تَحتاجُ إليهِ، أليسَ كَذلِكَ؟»

هَزَّ رأسَهُ نافِيًا.

«جيوبٍ أعْمَقَ!»

مَنَحَتْهُ ابْتِسامَةً أخيرَةً قَبْلَ أنْ تُسرِعَ مُبْتَعِدَةً.



الفصلُ السّابعُ

المُتْحَفُ

«فـ فـ (فران)؟» سألَ (ريو) حينَ عادَ إلى المَطبخِ.

كانَتِ (فران) جالِسَةً تَحُلُّ الكَلماتِ المُتقاطِعَةَ بِظَهْرٍ مُقَوَّسٍ وَحاجِبينِ مَعقودَينِ. بَدَتْ لَحْظَتَها، عَلى نَحْوٍ ما، أَصْغَرَ حَجْمًا وَأَكْبَرَ عُمْرًا. ولأَوَّلِ مَرَّةٍ يَنْتَبِهُ (ريو) لأصابِعِها المُتَوَرِّمَةِ بِفِعْلِ تَقَدُّمِ العُمُرِ. أَحَسَّ بِوَجْهِهِ يَحْتَقِنُ عَلى نحْوٍ مُريعٍ، وَتَملَّكَهُ الخَجَلُ الَّذي يَشعُرُ بِهِ المَرْءُ حينَ لا يَتَصَرَّفُ بِطيبَةٍ مَعَ الآخَرينَ.

«نَعَمْ، (ريو)؟» بَدا وَجْهُها قَلِقًا حينَ وَضَعَتِ القَلَمَ جانِبًا، وحَوَّلَتِ انْتباهَها إلَيهِ. كانَ قُرْصانٌ واقِفًا مُتأهِّبًا بِالقُربِ مِنْ كاحِلَيْها.

«العُلْبَةُ . . .» أجابَها (ريو)، ثُمَّ صَفّى حُنجُرَتَهُ. كانَ حَلْقُهُ جافًّا كَصحراءَ قاحِلَةٍ. «كانَ في العُلْبَةِ دَفْتَرُ رَسْمٍ، وتساءلْتُ . . . تَساءلْتُ لِمَ . . .»

«لِمَ رسمَتْ والِدَتُكَ لَوحاتٍ كَثيرةً لِحيتانٍ؟»

أَوْمَأَ (ريو) مُمْتَنًّا.

لَمْ تُجِبْهُ (فران). بَدَلًا مِنْ ذلِكَ طَوَتِ الجَريدَةَ، وأمسكَتْ بِمفاتيحِ سَيّارَتِها.

«أعتقِدُ أنَّ أفضَلَ شَيءٍ تَفعَلُهُ الآنَ هوَ أنْ تَرتدِيَ مَلابِسَ أخْرى جافَّةً. بَعدَها سَأُريكَ شَيئًا.»

لَمْ يكُنْ (ريو) مُتأكِّدًا مِنْ وُجْهَتِهِما، لكِنَّ (فران) قادَتِ السَّيّارَةَ باتِّجاهِ مَركَزِ (أوشن باي). كانَ قَدْ أمْضى بِضعَةَ أيّامٍ في كاليفورنيا، لكنَّها المَرَّةُ الأولى فِعْلِيًّا الَّتي يَذهَبُ فيها إلى مَكانٍ آخرَ عَدا مَنزلِ (فران) أوْ رُقعَةِ الرَّمْلِ وراءَ البابِ الخلفِيِّ. كانَتْ (أوشن باي) صغيرَةً وَمُتوزِّعَةً عَلى طولِ حافَّةِ المُحيطِ، ويمْتَدُّ

فيها، مُوازِيًا لِلشّاطِئِ، طَريقٌ تَصْطَفُّ أشْجارُ النَّخيلِ الباسِقَةُ عَلى جانِبَيهِ. كانَ هُناكَ مَمَرٌّ خَشَبِيٌّ عَريضٌ، مُزْدَحِمٌ بِالعَدّائينَ، وَالمُشاةِ، وَأُمَّهاتٍ يَدفَعْنَ عَرَباتِ الأطْفالِ، وَمُتَزلِّجينَ عَلى الألواحِ ذاتِ العَجَلاتِ، أوِ الأحذِيَةِ ذاتِ العَجلاتِ، أوِ (السّكوترات)، وكانَ هُناكَ أيضًا رَجُلٌ يَرتدي زِيَّ حوتٍ، ويركَبُ دَرّاجَةً هَوائيَّةً بِعَجلَةٍ واحدَةٍ.

«يَأتينا كَثيرٌ مِنَ السُّيّاحِ في مِثْلِ هذا الوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ،» قالَتِ (فران) وهِيَ تَتَتَبَّعُ نَظراتِهِ. «الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ تَجذِبُ النّاسَ مِنْ كُلِّ مَكانٍ.»

قَبْلَ أنْ يتمَكَّنَ (ريو) مِنْ طَرْحِ مَزيدٍ مِنَ الأسئلَةِ، انْعطَفَتِ (فران) ناحِيَةَ أحَدِ المَرافِقِ حَيثُ انْتَصَبَتْ مَنارَةٌ بَيضاءُ بِطولِها المَنيعِ فَوْقَ ميناءٍ عَلى شَكْلِ حَرْفِ (U) مُكْتَظٍّ بِقوارِبَ مُتعدِّدَةِ الأحْجامِ تَهتزُّ بِهَوادَةٍ مَعَ نَسيمِ المُحيطِ. أوقَفَتْ سَيّارَتَها بِجانِبِ مَبْنًى كَبيرٍ ذي واجِهَةٍ مُرَبَّعَةٍ وَعَليهِ لافِتَةٌ مَكْتوبَةٌ بِخَطِّ اليَدِ تَقولُ إنَّهُ مُتْحَفُ بلدَةِ (أوشن باي).

غاصَ قَلْبُ (ريو). هلْ حَقًّا جَلَبَتْهُ إلى مُتحَفٍ؟

تَبِعَها بِقَدَمينِ مُتَثاقِلَتينِ إلى المَدْخَلِ. دفَعَتِ (فران) البابَ الزُّجاجِيَّ، وَأشارَتْ لَهُ بِالدُّخولِ. كانَ المَكانُ شَديدَ الاتِّساعِ في

الدّاخِلِ، وعَلى كُلِّ جِدارٍ مِنْ جُدْرانِهِ اسْتقامَتْ خَزانَةٌ زُجاجِيّةٌ مِنَ الأرْضِ حتّى السَّقْفِ. كانَ هُناكَ أيضًا مَتْجَرُ هَدايا وَمَقْهًى صَغيرٌ لَصيقٌ بِهِ. لكنَّ الشَّيءَ الَّذي وُضِعَ في مُنتصَفِ المُتْحَفِ هوَ الشَّيءُ الوَحيدُ الَّذي حَبَسَ أنْفاسَ (ريو).

لقَدْ كانَ هَيْكلًا عَظمِيًّا لِحوتٍ كَبيرٍ يَتدلّى مِنَ السَّقْفِ. عُلِّقَتْ أجزاءٌ مِنهُ بِواسِطَةِ أسْلاكٍ، بَينَما رُفِعَتْ أجزاءٌ أُخْرى بِدِعاماتٍ مِنَ الأسْفَلِ. كانَ أكبَرَ هَيكَلٍ عَظمِيٍّ رآهُ (ريو) في حَياتِهِ. أكبَرَ حَتّى مِنْ حافِلاتِ لندنَ الحَمْراءِ الشَّهيرَةِ. كانَتْ عِظامُ فَكِّ الحوتِ أطوَلَ مِنْهُ.

«إشْريكْتِيوسْ روباسْتوسْ.» قالَتِ (فران).

تَساءَلَ (ريو) إنْ كانَتْ أُذُناهُ تعملانِ عَلى النَّحْوِ المَطلوبِ. لَمْ تَكُنْ لِجَدَّتِهِ لَكْنَةٌ أمريكيَّةٌ قَوِيَّةٌ عَلى وَجْهِ الخُصوصِ، لكِنَّها بَدَتِ الآنَ وَكأنَّها تَتحَدَّثُ بِلُغَةٍ مُختلِفَةٍ تَمامًا.

شرَحَتْ لَهُ قائلَةً: «هذِهِ كَلِماتٌ لاتينِيَّةٌ، وَتَعْني الحوتَ الرَّمادِيَّ.» أرادَ (ريو) أنْ يَسألَها ألْفَ سُؤالٍ وَسؤالٍ، لكِنْ، بِطريقَةٍ ما، انْتَهى المَطافُ بِها كُلِّها عالِقَةً في حَلْقِهِ.

«لقَدْ سَألْتَني عَنْ والِدتِكَ وَدفْتَرِ الرَّسْمِ ذاكَ،» ذَكَّرَتْهُ (فران). «ساحِلُ المُحيطِ الهادِئِ هُوَ مَسارُ الهِجْرَةِ الرَّئيسِيِّ لِلحيتانِ

الرَّمادِيَّةِ، ممّا يَعْني أنَّها في مِثْلِ هذا الوَقْتِ مِنْ كُلِّ العامِ تَمُرُّ بِجانِبِ (أوشن باي) في طريقِها جَنوبًا نَحْوَ المَكسيكِ، وَبَعْدَ شَهرينِ إلى ثلاثَةِ أشْهُرٍ، سَتَراها عائدَةً شَمالًا مَرَّةً أُخْرى، وأحْيانًا مَعَ صِغارِها.»

«وَأُمّي؟» سألَ (ريو) مُنْقَطِعَ الأنْفاسِ. «هَلِ اعْتادَتْ مُراقَبَتَهُمْ؟»

«أجَلْ،» أجابَتْ جَدَّتُهُ. «هذا! ما أَرَدْتُ أنْ أُرِيَكَ إيّاهُ، هلْ فَهِمْتَ الآنَ؟»

ابتَعَدَتْ عنْهُ بِضْعَ خُطُواتٍ، وأشارَتْ نَحْوَ بَعضِ الصُّوَرِ الفوتوغرافِيَّةِ القَديمَةِ المَعروضَةِ داخِلَ إحْدى الخَزاناتِ الزُّجاجِيَّةِ المُنْتَصِبَةِ في مُنتصَفِ المُتْحَفِ. أطَلَّ (ريو) بِرأسِهِ مِنْ فَوقِ كَتِفِها لِيُمْعِنَ النَّظَرِ. كانَتِ الصّورَةُ الَّتي أشارَتْ إلَيها تُظهِرُ قارِبًا صَغيرًا في عُرْضِ البَحْرِ، وعَلى مَتْنِهِ عَددٌ قَليلٌ مِنَ النّاسِ، مِنْ بَينِهِمْ فَتاةٌ صَغيرَةٌ ذاتُ شَعْرٍ أحْمَرَ مُجَعَّدٍ وابْتِسامَةٍ عَريضَةٍ.

«ماما!» صاحَ مُنْدَهِشًا.

أوْمَأَتِ (فران) مُوافِقَةً: «اصْطَحَبَها جَدُّكَ في رِحلَةٍ عَلى مَتْنِ هذا القارِبِ عِندَما كانَتْ في السّابِعَةِ مِنْ عُمُرِها. أوَّلُ رِحلَةٍ بَحرِيَّةٍ في حَياتِها. أوه، ما زِلْتُ أتَذَكَّرُ شَكْلَها حينَ عادَتْ إلى البَيتِ. كانَتْ عَيناها مِثْلَ صَحْنَيْ فِنْجانَيْ قَهْوَةٍ! كانَتْ قدْ رأَتْ

حوتًا رَمادِيًّا يَسبَحُ بَجوارِ القارِبِ مُباشَرَةً. قالَتْ إنَّهُ أكثَرُ شَيءٍ ساحِرٍ رَأَتْهُ عَيناها، وإنَّهُ جَعَلَ قَلْبَها يَبتَسِمُ. بعْدَ ذلِكَ صارَتْ تَتَوَسَّلُ لَنا أنْ نذهَبَ إلى هُناكَ كُلَّ يَومٍ.»

أمْعَنَ (ريو) النَّظَرَ في صورَةِ أُمِّه. بَدَتْ مُرتاحَةً لِلغايَةِ، صَحيحَةً لِلغايَةِ، وَسَعيدَةً لِلغايَةِ. تَمَنّى لَوْ أَنَّ باسْتِطاعَتِهِ أنْ يفتَحَ الخزانَةَ، وَيطبَعَ الصّورَةَ في قَلبِه. كانَ يُحَدِّقُ فيها بِشِدَّةٍ، حتّى إنَّهُ لَمْ يُدرِكْ أنَّ (فران) ما تَزالُ تَتحَدَّثُ.

«لكِنْ بِالطَّبْعِ لا تأتينا الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ طَوالَ العامِ، فَقَطْ في فَصْلِ الشِّتاءِ؛ لِذا، كانَتْ والِدَتُكَ تأتي إلى هُنا بَقِيَّةَ العامِ. كُلُّ شَيءٍ تُريدُ أنْ تَعرِفَهُ عَنِ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ مَوجودٌ في هذا المُتْحَفِ.»

كانَتْ عَلى وَشَكِ أنْ تَقولَ المَزيدَ عِندَما نادى شَخْصٌ اسْمَها مِنَ الجانِبِ الآخَرِ لِلقاعَةِ. «فَلْتَعْذُرْني لِدَقيقَةٍ يا (ريو)، هَلّا فَعَلْتَ ذلِكَ؟»

أوْمَأَ مُوافِقًا. وبينَما ابْتَعدَتْ، لاحَظَ وُجودَ العَديدِ مِنَ اللّافِتاتِ حَوْلَ الهَيكَلِ العَظمِيِّ، مَكْتوبَةً بِخَطِّ اليَدِ بِاللُّغتَينِ الإنجليزِيَّةِ وَالإسبانِيَّةِ، كانَتْ تُعَدِّدُ حَقائِقَ عِلْمِيَّةً عَنِ الحوتِ الرَّمادِيِّ.

وَبِهذِهِ الطَّرِيقَةِ سُرعانَ ما اكْتَشَفَ أَنَّ:

الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ هيَ سابِعُ أَضْخَمِ أَنْواعِ الحيتانِ كُلِّها.

هُناكَ ما يَقْرُبُ مِنْ الـ 20000 إلى 30000 حوتٍ رَمادِيٍ.

يَنْمو الحوتُ الرَّمادِيُّ لِيبلُغَ طولُهُ مِنْ 13 إلى 15 مترًا.

يُمكِنُها أنْ تَعيشَ ما بينَ 55 إلى 70 عامًا.

لا توجَدُ الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ إلّا في هذا الجُزْءِ مِنَ العالَمِ - المُحيطِ الهادِئِ.

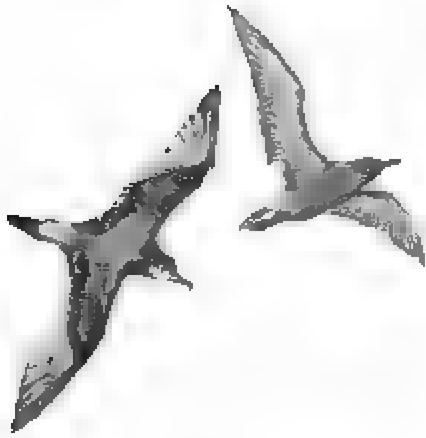
وَلِهذا السَّبَبِ يُطلَقُ عَليها أحْيانًا حيتانُ المحيطِ الهادئِ الرَّمادِيَّةُ، أوْ حيتانُ كاليفورنيا الرَّمادِيَّةُ.

كانَتِ (فران) ما تَزالُ تتحَدَّثُ مَعَ صَديقَتِها؛ لِذا حَوَّلَ (ريو) انْتِباهَهُ إلى صورَةِ أُمِّهِ مَرَّةً أُخْرى. هناكَ عَدَدٌ آخَرُ قَليلٌ مِنَ الصُّوَرِ لِهذِهِ الرِّحْلَةِ البَحرِيَّةِ، لكنْ لَمْ يكُنْ هُناكَ صورَةٌ أُخْرى واضِحَةٌ لِوالِدَتِه، بِاسْتِثناءِ صورَةٍ واحِدَةٍ، قَدِ الْتُقِطَتْ مِنْ زاوِيَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، عَلى الأرجَحِ الْتَقَطَها جَدُّهُ، ظَهَرَ بِها رَأْسُ والِدَتِهِ مِنَ الخَلْفِ بَيْنَما كانَتْ تَميلُ بِجِذْعِها مِنْ على حافَّةِ القارِبِ.

حيثُ ظَهَرَ في الماءِ، هناكَ، حوتٌ رَمادِيٌّ.

كانَتِ الصّورَةُ ضَبابِيَّةً بَعْضَ الشَّيءِ، وهُناكَ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ واقِفينَ أمامَهُ؛ لِذلِكَ لَمْ يتَمَكَّنْ (ريو) مِنْ رُؤيَةِ الحوتِ بِشكْلٍ جَيِّدٍ بَتاتًا. كانَ الحوتُ مُجَرَّدَ لَطْخَةٍ رَمادِيَّةٍ. لكنَّها لَطْخَةٌ رَمادِيَّةٌ بِعَلاماتٍ بَيضاءَ مُمَيَّزَةٍ على وَجْهِهِ.

(وايت بيك).



الفصلُ الثّامنُ

صَيْدٌ

أخْرَجَ (ريو) رَسْمَةَ (وايت بيك) مِنْ جَيبِهِ. كانَ مِنَ الصَّعْبِ التَّيَقُّنُ بِأنَّهُما الحوتُ نَفْسُهُ، لكِنْ، إنْ كانا كذلِكَ، فَسَيُفَسِّرُ هذا حَتْمًا السَّبَبَ الَّذي جعلَ والِدَتَهُ ترسُمُ كَثيرًا مِنَ اللَّوْحاتِ لِهذا الكائنِ المائِيِّ بِالذّاتِ.

لقدْ كانَ أوَّلَ حوتٍ رأتْهُ والِدَتُهُ في حَياتِها، الحوتُ الَّذي أسَرَ قَلبَها، الحوتُ الَّذي رَسَمَ تلكَ الابتسامَةَ العَريضَةَ المُشرِقَةَ

عَلى وجهِها. نَقَّلَ (ريو) نَظراتِهِ بينَ الصّورةِ والرَّسْمَةِ. أشرَقَ شَيءٌ ما في صَدرِهِ. لا عَجَبَ أنَّ الرَّسْمَةَ كانَتْ في عُلبَةِ البَهْجَةِ الخاصَّةِ بِها.

فَجأَةً، أحَسَّ (ريو) بِنَهَمٍ لاكْتِشافِ المَزيدِ قَدْرَ اسْتِطاعَتِهِ، ليسَ عَنْ (وايت بيك) فَقطْ، بَلْ عَنْ كُلِّ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ. انْتَقَلَ تَركيزُهُ إلى الصّوَرِ الأخْرى في الخزاناتِ الزُّجاجيَّةِ. في البِدايَةِ كانَتْ جَميعُها لَقَطاتٍ تاريخيَّةً بِالأبيَضِ والأسوَدِ لِبلدَةِ (أوشن باي)، بعدَ ذلِكَ وجَدَ مَزيدًا مِنَ اللَّقَطاتِ المُذهِلَةِ لِلمُحيطِ: قَطيعٌ مِنَ الدّلافينِ تَقفِزُ خارِجَةً مِنَ الماءِ، سَلاحِفُ ضَخمَةٌ بِأَوْجُهٍ مُتَغَضِّنَةٍ، وَأسرابٌ مِنَ أسْماكٍ فِضِّيَّةٍ.

نَقَلَ تَركيزَهُ ناحِيَةَ الخَزانَةِ الأخيرَةِ، وعَلى الفَورِ تَمَنّى لَوْ أنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذلكَ. كانَتِ الصّورةُ الأولى صورَةً فَظيعَةً. كانَتْ لِرَجُلٍ يحمِلُ بُندقِيَّةَ (هاربون[2]) ذاتَ الرُّمْحِ، يبتَسِمُ ابْتسامَةً عَريضَةً، بَينَما حوتٌ صَغيرٌ مَيِّتٌ مُلقًى عَلى سَطْحِ سَفينَتِهِ. أدرَكَ (ريو) بِنظرَةٍ سَريعَةٍ أنَّ الصّوَرَ الأخْرى كلَّها مُماثِلَةٌ.

سُفُنٌ مُحَمَّلَةٌ بِالحيتانِ المَيِّتَةِ، بِحارٌ مِنْ دِماءٍ حَمراءَ قاتِمَةٍ، حيتانٌ مُقَطَّعَةٌ إلى أشْلاءَ، وَجَميعُها بِرِفْقَةِ أشْخاصٍ

مُبْتسمينَ يَرفَعونَ بِفَخْرٍ بَنادِقَهُمُ (الهاربون).

حَدَثَ هذا قَبْلَ سَنواتٍ عَديدَةٍ لكِنَّ (ريو) رغْمَ ذلِكَ شَعَرَ بِالغَثَيانِ، وَبِحَلْقِهِ يَحْتَقِنُ حَدَّ الاخْتِناقِ.

تَقَدَّمَتْ جَدَّتُهُ نَحْوَهُ مِنَ الخَلْفِ، ووقَفَتْ بِجانِبِهِ: «هذِهِ المَناظِرُ تُزعِجُ أغْلَبِيَّةَ النَاسِ أيضًا، رُؤيَةُ الحيتانِ هكَذا.»

«لكِنْ لِماذا يَفْعَلونَ هذا بِها؟ *لِماذا؟*» سألَها (ريو) والْتَفَتَ إلَيها.

«في ذلِكَ الوَقْتِ، لَمْ يَرَ النّاسُ الحيتانَ بِالطَّريقَةِ الَّتي نَراها بِها الآنَ.» أجابَتِ (فران) مُقَطِّبَةً. «كانَتْ مَصْدَرًا لِلمالِ بِالنِّسْبَةِ لِصائدي الحيتانِ. يَبيعونَ لُحومَها، وَيَستخدِمونَ شُحومَها لِصناعَةِ الزُّيوتِ. حَتّى عِظامُ الحيتانِ كانَتْ سِلْعَةً باهِظَةً. فَحَتّى وَقْتٍ لَيْسَ بِبَعيدٍ، اعْتادَتِ النِّساءُ ارْتِداءَ مَشَدّاتٍ مَصنوعَةٍ مِنْ عِظامِ الحيتانِ.»

«لـ-لـ-لكِنْ هذا خَطَأٌ!» شَهَقَ (ريو) وقَدْ تَخَيَّلَ حوتَ أُمِّهِ. «لا يُمكِنُ لِلبَشَرِ أنْ يَقتُلوا الحيتانَ كَما يَحلو لَهُمْ فَقطْ لِأنَّهُمْ . . . لأنَّهُمْ يُريدونَ *ارْتِداءَها!*»

«حَسَنًا، لَمْ نَعُدْ نَفعَلُ هذا،» قالَتِ (فران). «لَيسَ بِهذا القَدْرِ عَلى أيِّ حالٍ.»

«لَيسَ بِهذا *القَدْرِ*؟!» ارْتَفَعَتْ مَوجَةٌ مِنَ المَشاعِرِ، وَتَقَلَّبَتْ في صَدْرِ (ريو)، بَعْضُها كانَ حارًّا وَمُشْتَعِلًا، بِالكادِ كانَ قادِرًا عَلى التَّنَفُّسِ. «تَقصِدينَ أنَّ بعضَ النّاسِ ما زالوا يَصطادونَها؟»

دفَعَتِ (فران) نَظّارَتَها أعْلى أنْفِها، ومَنَحَتْهُ نَظرَةً غَريبَةً غامِضَةً، ثُمَّ تَنَهَّدَتْ: «أنتَ تُشْبِهُ أُمَّكَ كَثيرًا عِندَما كانَتْ في مِثْلِ عُمرِكَ.»

«عَلى أيِّ نَحْوٍ؟»

«كانَتْ تَغضَبُ حِيالَ صَيدِ الحيتانِ أيضًا. حَتّى إنَّها شارَكَتْ في بَعضِ مَسيراتِ الاحْتِجاجِ،» أجابَتْهُ. «رغْمَ أنّي قُلْتُ لَها إنَّ تلكَ المُظاهراتِ مَضيَعَةٌ لِلوَقْتِ.»

«لِماذا . . . لِماذا هيَ مَضيعَةٌ لِلوَقْتِ؟» رَدَّ بِغَضَبٍ. «كيفَ يُمكِنُ أنْ يكونَ إنْقاذُ حوتٍ مَضيعَةً لِلوَقْتِ؟»

رَفَعَتِ (فران) كَتِفَيْها بِاسْتِسْلامٍ «لأنَّهُ ما الّذي يُمكِنُ لِفتاةٍ واحِدَةٍ أنْ تفعَلَهُ؟ وَخصوصًا فتاةً مِثْلَها.»

فتاةً *مِثْلَها؟*

أكمَلَتْ حَديثَها وهِيَ تَفرُكُ يَدَيها مَعًا بِفُتورٍ «أحْيانًا لا أعتَقِدُ حَتّى إنَّها كانَتْ تُحارِبُ الصَّيّادينَ. كانَتْ تُحارِبُ نفْسَها. أُمُّكَ . . . كانَتْ أُمُّكَ . . .»

طاخ.

ضرَبَ (ريو) شَيئًا بيدِهِ. لَمْ يكُنْ يَقصِدُ فِعْلَ هذا. حَتّى إنَّهُ لَمْ يَنتَبِهْ أنَّهُ فَعَلَ هذا أصْلًا. أيُّ شيءٍ لِيَمنَعَ جَدَّتَهُ مِنْ مُواصَلةِ الحديثِ. ارْتَفعتْ ذِراعُهُ بِقُوَّةٍ، واصْطَدمَتْ بإحْدى الخَزاناتِ الزُّجاجيَّةِ بِجانِبِ الهَيكَلِ العَظميِّ. الخَزانَةِ الَّتي تَضُمُّ كُلَّ صورِ الحيتانِ المَيِّتَةِ. اهْتَزَّتِ الخَزانَةُ وارْتَجَّتْ.

لِلحظَةٍ قَصيرَةٍ فَظيعَةٍ تَعلَّقَ كُلُّ شَيءٍ في الهَواءِ.

وبعدَها ***طشششش.***

انْهارَتِ الخَزانةُ إلى الأرضِ. تَحطَّمتْ إلى آلافٍ مِنْ قِطَعِ الزُّجاجِ، وتَبعثَرَتْ صوَرُ الحيتانِ عَلى كُلِّ أرْضيَّةِ القاعَةِ.

بدَتِ (فران) مَصدومَةً. انْتزعَتْ نَظّارَتَها مِنْ عَلى وجهِها، وصارَتْ تُحدِّقُ فيهِ كأنَّهُ شَخْصٌ لا تعرِفُهُ.

سَألَتْهُ بِصوتٍ صَغيرٍ مُتوتِّرٍ «(ريو)؟ هلْ أنتَ بِخيرٍ؟»

مَسَحَ (ريو) وَجْهَهُ. تَفاجَأ، وَشَعَرَ بِالخَجَلِ حينَ اكْتشَفَ أنَّهُ يَبكي. وقبْلَ أنْ تتمَكَّنَ (فران) مِنْ قولِ كَلِمَةٍ أخْرى، اسْتَدارَ (ريو) مُبتَعِدًا، وانْطَلَقَ خارِجًا مِنَ البابِ.



الفصلُ التّاسعُ

الرّصيفُ البَحرِيُّ

غادَرَ (ريو) المُتحَفَ. رَكَضَ وَرَكَضَ حتّى صارَ صَدرُهُ يَعلو وَيهبِطُ، حتّى لَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى الرَّكْضِ. اخْتَرَقَتْهُ مَوجاتٌ ساخِنَةٌ مِنْ مَشاعِرِ الخِزْيِ وهُوَ يَتَخَيَّلُ وَجْهَ جَدَّتِهِ والفَوضى الّتي تَرَكَها وَراءَهُ. لاحِقًا، في لَحظَةٍ ما، سَيكونُ عَليهِ تَحَمُّلُ عَواقِبِ تَصَرُّفِهِ.

لكِنْ لَيسَ الآنَ.

انْتَهى بِهِ المَطافُ عَلى الشّاطِئِ. كانَ مَليئًا بأطفالٍ يَلعَبونَ الكُرَةَ الطّائرَةَ، لكنَّ (ريو) شَعَرَ بالوَحْدَةِ تَمامًا. كانَ الأطفالُ يَضحَكونَ عالِيًا، وعَلى النَّقيضِ كانَ (ريو) يشعُرُ وكأنَّهُ يَرتَدي واحِدًا مِنَ المَشَدّاتِ المَصنوعَةِ مِنْ عِظامِ الحوتِ، يَضغَطُ بِشِدَّةٍ عَلى جَسدِهِ، فَلا يَعودُ قادِرًا عَلى التَّنَفُّسِ.

أوه، لِماذا أرْسَلَتْهُ أُمُّهُ إلى هُنا؟

تَلَفَّتَ حَولَهُ بِجُنونٍ، كأنَّ الإجابَةَ سَتخْرُجُ أَمامَهُ مِنْ هَواءِ كاليفورنيا النَّقِيِّ. سَيَطْلُبُ إلى جَدَّتِهِ أنْ تُعيدَهُ عَلى أوَّلِ طائرَةٍ، سَيَتَوَسَّلُ لَها إنْ لَزِمَ الأمْرُ، وبَعْدَها سَيُقْنِعُ الأطِبّاءَ بالسَّماحِ لَهُ بِدخولِ المُستَشْفى، وسوفَ . . .

انْقَطَعَ حَبْلُ أفْكارِهِ، فَما الّذي سَيفعَلُهُ بِالضَّبطِ إنْ عادَ إلى لندن؟ كُلُّ ما كانَ يُريدُهُ هُوَ أنْ يَجعَلَ حالَةَ والِدَتِهِ أَفْضَلَ.

لكنْ، رغْمَ السُّرعَةِ الّتي كانَ يُهَروِلُ بِها مِنَ المَدرَسَةِ إلى البَيتِ كُلَّ يومٍ، وعَدَدِ الأنْشطَةِ الّتي تَخَلّى عَنها حتّى يكونَ مَعَها، وعَدَدِ المَرّاتِ الّتي طَهى فيها وَجْبَةَ العَشاءِ، وحتّى القُوَّةُ الّتي أمْسَكَ بِها يَدَ أُمِّهِ - لَمْ تَكُنْ أيٌّ مِنْ هذهِ الأمورِ كافِيَةً أبَدًا لِتَتَحَسَّنَ حالَتُها. لقَدْ اعْتَنى بِها (ريو) لِوقْتٍ طَويلٍ عَلى حَدِّ ذاكِرَتِهِ. اعْتَنى بِها لِوقْتٍ طَويلٍ بَعْدَ أنْ تَوَقَّفَ

أصْدِقاؤها عَنْ زِيارَتِها. لكنَّهُ، رَغْمَ هذا، لَمْ يكُنْ قادِرًا عَلى حِمايَتِها مِنَ الذَّهابِ إلى المُسْتَشفى.

لَقدْ فَشِلَ.

ودونَ أنْ يَرغَبَ في ذلكَ، انْفَجَرَ النَّحيبُ مِنْ بينِ شَفتَيهِ. غاصَ (ريو) في أقرَبِ مَقْعَدٍ منهُ. تكَوَّرَ عَلى نفْسِهِ مِثْلَ كُرَةٍ صَغيرَةٍ. تَمَنّى مِنْ كُلِّ قَلبِهِ أنْ يَعودَ بِالزَّمَنِ إلى الوَراءِ لِيَتَصَرَّفَ بِطريقَةٍ مُختلِفَةٍ. تَمَنّى أشْياءَ أخْرى كَثيرَةً أيْضًا. أشْياءَ لَمْ يكُنْ يُحِبُّ أنْ يَعتَرِفَ بِها حتّى لِنَفْسِهِ. كَأَنْ تكونَ أُمُّهُ مِثْلَ الأُمَّهاتِ الأخرَياتِ، وأنْ تَكونَ لَهُ حَياةٌ طَبيعِيَّةٌ لِطفْلٍ في الحاديَةَ عَشرَةَ مِنْ عُمرِهِ، تلكَ الأمْنياتِ الَّتي تَجعَلُكَ تَشعُرُ بِالذُّنبِ حَتّى لمُجَرَّدِ التَّفكيرِ فيها.

لا يعرِفُ كَمْ مَضى عَليهِ مِنَ الوَقْتِ وهُوَ مُتكوِّرٌ هُنا. قدْ يكونُ ثَوانيَ فَقطْ، ورُبَّما يكونُ أيضًا ساعاتٍ. لكِنَّ (ريو)، بعدَ مُرورِ بعضِ الوَقْتِ، أدرَكَ أنَّهُ لَمْ يكُنْ وحدَهُ. لمْ يَجلِسْ أحَدٌ عَلى المَقعَدِ إلى جوارِهِ. لَمْ يكُنْ هذا النَّوعُ مِنَ الصُّحبَةِ.

كانَتْ صُحبَةُ شَيءٍ أكثَرَ طُمأنينَةٍ.

إنَّهُ المُحيطُ. كانَ يَندفِعُ مُتَقَدِّمًا إلى الشّاطِئِ ومُنْحَسِرًا مِنهُ. لا يَندَفِعُ فَحَسْبُ، بَلْ يَتَنَفَّسُ.

مُتقدِّمًا، مُنْخسِرًا، مُتَقدِّمًا، مُنْخسِرًا، مُتقدِّمًا، مُنْخسِرًا.

وبَينما تَنَفَّسَ المُحيطُ، جاءتْهُ الفِكرَةُ. رُبَّما المُحيطُ هوَ مَنْ حَمَلَها إلى (ريو) مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ في البحرِ. رُبَّما حتّى كانَ صوتًا أعْمَقَ مِنْ هذا. عَلى أيِّ حالٍ، قَفَزَتِ الفِكرَةُ إلى رأسِهِ كأنَّما بِواسِطَةِ سِحْرٍ. رُبَّما لَمْ يكُنْ قادِرًا عَلى إنْقاذِ أُمِّهِ مِنَ الذَّهابِ إلى المُستَشْفى. لكنْ لَمْ يَفُتْ أوانُ إنْقاذِها الآنَ.

أخرَجَ (ريو) رَسْمَةَ (وايت بيك) مِنْ جيبِهِ.

لأنَّ الرَّسْمَةَ كانَتْ جُزْءًا مِنَ المهَمَّةِ.



سَيذهَبُ لِمُراقَبَةِ الحيتانِ،

وسَيعثُرُ لِوالِدَتِهِ عَلى بعضِ الحيتانِ.

سَيلتَقِطُ صورًا لِلحيتانِ.

سَيُصوِّرُ أفلامًا عَنِ الحيتانِ.

حوتٌ رائعٌ تِلْوَ حوتٍ رائعٍ آخَرَ!

وبعدَها سَيُرسِلُها كلَّها إلى أُمِّهِ؛ لأنَّها بِالتَّأكيدِ سَتنظُرُ إلى هاتِفِها ولَوْ لمَرَّةٍ واحِدَةٍ عَلى الأقَلِّ. أليسَ كَذلكَ؟ وعندَما سَتفعَلُ هذا سيَكونُ لَديها شَيءٌ يَجعَلُها تَبتَسِمُ مَرَّةً أخْرى. كَما كانَتْ تَبتَسِمُ في الرِّحلاتِ البَحريَّةِ وهيَ صَغيرَةٌ. كانَتْ

تقولُ لَهُ دائمًا إنّها بِحاجَةٍ إلى تذكيرٍ بأنْ تَكونَ سَعيدَةً. حَسَنًا، ها هيَ الإجابَةُ! ها هيَ الإجابةُ عَنْ كُلِّ شَيءٍ! إنْ كانَتِ الحيتانُ قادرَةً عَلى جَعْلِها سَعيدَةً مَرَّةً أخْرى، إذنْ رُبَّما . . . رُبَّما سَيكونُ بِمقْدورِها أنْ تَتحَسَّنَ ولَنْ تَضْطرَّ إلى البَقاءِ في تلكَ المُستَشْفى لِوقْتٍ أطْوَلَ مِنَ اللّازِمِ.

لَمَعَتِ الفِكْرَةُ في عَقلِهِ وَتلألأتْ. ودونَ أنْ يَتوقَّفَ حتّى لِكي يَلتقِطَ نَفَسًا آخَرَ، هَروَلَ (ريو) نَحْوَ المَكانِ الَّذي لاحَظَ سابِقًا أنَّ فيهِ كُشْكًا لِحَجْزِ رِحلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ. رَكَضَ في المَمَرِّ الخَشَبِيِّ، وصارَتْ أفكارُهُ تَركُضُ مَعهُ وَتُحَلِّقُ وتَدورُ وَتَتشابَكُ بِسرعَةٍ كَبيرةٍ جَعَلَتْهُ يَشعُرُ بِالدُّوارِ وهُوَ يُحاوِلُ اللَّحاقَ بِها.

وصلَ أخيرًا إلى الكُشْكِ والعرَقُ يَتصبَّبُ مِنْ عُنُقِهِ، وأنفاسُهُ تَخرُجُ مُتقطِّعَةً بِحشرَجَةٍ عالِيَةٍ. أبْطَأَ سُرعَتَهُ حتّى توقَّفَ تَمامًا.

كانَ الكُشْكُ هوَ المَكانُ المُخصَّصُ لِحجْزِ رِحلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ بِالفِعْلِ. لكنْ، لَمْ تكُنْ آخِرُ رِحلَةٍ قَدْ غادرَتْ قَبلَ ساعَتينِ فَحَسْبُ، بَلْ إنَّ الكُشْكَ كانَ مُغْلَقًا أيضًا، وكانَ موعِدُ الرِّحْلَةِ التّالِيَةِ في الغدِ، وعندَما رأى (ريو) سِعْرَ التَّذكَرَةِ بَلَعَ ريقَهُ.

إنَّهُ مَبلَغٌ كَبيرٌ مِنَ المالِ حَتّى لِساعَةٍ واحِدَةٍ. لَديْهِ بَعْضُ المُدَّخَراتِ لكِنَّها في حِسابِهِ المَصْرَفِيِّ في إنجلترا، ولَمْ يكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَليهِ طَلَبُ بَعْضِ المالِ مِنْ جَدَّتِهِ. مِنَ المُسْتحيلِ أنْ يُخبِرَها بِخُطَّتِهِ.

ضَرَبَ بِقَبْضَتيهِ عَلى الكُشْكِ بإحْباطٍ. انْتَهَتْ خُطَّتُهُ حتّى قَبْلَ أنْ تَبدَأَ. تَوجَّهَ عائدًا إلى المُتْحَفِ بِكَتِفينِ مُقوَّسينِ، وحاوَلَ بِصُعوبَةٍ تَجاهُلَ الغُصَّةِ الّتي في حَلقِهِ.

في تلكَ اللَّحظَةِ لَمَحَ بِطَرَفِ عَينِهِ شَيئًا أحْمَرَ.

كانَ هُناكَ شَخْصٌ واقِفٌ عَلى حافَّةِ الرَّصيفِ البَحرِيِّ، وكانَ هُناكَ شَيءٌ مَألوفٌ جِدًّا حِيالَهُ.

المَشْمَلُ الأحمَرُ. الشَّعْرُ الأشقَرُ الجامِحُ. الطَّريقَةُ الّتي بَرَزَ بِها ذَقْنُها.

إنَّها الفَتاةُ الّتي التقى بِها عَلى الشّاطِئِ.

كانَتْ تَقِفُ ساكِنَةً تَمامًا، تُحَدِّقُ في البَحرِ وَمِنظارٌ مَكَبِّرٌ مُثَبَّتٌ عَلى عَينَيها. تَتَوَقَّفُ أحْيانًا عَنِ التَّحديقِ لِتكتُبَ شَيئًا في دَفْتَرِ مُلاحَظاتٍ.

لَمْ يَستَطِعْ (ريو) مُقاوَمَةَ الشُّعورِ بِالفُضولِ، ودونَ حَتّى أنْ يُفكِّرَ في الأمْرِ: اقْتَرَبَ مِنْها بِهُدوءٍ.

كانَ عَلى مَسافَةِ عَشَرَةِ أمْتارٍ مِنْها، حينَ أحَسَّتِ الفَتاةُ بِشَخْصٍ يُراقِبُها. اسْتَدارَتْ بِسُرعَةٍ وَتَلَفَّتَتِ حَولَها في كُلِّ اتِّجاهٍ قَبْلَ أنْ تَلْتَقِيَ عُيونُهُما. وبِحرَكَةٍ سَريعَةٍ وَرشيقَةٍ مِنْ أصابِعِها، أشارَتْ لَهُ بِالقُدومِ.

«انْظُرْ!» قالَتْ لَهُ بِاسْتِعجالٍ. بَدَتْ غَيْرَ مُنْدهِشَةٍ لِرُؤْيَتِه، وهِيَ تُحرِّكُ أصابِعَها بِحَماسٍ ناحِيَةَ نُقطَةٍ ما في الأُفُقِ. «بِسُرعَةٍ! سَيَفوتُك.»

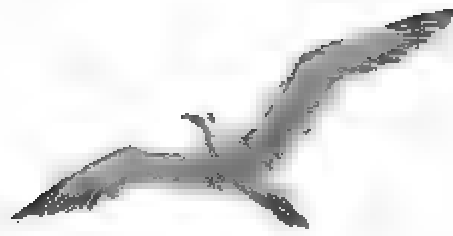
أمْسكَتْ بِكَتِفِ (ريو) وأدارَتْهُ لِيُصبِحَ في مُواجَهَةِ المُحيطِ. كانَ في الهَواءِ نَكْهَةُ حَماسٍ. حَماسٍ نابِضٍ وَحَيٍّ حَتّى إنَّهُ كادَ يَلْمِسُهُ. أمْعَنَ (ريو) النَّظَرَ في البَعيدِ حَيثُ امْتَزَجَ البَحرُ بِالسَّماءِ، لكِنَّهُ لَمْ يتمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ أيِّ شَيءٍ، عَدا قارِبٍ صَغيرٍ بِأشرِعَةٍ بَيضاءَ تَخفُقُ في النَّسيمِ.

«هُناكَ!» صاحَتْ. «الذَّيلُ!»

ضَيَّقَ (ريو) عَينَيهِ أكْثَرَ. ثُمَّ، بِسرعَةٍ كَبيرَةٍ. كادَ حَتّى يَفوتُهُ. خَرَجَ مِنَ الماءِ مُلَوِّحًا، ذَيلٌ داكِنٌ-أمْلَسُ عَظيمٌ وَمُهيبٌ، ارْتَفَعَ عالِيًا، ثُمَّ انْزَلَقَ غاطِسًا في البَحرِ مِنْ جَديدٍ.

«إنَّهُ حوتٌ!»





الفصلُ العاشرُ

(مـاريـنا)

فَرَكَ (ريو) عَينيهِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ. لقَدْ رَأى لِلتَّوِّ حوتًا. حوتًا حَقيقِيًّا في المحيطِ! كانَ الحوتُ بَعيدًا جِدًّا، لكنَّهُ كانَ أكثَرَ شَيءٍ خارِقٍ رآهُ في حَياتِهِ.

«هلْ كانَ ذلِكَ حوتًا رَماديًّا؟» سألَها بِحماسٍ. غَيْرَ قادِرٍ عَلى تَصديقِ حَظِّهِ. لقَدْ فَكَّرَ في الخُطَّةِ لِلتَّوِّ، والآنَ يَحدُثُ هذا!

أوْمَأَتِ الفَتاةُ مُوافِقَةً: «يُمكِنُكَ التَّمييزُ بَينَ الحيتانِ مِنْ

شَكْلِ ذُيولِها وَحَجْمِها. هذا! ذيلُ حوتٍ رَماديٍّ. الحوتُ الرَّماديُّ لَديهِ ذَيلٌ أكْثَرُ اسْتِدارةً مِنَ الحيتانِ الأخْرى.»

«يُمكِنُكِ تَمييزُ الفَرْقِ مِنْ هذِهِ المَسافَةِ؟!» اسْتَدار (ريو) لِيواجِهَها غَيْرَ قادِرٍ عَلى التَّصديقِ.

«يُمكِنُكَ عَمْلُ هذا إنْ راقَبْتَهُمْ بِقَدْرِ ما أُراقِبُهُمْ أنا.» أجابَتْهُ وهِيَ تُدوِّنُ شَيئًا في دَفْتَرِ مُلاحَظاتِها. كانَ الدَّفْترُ مَليئًا بَأعْمِدَةٍ مِنَ الأرْقامِ، وخَرْبَشاتٍ غَيْرِ مَفْهومَةٍ. «أنا (مارينا)،» قالَتْ وهِيَ تُغْلِقُ مُفَكِّرَتَها بِسرعَةٍ، وتَضَعُها في أحَدِ جُيوبِها: «مارينا سيلڤر.»

«أنا ريو،» قالَ بِخَجَلٍ مادًّا نَحْوَها يَدَهُ. «ريو تيرنر.»

تفَحَّصَتْ (مارينا) يَدَهُ الممدودَةَ كأنَّها لَمْ تُصادِفْ يَدًا مُصافِحَةً مِنْ قَبْلُ. رُبَّما لَمْ تَفْعَلْ. وَبينَما (ريو) يفَكِّرُ في الخَطَأِ الفادِحِ وَالمُحْرِجِ الَّذي ارْتَكَبَهُ، مَدَّتْ لَهُ يَدَها. أحَسَّ بِقَبْضَتِها دافِئَةً وَخَشِنَةً عَلى نَحْوٍ مُفاجِئٍ.

رُبَّما كانَ مِنَ الواجِبِ عَليهِ أنْ يَتَوَجَّهَ عائِدًا إلى المُتحَفِ، لكِنْ بِطريقَةٍ ما، لَمْ تَتَحَرَّكْ قَدَماهُ. بَدلًا مِنْ هذا مالَ مُقْترِبًا مِنْها أكْثَرَ.

هَمَسَ (ريو). «هَلْ تُراقِبينَ الحيتانَ؟»

لَمْ يَلْتَقِ بِمُراقِبِ حيتانٍ مِنْ قَبْلُ. لَمْ يكُنْ حَتّى مُتأكِّدًا مِنَ الهَيئَةِ الّتي تَبدو مِنْ أشْكالِهِمْ. لكِنْ إنْ كانَ بمقدورِهِ أنْ يَتخيَّلَ واحِدًا فعلى الأرجَحِ سَيبدو مِثْلَ هذِهِ الفَتاةِ، بِشعرِها الجامِحِ المَغزولِ بِالبحرِ، ولَونِ عَينيها الشَّبيهِ بِلونِ ذَيلِ حوريَّةِ بَحْرٍ.

أومَأَتْ (مارينا) مُوافِقَةً: «أُراقِبُ كَثيرًا مِنَ الحيتانِ، لكِنَّ الرَّمادِيَّةَ هِيَ المُفَضَّلَةُ لَدَيَّ.»

مِثْلُ ماما *تمامًا!* كادَ (ريو) يَقولُ. لكنَّهُ مَنعَ نَفْسَهُ. لَمْ يكُنْ يُحِبُّ التَّحَدُّثَ عَنْ والِدَتِهِ مَعَ أيِّ شَخْصٍ. لَيْسَ بَعدَ تِلكَ المَرَّةِ الّتي تَحَدَّثَ فيها عَنْ أُمِّهِ مَعَ (بيلي جينكينز) في المدرَسةِ. اعْتَقَدَ أنَّ (بيلي) صَديقُهُ. لكنَّ (بيلي) لاحِقًا أخبَرَ الجَميعَ بِالأمْرِ؛ فَتَجَنَّبوهُ لِأسابيعَ كأنَّ بِهِ هُوَ خَطْبًا ما أيضًا.

«لـ لـ لماذا تُحبّينَ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ أكثرَ مِنْ غيرِها؟»

«أُفضِّلُ الحَيواناتِ المُختلِفَةَ.» رَفعَتْ كَتِفَيْها.

مُختَلِفَةٌ مِثْلُ ماما، فكَّرَ (ريو). شَعَرَ بِقلبِهِ يَعْتَصِرُ في صَدْرِهِ. «ما الَّذي تَعنينَهُ بِمُخْتَلِفَةٍ؟»

«كَثيرٌ مِنَ النّاسِ يَعتقِدونَ أنَّ الحوتَ الرَّمادِيَّ يَبْدو كَصخرَةٍ عَجوزٍ خَشِنَةٍ بِسبَبِ مَحارِ البَرْنَقيلِ[1] المُلْتَصِقِ بِظَهْرِهِ وَخَطْمِهِ.»

قالَتْ (مارينا) وهِيَ تُشيرُ إلى وجْهِها الَّذي، ولِحُسْنِ الحَظِّ، كانَ خالِيًا مِنْ مَحارِ البَرنَقيلِ. «لكِنّي لا أعْتَقِدُ أنَّ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ قَبيحَةٌ عَلى الإطْلاقِ. كيفَ يُمكِنُ لِحوتٍ أنْ يكونَ قَبيحًا؟ إنَّها أجمَلُ مَخلوقاتٍ عَلى هذا الكَوكَبِ.»

نظرَتْ إلى (ريو) نَظْرَةً مُتحَدِّيَةً. رُبَّما لِتُقَيِّمَ إنْ كانَتْ قَدْ قالَتْ أكثَرَ مِنَ اللّازِمِ، أوْ إنْ كانَ يَجرُؤُ عَلى مُعارَضَتِها. لكِنَّهُ بِالطَّبْعِ لَمْ يُفكِّرْ في هذا عَلى الإطْلاقِ. بَدَلًا مِنْ هذا، قَفَزَ قَلْبُهُ قَفْزَةً صَغيرَةً راقِصَةً مُضحِكَةً.

«هَلْ تَعرِفُ ماذا يُطْلِقُ النّاسُ عَلى الحوتِ الرَّمادِيِّ؟» سألَتْهُ خافِضَةً صَوْتَها، رغْمَ عَدَمِ وُجودِ أَحَدٍ آخَرَ مَعَهُما.

فَتَّش (ريو) في عَقْلِهِ لِيَتَذَكَّرَ المَعْلومَةَ الَّتي قَرَأَها في المُتْحَفِ: «حوتُ المُحيطِ الهادِئِ؟»

حَرَّكَتْ (مارينا) رأسَها مُعتَرِضَةً. «الحوتُ *الوَدودُ*.»

«لكِنْ . . . لكِنْ كَيفَ يُمكِنُ لِحوتٍ أنْ يَكونَ وَدودًا؟»

«لأنَّ الحوتَ أحْيانًا، في الرِّحلاتِ البَحرِيَّةِ، يَقتَرِبُ مِنَ القارِبِ بِهذا القَدْرِ -» مَدَّتْ (مارينا) ذِراعَها. «وَيَسمَحُ لَكَ بِأنْ *تَلْمِسَهُ*»

«لا!» كانَ لَدى (ريو) إحساسٌ فَظيعٌ بِأنَّها تَخدَعُهُ.

«أُقْسِمُ لَكَ أمامَ المُحيطِ، وهذا هوَ أفضَلُ مَكانٍ أُقْسِمُ لَكَ فيهِ؛ لِأنَّ المُحيطَ هوَ أقْوى شَيءٍ عَلى وَجْهِ الأرْضِ، أقْوى حَتّى مِنَ البَشَرِ، رغْمَ أنَّ مُعْظَمَ البَشَرِ لا يُحِبُّونَ الاعْتِرافَ بِهذا.»

«هَلْ لَمَسْتِ واحِدًا مِنْ قَبْلُ؟»

«فَقَطْ مَرَّةً واحِدَةً، وكانَ هذا أفْضَلُ شَيءٍ عَلى الإطْلاقِ . . . مِثْلُ لَمْسِ قَوْسِ قُزَحَ.»

حَدَّقَ (ريو) في (مارينا) مَبْهورًا.

أكمَلَتْ حَديثَها وَعيناها تُضيئانِ وَتلمَعانِ: «والِدي يُنَظِّمُ رحلاتٍ لِمُراقَبَةِ الحيتانِ، ولَيسَ أيُّ رِحلاتٍ، بَلْ أفضَلُ رِحلاتِ مُراقَبَةِ حيتانٍ في (أوشن باي).»

«رِحلاتُ مُراقَبَةِ حيتانٍ؟» شَهَقَ (ريو). «والِدُك؟»

لاحظَتْ (مارينا) أنَّ فَمَهُ مَفتوحٌ عَلى آخِرِهِ. لكنَّها لَمْ تُعَلِّقْ بِشيءٍ. «يأتي النّاسُ مِنْ جَميعِ أنْحاءِ العالَمِ إلى (أوشن باي) لِرؤيَةِ الحيتانِ الرَّماديَّةِ. ظَنَنْتُ أنَّ هذا سَبَبَ وُجودِكَ هُنا أيضًا؟»

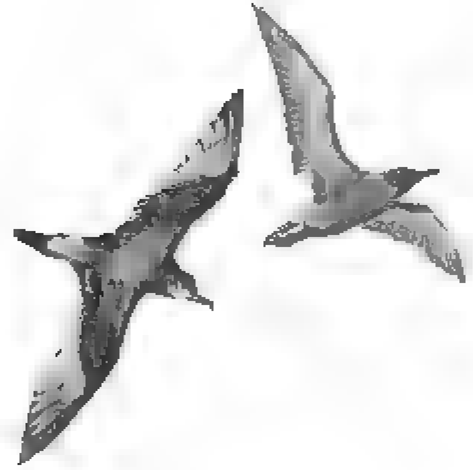
كانَ سُؤالًا بَسيطًا. لكِنَّهُ كانَ سُؤالًا لَمْ يَعرِفْ (ريو) كيفَ يُجيبُ عَنْهُ. تَأمَّلَ وَجْهَها الصَّريحَ الواضِحَ، ثُمَّ نَظَرَ إلى المُحيطِ.

بِبُطْءٍ، وَمَوْجَةٍ تِلْوَ مَوْجَةٍ، تَشَكَّلَتِ الإِجابَةُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها فِي مَكانٍ ما في أَعْماقِهِ. كَأَنَّها كانَتْ هُناكَ طيلَةَ الوَقْتِ.

«نَعَمْ،» أجابَها بِحَسْمٍ، وَنظَرَ إِلَيها مَرَّةً أُخْرى. «نعَمْ، أنا هُنا مِنْ أَجْلِ الحيتانِ.»

أَوْمَأَتْ (مارينا) مُوافِقَةً. كَأَنَّهُ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ هُناكَ إِجابَةٌ سِوى هذِهِ الإِجابَةِ.

«إِذنْ ما الَّذي تَنتَظِرُهُ؟» ابْتَسمَتْ بِشَقاوَةٍ. «هَلْ تُريدُ أَنْ تَأتِيَ مَعيَ وتُشاهِدَ بَعْضَ الحيتانِ؟»



الفصلُ الحادي عشرَ

مُراقَبةُ الحيتانِ

بعدَ يَومينِ، وقَفَ (ريو) ينتَظِرُ. اتَّضَحَ أنَّ والِدَ (مارينا) كانَ يَقومُ بِبعْضِ الإصْلاحاتِ الضَّرورِيَّةِ في القارِبِ؛ لِذا فَمُراقَبَةُ الحيتانِ مِنْ عَلى الرَّصيفِ البَحْريِّ كانَ الخَيارَ الثّاني الأفْضَلَ لَهُما. كما أنَّ (مارينا) قالَتْ إنَّ هذا سَيجعَلُها قادرَةً عَلى تَدريبِ (ريو). رغْمَ أنَّ (ريو) لَمْ يفهَمْ سَبَبَ حاجَتِهِ للتَّدريبِ مِنْ أجْلِ مُراقَبَةِ بعضِ الحيتانِ فقَطْ.

عَلى أيِّ حالٍ، (مارينا) ستَصِلُ قَريبًا. ومِنْ ثَمَّ، فإنَّهُ بعدَ هذا اليومِ، سَيكونُ لَديهِ كَثيرٌ لِيَحْكيَهُ لِأُمِّهِ عندَما يتحَدَّثُ مَعها يومَ الأحدِ.

خَفَقَ قلْبُ (ريو) وأشرَقَ مِنْ حَماسِهِ لِلفكْرَةِ.

حتّى إنَّهُ لانَ قَليلًا نَحْوَ جدَّتِهِ (فران). فَالبقاءُ غاضِبًا مِنْ شَخْصٍ ما لِفترَةٍ طَويلَةٍ أَمْرٌ صَعْبٌ. وأيضًا لأنَّهُ حينَ عادَ ذلِكَ اليَومَ، وَجَدَها تُفَتِّشُ عَنهُ بِجُنونٍ في الميناءِ. وَبَدلًا مِنْ أنْ تَكونَ غاضِبَةً مِنْهُ بَدا عَليها الارْتياحُ لِرؤيَتِهِ عائدًا، بِلْ إنَّها بَدَتْ مُتأثِّرَةً أيْضًا. اعْتادَ (ريو) لِفترَةٍ طَويلَةٍ أنْ يَكونَ هُوَ مَنْ يُقدِّمُ الرِّعايَةَ لِغيرِهِ؛ لِذا فَقدْ شعَرَ بِالغَرابَةِ حينَ صارَ هُوَ مَنْ تُقَدَّمُ لَهُ الرِّعايَةُ.

«أوه يا (ريو)،» صاحَتْ جَدَّتُهُ. «أرْجوكَ لا تَهربْ مِنّي هكَذا مَرَّةً أخْرى.»

ثُمَّ ضَمَّتْهُ إلى حِضْنِها في عِناقٍ تَفوحُ مِنْهُ رائحَةُ النَّعْناعِ.

ولَمْ تكتَفِ جَدَّتُهُ باصْطحابِهِ للتَّسَوُّقِ لِتُجَهِّزَهُ بِسراويلَ قَصيرَةٍ جَديدَةٍ، ونَظّارَةٍ شَمْسيَّةٍ، وواقي مِنْ أشِعَّةِ الشَّمْسِ صَديقٍ لِلبيئَةِ، بَلْ أعارَتْهُ مِنْظارَها أيضًا. رغْمَ أنَّ المِنْظارَ كانَ كَبيرًا وثَقيلًا، وكانَ عَليهِ أوَّلًا أنْ يَنفُضَ عَنهُ عَنْكَبوتًا شارِدًا

وَخُيوطَ شِباكِهِ.

بَينَما كانَ يَنتظِرُ (مارينا) عَلى الرَّصيفِ البَحْرِيِّ، راحَ يَتدَرَّبُ عَلى اسْتِخدامِ المِنْظارِ بِالتَّحديقِ إلى الأُفُقِ.

«يُعجِبُني سِروالُكَ القَصيرُ. لَهُ جُيوبٌ عَميقَةٌ جَيِّدَةٌ!»

قَفَزَ (ريو) مُتَفاجِئًا. كانَ مُستَغْرِقًا في أفْكارِهِ، وَلَمْ يشعُرْ (بمارينا) وهِيَ تقترِبُ مِنْ وَرائِهِ.

«أنا . . . ممم . . . عَمِلْتُ بِنَصيحَتِكِ.»

«عَلى أيِّ حالٍ، أنتَ تَستخدِمُ المِنْظارَ بِشكْلٍ خَطإٍ تَمامًا. أنتَ تُلَوِّحُ بِهِ في كُلِّ اتِّجاهٍ كأنَّهُ رايَةُ احْتِفالاتٍ مِنْ نوعٍ ما.» سَحَبَتِ المنْظارَ مِنْ يَدَيهِ، وَوَجَّهَتْهُ ناحِيَةَ الأُفُقِ، وَقَدْ أمْسَكَتْ بِهِ بِثَباتٍ تامٍّ لِوقْتٍ طَويلٍ. «هكَذا! عَليكَ أنْ تُبْقِيَ تَركيزَهُ ثابِتًا عَلى مَكانٍ واحِدٍ. أوَّلُ قاعِدَةٍ وَأهَمُّ قاعِدَةٍ في مُراقَبَةِ الحيتانِ هِيَ الصَّبْرُ.»

مَدَّتْ إلَيهِ المِنظارَ، فأخَذَهُ (ريو) في صَمْتٍ، قَبْلَ أنْ يُدرِكَ أنَّها تَتوَقَّعُ مِنْهُ أنْ يَستَأنِفَ المُراقَبَةَ في التَّوِّ وَاللَّحظَةِ. وَضَعَ المِنْظارَ عَلى عَينيهِ، لكنَّهُ، لِسَبَبٍ ما، شَعَرَ أنَّهُ في اخْتِبارٍ. بَدا وكأنَّ (مارينا) اسْتَشعَرَتْ ما يفَكِّرُ بِهِ. مَدَّتْ يَدَها، وَصَحَّحَتِ الارْتِفاعَ الَّذي يُمسِكُ فيهِ بِالمِنظارِ.

«ضَعْهُ عَلى هذِهِ الزّاوِيَةِ أَكْثَرَ. هكَذا بِالضَّبْطِ. والآنَ أَمْسِكْ بِهِ بِثَباتٍ!»

فَعَلَ (ريو) كَما وَجَّهَتْهُ بِالضَّبْطِ، حَتّى حينَ أَحَسَّ أَنَّ عَينيهِ عَلى وَشَكِ الخُروجِ مِنْ رَأْسِهِ بِفِعْلِ تَحديقِهِ القَويِّ.

«هُناكَ!» أشارَتْ بِإِصْبَعِها بِحَماسٍ نَحْوَ الأُفُقِ. «السّاعَةَ الثّالِثَةَ!»

احْتاجَ (ريو) إلى ثانِيَةٍ لِيُدرِكَ أَنَّ (مارينا) لَمْ تَكُنْ تُخْبِرُهُ عَنِ الوَقْتِ، بَلْ في حَقيقَةِ الأَمْرِ، كانَتْ تُوَجِّهُهُ إلى حَيثُ يَجِبُ أَنْ يَنْظُرَ، مُستَخْدِمَةً قُرْصَ السّاعَةِ كَمُؤَشِّرٍ جُغْرافِيٍّ. بَعْدَ أَنْ وَجَّهَ المِنْظارَ إلى المَكانِ الصَّحيحِ، رَأى رَذاذَ ماءٍ ضَعيفًا جِدًّا، لكِنَّهُ لَمْ يَرَ حوتًا.

كانَتْ عَيْنا (مارينا) حادَّتَينِ كَعَيني صَقْرٍ حَتّى مِنْ دونِ مِنْظارٍ. أَمّا (ريو) فَكُلُّ ما اسْتَطاعَ رُؤْيَتَهُ، رُغْمَ تَحديقِهِ القَوِيِّ، هُوَ القِمَمُ البَيضاءُ لِلأَمْواجِ المُرتَفِعَةِ، وَبَعْضُ راكِبي الأَمْواجِ الشُّجْعانُ، وقارِبٌ شِراعِيٌّ بَينَ حينٍ وآخَرَ.

«القاعِدَةُ الثّانِيَةُ في مُراقَبَةِ الحيتانِ،» قالَتْ (مارينا) مُطَمْئِنَةً، كأَنَّها أَحَسَّتْ بِخيبَةِ أَمَلِهِ: «هِيَ أَلّا تَسْتَسْلِمَ أَبَدًا. الآنَ صِرْتَ تَعرِفُ مَكانَ الحوتِ، حَرِّكْ مِنظارَكَ قَليلًا جِهَةَ

اليَسارِ، وَأَبْقِهِ ثابِتًا. انْتَظِرْ، انْتَظِرْ، انْتَظِرْ . . . سَيَعودُ الحوتُ إلى السَّطْحِ في أيِّ لَحْظَةٍ . . . الآنَ! هَلْ تَرى نافورَةَ الماءِ هُناكَ؟»

لَوْ لَمْ تُخْبِرْهُ (مارينا) بِهذا، لَفاتَ (ريو) المَشْهَدُ تَمامًا. كانَ مُجَرَّدَ رَذاذِ ماءٍ تَلاشى قَبْلَ حَتّى أنْ يَجِدَ وَقْتًا لِلتَّساؤلِ عَنْ ماهِيَّتِهِ. حَدَثَ الأمْرُ بِسُرعَةٍ كَبيرَةٍ، حَتّى إنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ إِخْراجِ هاتِفِهِ، ناهيكَ عَنِ الْتِقاطِ صوَرٍ لإرْسالِها إلى أُمِّهِ.

«هَلْ كانَ ذَيلُ الحوتِ هُوَ ما سَبَّبَ ذلِكَ الرَّذاذَ؟»

«لا!» ضَحِكَتْ (مارينا). «إنَّهُ تَنَفُّسُهُ!»

«تَنَفُّسُهُ؟»

«الحيتانُ تُشْبِهُ البَشَرَ أكثَرَ مِمّا نَعْتَقِدُ،» شَرحَتْ لَهُ: «إنَّها تَحتاجُ إلى الهَواءِ مِثْلَنا تَمامًا، وإنْ لَمْ تَصْعَدْ بِانْتِظامٍ إلى السَّطْحِ مِنْ أجْلِ التَّنَفُّسِ فإنَّها سَتَغْرَقُ؛ لِذا فإنَّ نافورَةَ الماءِ الَّتي رأيتَها كانتْ في الواقِعِ حوتًا يُطلِقُ زَفيرًا مِنْ خِلالِ فَتحَةِ تَنَفُّسِهِ.»

لَمْ يَتوقَّفْ (ريو) يومًا لِيَتَخَيَّلَ كيفَ يَتنفَّسُ الحوتُ. أوْ حَتّى كيفَ تَبدو عَمليَّةُ تَنَفُّسِ الحيتانِ، لكِنَّهُ، في الوقتِ نَفْسِهِ، لَمْ يَقْضِ حياتَهُ تَحتَ شَمْسِ كاليفورنيا السّاطِعَةِ،

وصَوتِ المُحيطِ يَتخَلَّلُ أحْلامَهُ.

بعدَ مُرورِ عِشرينَ دَقيقةً أخْرى، لَمَحَتْ خِلالَها (مارينا) حوتًا آخَرَ - جَمَلَ البَحْرِ[4] عَلى ما يَبدو.

فَشِلَ (ريو) في رُؤيَةِ أيِّ حوتٍ جَديدٍ. الأسْوَأُ مِنْ ذلِكَ، هوَ أنَّ ذِراعاهُ بَدَأتا تُؤلِمانِهِ مِنْ حَمْلِ المِنْظارِ. لَقَدْ كانَتْ (مارينا) عَلى حَقٍّ. فَمُراقَبَةُ الحيتانِ، كَما اكْتَشَفَ (ريو)، أصْعَبُ بِكثيرٍ مِمّا تَبدو عَلَيهِ.

فَتَّشَتْ (مارينا) في جُيوبِها. أخرَجَتْ مِبْرَدَ أظافِرَ، وَبعضَ العِلْكَةِ، وقَلَمَ حِبْرٍ جافٍّ، ثُمَّ أخرجَتْ مِنْظارَها الَّذي كانَ ثُلُثَ حَجْمِ مِنظارِ (ريو). «هاكَ، يُمكِنُكَ الاحْتِفاظُ بِهِ إنْ أرَدْتَ.»

«هَلْ أنْتِ مُتأكِّدَةٌ؟»

نظرَتْ (مارينا) إلى مِنظارِهِ وَكَشَّرَتْ: «عُمْرُ مِنظارِكِ، في أقَلِّ تِقديرٍ، مِليونُ سَنَةٍ! عَلى أيِّ حالٍ لَدَيَّ مِنظارٌ آخرُ في البَيتِ.»

حينَ وَضَعَ (ريو) المِنظارَ في جَيبِهِ، لَمَسَتْ أصابِعُهُ حَوافَّ رَسْمَةِ أُمِّهِ، فَأخْرَجَها لِكيلا يُتْلِفَها المِنظارُ.

سَألَتْهُ (مارينا) بفُضولٍ «ما هذا؟ لا شَكَّ أنَّهُ شَيءٌ مُهِمٌّ لِلغايَةِ بِالنِّسْبَةِ لَكَ حَتّى تَحمِلَهُ مَعَكَ طيلَةَ الوَقْتِ.»

ضَمَّ (ريو) الرَّسْمَةَ إلى صَدرِهِ كأنَّهُ يَحميها «إنَّها رَسْمَةُ حوتٍ.» أجابَها حاذِفًا مِنْ رَدِّهِ حَقيقَةَ أنَّ والِدَتَهُ هِيَ مَنْ رَسَمَتْها.

أوْمَأَتْ (مارينا)، لَيسَ بِالطَّريقَةِ الَّتي يومِئُ بِها بَعْضُ النَّاسِ حينَ لا يُنْصِتونَ فِعْلًا. لكِنْ بِطريقَةٍ توحي بِأنَّها تَعرِفُ أنَّ هُناكَ شَيئًا آخَرَ لَمْ يُخْبِرْها بِهِ. اسْتَعَدَّ (ريو) لِلأسْئِلَةِ الَّتي لا مَفَرَّ مِنْها، لكِنْ بَدَلًا مِنْ هذا ابْتَسَمَتْ (مارينا).

«هَلْ يُمكِنُني أنْ أرى؟»

تَرَدَّدَ (ريو) لِجُزءٍ مِنَ الثَّانِيَةِ قَبْلَ أنْ يَمُدَّ إلَيْها يَدَهُ بِالرَّسْمَةِ. ما الضَّيْرُ في أنْ يَسمَحَ لَها بِرؤيَتِها؟ بِالإضافَةِ إلى أنَّهُ إنْ كانَ سَيُرِيَ أيَّ شَخْصٍ رَسْمَةَ حوتٍ، فَسَتكونُ هذِهِ الفَتاةُ.

أمْسَكَتْ (مارينا) باللَّوْحَةِ وَفَرَدَتْها في يَدَيها.

«أوه!» انْتَصَبَتْ بِدَهْشَةٍ. «إنَّها رَسْمَةُ وايت بيك.»



الفصلُ الثّاني عشرَ

(سباي هوبر)

فَغَرَ (ريو) فاهُ عَلى اتِّساعِهِ. «أنتِ تَعرفينَ وايت بيك؟» سَألَها غَيْرَ مُصَدِّقٍ. لَمْ يكُنْ يَجرُؤُ عَلى تصديقِ أنَّ الحوتَ عَلى قيدِ الحَياةِ، ناهيكَ عَنْ أنَّ أُناسًا آخَرينَ يَعرفونَهُ بِالفِعْلِ. «لـ-لـ-لكِنْ كيفَ؟!»

«تعالَ معي، وَسَأُريكَ.» قالَتْ (مارينا) بابْتِسامَةٍ عَريضَةٍ وهِيَ تُعيدُ لَهُ الورقةَ.

قَبْلَ أنْ يتمكَّنَ (ريو) مِنَ الرَّدِّ، قادَتْهُ إلى قَلْبِ الميناءِ، حيثُ رَسَتْ عَلى المَرْفَأِ الخَشَبيِّ قواربُ مِنْ جَميعِ الأحْجامِ: قَواربُ شِراعِيَّةٌ بِصَوارٍ تَئِزُّ وَتُصَرْصِرُ بِفِعْلِ الرِّياحِ، وَقوارِبُ صَيْدٍ تَتَكَدَّسُ عَلى مَتْنِها أوعِيَةٌ تَخزينِ جَرادِ البَحرِ حتّى قِمَّتِها، وتفوحُ منها رائحَةُ السَّمَكِ النَّتِنَةُ، ويُخوتٌ أنيقَةٌ بِأسْماءٍ شاعِريَّةٍ، وَمراكِبُ أنْهَكَها البحرُ تَبدو كأنَّها آثارٌ تاريخيَّةٌ مِنْ حِقْبَةٍ ماضيةٍ.

رَكَضَتْ (مارينا) عَلى رصيفٍ خَشبيٍّ صَغيرٍ قَبْلَ أنْ تتوقَّفَ في مُنتصَفِهِ تَقريبًا.





قالَتْ: «ها نحنُ ذا، أهْلًا بِكَ في بيتي.»

«*هذا؟*» فَشِلَ (ريو) في إخْفاءِ صَدْمَتِهِ. عندَما قالَتْ إنَّ والِدَها يُنظِّمُ رِحلاتٍ لِمُراقَبَةِ الحيتانِ لَمْ يَتخيَّلْ قَطُّ أنَّها تعيشُ فِعْلِيًّا عَلى مَتْنِ قارِبٍ أيضًا. «هذا هُوَ المكانُ الَّذي تَعيشينَ فيهِ؟»

«بِالطَّبْعِ،» قالَتْ ضاحِكَةً. «في أيِّ مَكانٍ آخَرَ يا تُرى سَتعيشُ فَتاةٌ اسْمُها (مارينا)[5]؟»

لَمْ يكُنِ القارِبُ الرّاسي أمامَهُما تَقليدِيًّا عَلى الإطْلاقِ. كانَ مَصبوغًا بِطريقَةٍ تَجعَلُهُ مُماثِلًا لِحوتٍ رَمادِيٍّ.

صُبِغَ هَيْكَلُ القارِبِ بِلوْنٍ رَصاصِيٍّ مَعدنِيٍّ، ورُسِمَتْ عَلى امْتدادِ طولِهِ التَّضاريسُ الخارجِيَّةُ للحوتِ. وعَلى مُؤَخِّرَتِهِ المُذَبَّبَةِ، رُسِمَ ذيلُ حوتٍ يرتفِعُ مُلْتَوِيًا عندَ طَرَفِ القارِبِ. وعَلى مُقَدِّمَتِهِ رُسِمَتْ، بِطريقَةٍ مُمَيَّزَةٍ، عَيْنُ حوتٍ شِبْهُ-واقِعِيَّةٍ. وأخيرًا، فوقَ مَقصورَةِ القِيادَةِ، رُفِعَ عَلَمٌ بألوانِ الصَّيفِ الزّاهِيَةِ يُرفرِفُ مُتموِّجًا في النَّسيمِ.

«أَلَيْسَ هذا أفضلُ قارِبٍ؟!» هتفَتْ (مارينا) وهيَ تُصفِّقُ بِابْتهاجٍ.

بِالنِّسْبَةِ (لريو) فقدْ وَجدَ أنَّ شَكْلَ القارِبِ مُبالَغٌ فيهِ بَعْضَ

الشَّيءِ. لكِنْ، كُلُّ شيءٍ منذُ أنْ وَصَلَ إلى (أوشن باي) كانَ أكبرَ حَجْمًا، وأكثرَ جُموحًا، وأشَدَّ سُطوعًا. بَدا لَهُ أنَّهُ بِمُجَرَّدِ وُصولِهِ إلى هنا، أَدارَ شَخْصٌ ما قُرْصَ سُطوعِ ألْوانِ الحَياةِ إلى أقْصى دَرَجةٍ، فَصارَ عليهِ أنْ يَرْمِشَ لِيَعتادَ عَلى الرُّؤْيَةِ. لكِنْ، إنْ كانَ هُناكَ أيُّ شيءٍ يُساعِدُهُ عَلى الاقْترابِ مِنَ الحيتانِ، فَهذا القارِبُ هوَ ذلِكَ الشَّيءُ بِالتَّأكيدِ.

«اسْمُهُ سباي هوبر (الجاسوسُ القافِزُ).» قالَتْ (مارينا) وهيَ تُشيرُ إلى الكِتابَةِ بِخَطِّ اليَدِ عَلى جانِبِ الهَيكلِ.

«سباي هوبر؟»

«إنَّهُ شيءٌ تَفعَلُهُ الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ،» شرحَتْ لَهُ وهيَ تَرفَعُ ذِراعَيْها في الهَواءِ. «تدفَعُ بِرؤوسِها خارِجَ الماءِ هكَذا: ***وووووش!*** تقريبًا كأنَّها تَستقيمُ واقِفَةً، ثُمَّ تُلْقي نظرَةً فاحِصَةً مِنْ حولِها قَبْلَ أنْ تَختَفِيَ غاطِسَةً مِنْ جَديدٍ. يُسَمّى هذا بـ القَفْزِ التَّجَسُّسِيِّ. لا أَحَدَ يَفهَمُ حَقًّا لِمَ تَفعَلُ الحيتانُ هذا، لكِنَّهُ أحَدُ الأسْبابِ الَّتي تَجعَلُني أُحِبُّها كَثيرًا.»

«أرى أنَّكِ قَدْ أحْضَرْتِ ضَيفًا.»

«بابا!» اسْتَدارَتْ (مارينا)، وَحَيَّتْهُ مُمازِحَةً تَحِيَّةَ قُبطانٍ. «أنتَ لا تُمانِعُ، ألَيْسَ كَذلِكَ؟»

بَلَعَ (ريو) ريقَهُ. لَمْ يَكُنْ والِدُ (مارينا) يُشْبِهُ أباهُ - الأبَ الَّذي يَرتدي بَدلاتٍ رَمادِيَّةً عندَ ذَهابِهِ إلى العَمَلِ، ويَقْضي مُعْظَمَ وَقْتِ فَراغِهِ إمّا في مُشاهَدَةِ مُبارَياتِ كُرَةِ القَدَمِ عَلى التِّلفازِ أَوِ بِاللَّعِبِ عَلى هاتِفِهِ. لكنَّ (ريو) لَمْ يكُنْ يعلَمُ ما يَبدو عَليهِ رَجُلٌ يَعيشُ في قارِبٍ، وَيَجْني مالَهُ مِنْ تَنظيمِ رِحلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ. كانَ والِدُها أكْبَرَ عُمْرًا مِمّا تَوَقَّعَ، بِشَعْرٍ كَثيفٍ أَشْعَثَ تَتَخَلَّلُهُ خُصُلاتٌ فِضِّيَّةٌ، وَبِلِحْيَةٍ كَثَّةٍ وَشَوارِبَ طَويلَةٍ تَمْتَدُّ إلى وَجْنَتَيْهِ. كانَ وَجْهُهُ مُسْمَرًّا، وَالتَّجاعيدُ حَوْلَ عَيْنَيْهِ، وَأَنْفُهُ مَكْسورٌ مَرَّتينِ عَلى الأَقَلِّ. كانَ طَويلَ القامَةِ عَريضَ المَنْكِبينِ، وَيَرْتدي حِذاءَ رُعاةِ البقَرِ، وَقميصًا أبيضَ تَحتَ صِدرِيَّةٍ بِلونِ البَحرِ.

لكِنْ أكثَرَ ما أَسَرَ (ريو) فيهِ، كانَ صوتُهُ. كانَ صوتُهُ عَميقًا، كالشّوكولاتَةِ الغنيَّةِ الدّاكِنَةِ. ذلكَ النَّوعُ مِنَ الأَصْواتِ الَّذي قَدْ يُصْدِرُهُ (التِّشلو) إنْ كانَ بمقدورِهِ الكَلامُ. وحينَ تكَلَّمَ بَدا وكَأَنَّ عَلى الأرضِ نفْسِها أنْ تُعَدِّلَ مِنْ جِلْسَتِها وَتُنْصِتَ.

«أرْجوكَ، اقْفِزْ إلى القارِبِ.»

لَمْ يركَبْ (ريو) قارِبًا مِنْ قَبْلُ. كانتِ الفَجْوَةُ الفاصِلَةُ بينَ الجاسوسِ القافِزِ وَالرَّصيفِ الخَشَبيِّ خُطْوَةً واحِدَةً، لكنَّها كانتْ

خُطوَةً فوقَ الماءِ. وَمَنْ يَدْري ما يُمكِنُ أنْ يكونَ بِالأسفَلِ؟ قَفَزَتْ (مارينا) فوقَ الفَجْوَةِ الفاصِلَةِ دونَ أنْ تَتَرَدَّدَ لَحظَةً واحدَةً. تَرَدَّدَ (ريو) قليلًا، ثُمَّ عَقَدَ إصْبَعيهِ وَفَعَلَ مِثْلَها.

تَمايَلَ القارِبُ قليلًا تحتَ قَدمَيهِ، كأنَّهُ لَمْ يقفزْ إلى قارِبٍ، بَلْ إلى عالَمٍ مُخْتلِفٍ. لاحَظَ عَجَلَةَ القِيادَةِ وَالمقاعِدَ المَتينَةَ المُثَبَّتَةَ عَلى طولِ الجُزْءِ الداخِلِيِّ مِنْ دَرابزينِ السَّفينَةِ، وثَلاثَ دَرجاتٍ خَشبيَّةٍ نَحْوَ المَقْصورَةِ الَّتي في الأسْفَلِ.

«مرحَبًا بِكَ عَلى مَتْنِ سباي هوبر.» قالَ والِدُ (مارينا)، ومَدَّ لَهُ يَدًا بَدتْ قَوِيَّةً مِثْلَ يَدِ دُبٍّ. يَدًا مِنَ النَّوعِ الَّذي يُمْكِنُها أنْ تَجعَلَكَ تَشعُرُ بِالأمانِ.

«أنا بيرش،» قالَ مُقَدِّمًا نَفْسَهُ. «يُسعِدُني مُقابَلَتُكَ أخيرًا.»

أخيرًا؟ رَفَعَ (ريو) حاجِبَهُ.

«لَمْ تَتَوَقَّفْ (مارينا) عَنِ التَّحَدُّثِ عَنْكَ، لَقَدْ أَثَرْتَ إعْجابَها كَثيرًا.»

انْقَلَبَتْ أحشاءُ (ريو). كانَتْ (مارينا) تتحَدَّثُ عنْهُ؟

ابْتَسَمَ (بيرش) ثُمَّ أشارَ إليهِما لِيَلْحَقا بِهِ نَحْوَ المَقْصورَةِ في الأسْفَلِ. كانَتْ المَقْصورَةُ مُرَبَّعَةً وَكَبيرَةً عَلى نَحْوٍ مُخادِعٍ. عَبَقَتْ بِرائحَةِ القَهْوَةِ وَشيءٍ آخَرَ لَمْ يتمَكَّنْ (ريو) مِنْ تَحديدِهِ،

لكنْ إنْ كانَ عَليهِ أنْ يَضَعَ لَهُ وَصْفًا فَسيقولُ إنَّهُ نَفْحَةٌ مِنْ نَفَحاتِ كَنْزٍ مَدفونٍ.

كانَتِ المَقْصورَةُ مُؤَثَّثَةً بِأثاثٍ عَمليٍّ اسْتَغَلَّ كُلَّ مَساحَةٍ فارغَةٍ فيها. كانَ بِها مَقْعَدانِ مُبَطَّنانِ مُتَقابِلانِ، يَفْصِلُ بَينَهُما طاولَةٌ صَغيرَةٌ مُثَبَّتَةٌ إلى الأرضِ، خَمَّنَ (ريو) أنَّها تُطْوى إلى الأسفَلِ لِصُنْعِ سَريرٍ مُزدَوَجٍ. كانَ هُناكَ بابانِ آخَرانِ يُؤدِّيانِ عِلى الأرجَحِ إلى غرفَةِ نَومٍ أخْرى وَحَمّامٍ. عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ المَقْصورَةِ يوجَدُ مَطبَخٌ صَغيرٌ، رغْمَ أنَّهُ وَصْفٌ كَريمٌ لِلغايَةِ. في الواقِعِ كانَ المَطبخُ عِبارَةً عَنْ أصْغَرِ مَوقِدٍ وَأصغَرِ ثَلّاجَةٍ عَلى الإطلاقِ. عَلى الجِدارِ توجَدُ نافِذَةٌ مُستديرَةٌ تَسمَحُ بِدخولِ تَيّارٍ مِنْ أشِعَّةِ الشَّمْسِ، يُحيطُ بِها عَدَدٌ مِنَ الأرْفُفِ وَالفَجَواتِ الصَّغيرَةِ المَليئَةِ بِالأوراقِ والكُتُبِ والأصْدافِ والتَّماثيلِ الصَّغيرَةِ وَقِطَعٍ مِنْ أخْشابِ البَحرِ الطّافِيَةِ المَنْحوتَةِ. وَعَلى الجِدارِ المُقابِلِ ثُبِّتَتْ خَريطَةٌ رُسِمَ عَليها ساحِلُ المُحيطِ الهادِئ كُلُّهُ.

قالَتْ (مارينا) «أبي؟ يُريدُ (ريو) أنْ يَعرِفَ مَعلوماتٍ عَنْ (وايت بيك)، حتّى إنَّ مَعَهُ رَسْمَةً لَها.»

«*لها*؟» سَأَلَ (ريو)، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّهُ، في أعماقِ أعماقِهِ، لَمْ يَتَفاجَأْ أنَّ (وايت بيك) كانَتْ أُنْثى.

أَوْمَأَتْ (مارينا) مُوافِقَةً. «نحنُ نعرِفُ أنَّها أُنْثى؛ لأنَّ الإناثَ أكبَرُ قَليلًا مِنَ الذُّكورِ. لِتُرِ والِدي الرَّسْمَةَ. هَلّا فَعَلْتَ هذا؟»

أخْرَجَ (ريو) الرَّسْمَةَ مِنْ جيبِهِ، وأعْطاها لَهُ عَلى مَضَضٍ، كانَ يكرَهُ أنْ تَكونَ بعيدةً عَنْ قَبْضَتِهِ. وَقَفَ الرَّجُلُ الكَبيرُ لِوَقْتٍ طَويلٍ وهُوَ يُحَدِّقُ في الرَّسْمَةِ فَقَطْ «مَنْ رَسَمَ هذِهِ؟ هَلْ تَعرِفُهُ؟»

بَلَعَ (ريو) ريقَهُ بِتَوَتُّرٍ «إنَّها . . . أُمّي.»

«أُمُّكَ؟» رَفَعَ (بيرش) حاجِبَيهِ كأنَّهُ يَنتَظِرُ تَفْسيرًا.

لكِنَّ (ريو) أوْمَأَ فَقطْ، ثُمَّ اسْتَعادَ الرَّسْمَةَ. كانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ (مارينا) ووالِدَها شَعَرا بِالفُضولِ، إلّا أنَّ (ريو) مِنَ المُسْتحيلِ أنْ يُخْبِرَهُما عَنْ والِدَتِهِ. ماذا لَوْ ضَحِكا؟ ماذا لَوْ نَظَرا إلَيهِ بِنَظَراتِ الشَّفَقَةِ الفَظيعَةِ تِلْكَ؟ أَوِ، الأسْوَأُ مِنْ كُلِّ هذا، ماذا لَوْ رَفَضا بَقاءَهُ عَلى مَتْنِ قارِبِهِما؟ بَدَلًا مِنَ الحَديثِ عَنْ أُمِّهِ، طوى الرَّسْمَةَ، ثُمَّ أعادَها إلى جَيبِهِ بِحِرْصٍ.

«أُريدُ فَقَطْ أنْ أعْرِفَ أكبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ المَعْلوماتِ عَنْ (وايت بيك)» قالَ (ريو)، آمِلًا أنْ تَكْفيَهُما هذِهِ الإجابَةُ.

«إذَنْ فلْتَجْلِسْ يا (ريو).» أجابَهُ (بيرش).



الفصلُ الثّالثَ عشرَ

حـوتٌ سعـيدٌ

بَعْدَ أنْ وَضَعَ (بيرش) قَدْرًا مِنَ الحَليبِ عَلى المَوقِدِ لِتَسخينِهِ، سَحَبَ لِفافَةً لِخَريطَةٍ صَغيرَةٍ مِنْ إحْدى الفَجواتِ الصَّغيرةِ المُثَبَّتَةِ عَلى الحائطِ، وَبَسَطَها عَلى الطّاوِلَةِ.

«هذا هوَ مَسارُ هِجرَةِ الحوتِ الرَّمادِيِّ،» قالَتْ (مارينا) وهيَ تُساعِدُ والِدَها عَلى تَثبيتِ أطْرافِ الخَريطَةِ بِقواقِعَ بَحرِيَّةٍ كَبيرَةِ الحَجمِ؛ حتّى لا تلتَفَّ عَلى نفْسِها مَرَّةً أخْرى.

لَمْ يَفهَمْ (ريو) تَمامًا عَلاقَةَ هذا المَسارِ (بوايت بيك)، لكِنَّهُ أوْمَأَ مُوافِقًا عَلى أيِّ حالٍ. لقدْ صارَ مُستعِدًّا للجُلوسِ والاسْتِماعِ إلى أيِّ شيءٍ الآنَ، إذا كانَ يَعني الاقْترابَ مِنْ حوتِ أُمِّهِ.

شَرَحَ (بيرش)، وهوَ يُشيرُ إلى أكبرِ ولايَةٍ في الوِلاياتِ المتَّحدَةِ الأمريكِيَّةِ تَقَعُ فوقَ كَنَدا. «في الأعْلى هُنا تَقَعُ (ألاسْكا). هذا في القُطْبِ الشَّماليِّ. إنَّهُ المَكانُ الَّذي تأكُلُ فيهِ الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ (الكريليات[6]) الَّتي لا تَجِدُها إلّا في المياهِ البارِدَةِ.»

قالَتْ (مارينا): «بَعْضُ الحيتانِ تُصَنَّفُ عَلى أنَّها مُتَغَذِّياتٌ عُلْوِيَّةٌ، أيّ أنَّها تأكُلُ طَعامَها بِالقُرْبِ مِنْ سطْحِ الماءِ، لكِنَّ بَعض الأنواعِ الأُخْرى مِثْلَ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ تُعَدُّ مِنَ المُتَغَذِّياتِ القاعِيَّةِ. هذِهِ الحيتانُ تَفْتَحُ فَمَها هكَذا.» فتحَتْ (مارينا) فَمَها عَلى اتِّساعِهِ. «ثُمَّ تَجْرِفُ بِهِ قاعَ البحرِ عَلى طولِ امْتِدادِهِ، جامِعَةً بذلِكَ أطْنانًا مِنَ (الكريليات) داخِلَ فَمِها.»

أوْمَأَ (بيرش). «هذِهِ مُحاكاةٌ عَظيمَةٌ يا (مارينا)، يُمكِنُكِ أنْ تَصيري حوتًا عَظيمًا. رغْمَ أنَّني لا أُوصي بِتقليدِ أيِّ حوتٍ عَلى مائدَةِ العَشاءِ.»

أكْمَلَتْ (مارينا) مُتَجاهِلَةً مُحاوَلَةَ والِدِها مُشاكَسَتَها «بعدَ أنْ تَتَغَذّى الحيتانُ، تسبحُ في ساحِلِ المحيطِ الهادئِ قاطِعَةً المسافَةَ

كامِلَةً مِنْ (ألاسْكا) حتّى كَنَدا، ثُمَّ في السّاحِلِ الأمريكيِّ الغربيِّ مارَّةً بِواشنطن وأوريجون وكاليفورنيا، حيثُ نَعيشُ نحنُ، ثُمَّ تُكمِلُ السِّباحَةَ جَنوبًا حتّى تَصِلَ أخيرًا إلى البُحيراتِ الضَّحْلَةِ في المَكْسيكِ.»

نَظَرَ (ريو) إلى المَسافَةِ. حتّى على الخَريطةِ بَدَتْ لَهُ رِحلةً طويلةً بِشَكْلٍ مُسْتَحيلٍ.

قالَتْ (مارينا) كأنَّها قَرَأَتْ أفكارَهُ «تَبْلُغُ رِحلةُ الذَّهابِ والعَودَةِ مَسافَةَ عَشَرَةِ آلافٍ إلى اثْنَي عَشَرَ أَلْفَ ميلٍ، إنَّها واحِدَةٌ مِنْ أطْوَلِ مَساراتِ الهِجرَةِ لِأَيِّ حَيوانٍ مِنَ الثَّدْيِيّاتِ عَلى كوكَبِ الأرْضِ. ولا أَحَدَ يعرِفُ حتّى كيفَ تفعَلُ الحيتانُ هذا، كيفَ تَجِدُ طَريقَها دونَ أنْ تَضيعَ أوْ أيَّ شيءٍ مِنْ هذا القَبيلِ. كأنَّها تحمِلُ خَريطَةً لِلمُحيطِ في عُقولِها. الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ أكثَرُ ذَكاءً مِنّا، حتّى مَعَ كُلِّ تِقْنيّاتِنا. إنَّها تَفعَلُ هذا كُلَّ عامٍ. ذَهابًا وعودَةً.»

«لماذا؟» قالَ (ريو)، وقدْ شَعَرَ بِالتَّعَبِ لِمُجَرَّدِ التَّفكيرِ بِالأمْرِ.

قالَ (بيرش) «في الصَّيفِ تَحتاجُ الحيتانُ إلى التَّغذِيَةِ في القُطْبِ الشّماليِّ؛ لأنَّهُ المَكانُ الوحيدُ الّذي توجَدُ فيهِ كُلُّ (الكريليات)، لكِنْ بِحُلولِ الخريفِ يَتَوجَّبُ عَليها السِّباحَةُ نَحْوَ الجَنوبِ حيثُ الماءُ أدْفَأُ ومُناسِبٌ لإنْجابِ صِغارِها.» أشارَ (بيرش)

إلى ثَلاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ مُسَطَّحاتٍ مائِيَّةٍ، بَدَتْ كَأَنَّها مَصَبّاتُ أَنْهارٍ تَصُبُّ في ساحِلِ المَكْسيكِ.

«منذُ آلافِ الأعْوامِ والحيتانُ الرَّمادِيَّةُ تُسافِرُ إلى هُنا إلى هذِهِ البحيراتِ الضَّحْلَةِ؛ لأنَّها أكثرُ أمانًا، مِنَ المِياهِ المَفتوحَةِ، لِتُنْجِبَ صِغارَها. بعدَها، عندَما يصيرُ الصِّغارُ أقْوياءَ بِما يَكْفي، تَسبَحُ الأُمّهاتُ والصِّغارُ عائدينَ إلى الشَّمالِ مَرَّةً أُخْرى.»

في هذِهِ اللَّحْظَةِ بَدَأَ الحَليبُ بِالغَلَيانِ. وَبينَما حَرَّكَ (بيرش) مَسحوقَ الشّوكولاتَةِ في الحَليبِ، وقَدَّمَ شَرابَ الشّوكولاتَةِ الرَّغوِيَّ السّاخِنَ الَّذي يُحِبُّهُ (ريو) كَثيرًا، أَخْرَجَتْ (مارينا) مِنْ جيبِها دَفتَرَ مُلاحَظاتِها الَّذي يَحتَوي عَلى كُلِّ الأَرْقامِ وَالشَّخْبَطاتِ الغَريبَةِ.

«هَلْ تَرى هذا؟ أثناءَ مُرورِ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ بِالقُرْبِ مِنْ (أوشن باي) نُوَثِّقُ رُؤْيَتَنا لِأَيٍّ مِنْها.»

«ظَنَنْتُ أَنَّكُمْ تُراقِبونَها فقطْ.» سأَلَها (ريو) في حَيرَةٍ.

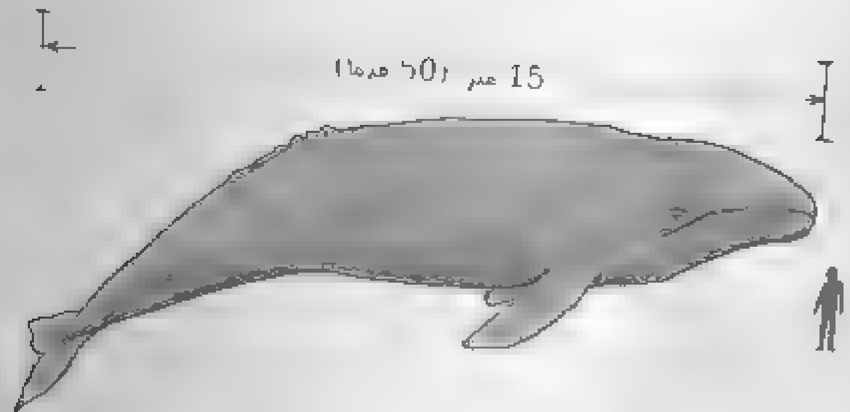
أجابَتْ (مارينا) «نحنُ نُراقِبُها، لكنَّنا نُحصي عَدَدَها أيضًا.»

وَضَّحَ لَهُ (بيرش) «حينَ نُوَثِّقُ رُؤْيَةَ أيِّ حوتٍ رَمادِيٍّ يَمُرُّ بِالقُرْبِ مِنْ (أوشن باي) وهوَ في طَريقِهِ إلى البُحيراتِ الضَّحْلَةِ، نُساعِدُ بِذلِكَ في تَعْدادِها. بِالطَّبْعِ يُمكِنُ لِشَخصٍ مِثْلي، يُنَظِّمُ رحلاتٍ لِمراقبَةِ الحيتانِ، أَنْ يُقَدِّمَ مُساعدَةً كبيرةً.»



مناطق التغذية
في الصَيف.
ألاسكا
كندا
المُحيطُ
الهادئُ
فانكوفر
الولايات
المتحدة
الأمريكية
لوس أنجلوس
سان دييغو
المكسيك
مناطق التزاوج
والإنجاب في الشتاء.

خَرِيطَةُ هِجرَةِ الحيتانِ



يبلغُ مُتوسطُ المسافةِ التي تقطعُها الحيتانُ الرَّماديَّةُ في أثناءِ هجرتِها 75 ميلًا (120 كم) في اليومِ الواحدِ في مُتوسِّطِ سُرعةٍ تبلغُ 5 أميالٍ (8 كم) في السَّاعة.

تتغذَّى الحيتانُ الرَّماديَّةُ في مياهِ القُطْبِ الشَّماليِّ البارِدَةِ، وتتزاوجُ وتُنجبُ صغارَها في البُحيراتِ الضَّحْلَةِ الاستوائيَّةِ بالمحيطِ الهادئِ قُبالةَ المكسيكِ.

يبلغُ طولُ الرِّحلةِ ذهابًا وعودةً 12000 ميلٍ (20000 كم) تقريبًا. يُعتقدُ بأنَّها أطولُ هجرةٍ سنويَّةٍ لأيِّ حيوانٍ من الثَّدييَّاتِ على وَجْهِ الأرض.

«مُساعَدَةٌ كَبيرَةٌ لِمَنْ؟»

أجابَ (بيرش) «أنْشَأَ أحَدُ عُلَماءِ الأحْياءِ البَحْريَّةِ قاعِدَةَ بَياناتٍ خاصَّةً بِتَعْدادِ الحيتانِ مُنْذُ قُرابَةِ سِتَّةِ أعْوامٍ. قدْ لا يَبْدو هذا العَمَلُ شَيئًا بالِغَ الأهَمِّيَّةِ مِنْ بينِ كُلِّ الأمورِ المُهِمَّةِ الأخرى، لكِنَّ البَياناتِ الَّتي نَجمعُها مُهِمَّةٌ لِلغايَةِ بِالنِّسْبَةِ لِعُلَماءِ الأحْياءِ البَحْريَّةِ وعُلَماءِ البيئَةِ، والعُلَماءِ بِشَكْلٍ عامٍّ؛ فهيَ تُساعِدُهُم في مُراقبَةِ عَدَدِ الحيتانِ، وَفَهْمِ أيِّ أخْطارٍ قدْ يَتعرَّضونَ لَها.»

بَدا هذا مَنطِقيًّا بِالنِّسْبَةِ (لريو)، وافْتَرَضَ أنَّ الأمْرَ لا يَختَلِفُ عَنْ مُراقَبَةِ الطُّيورِ الَّذي كانَ يَقومُ بِهِ كَمشروعٍ مَدرسِيٍّ كُلَّ رَبيعٍ يَعُدُّ كُلَّ نَوعٍ مِنْ أنواعِ الطُّيورِ المُختلِفَةِ خارِجَ نافِذَةِ غُرفَةِ نومِهِ. الفارِقُ الوَحيدُ هوَ أنَّ المَخلوقَ الَّذي يقومونَ بِمُراقَبَتِهِ هذه المَرَّةَ أكبرُ بِكثيرٍ.

«سَأُريكَ كيفَ يَتِمُّ الأمْرُ.» أخرجَتْ (مارينا) (اللّابتوب) مِنْ إحْدى الفَجَواتِ الصَّغيرةِ المُثَبَّتَةِ عَلى الحائطِ، ثُمَّ فَتحَتْهُ لِتَدْخُلَ إلى موقعٍ يُسَمّى happywhale (حوتٌ سَعيدٌ). «المَغْزى مِنْ قاعِدَةِ البَياناتِ هوَ السَّماحُ لِأيِّ شَخصٍ بِالمُشارَكَةِ، مَهْما كانَ عُمْرُهُ أوْ مَوطِنُهُ. لا يُشْتَرَطُ أنْ تَكونَ عالِمًا أوْ شَيئًا مِنْ هذا القَبيلِ. كُلُّ ما عَليكَ فِعْلُهُ هوَ أنْ تَكونَ قادِرًا عَلى رُؤيَةِ حوتٍ رَمادِيٍّ، ثُمَّ

تَحميلَ مُشاهَداتِكَ عَلى المَوْقعِ، إمّا بِاستخدامِ صورَةٍ أَوْ بِكتابَةِ وَصْفٍ فَقطْ. الآنَ هُناكَ آلافُ الأَشْخاصِ عَلى ساحِلِ المُحيطِ الهادِئِ يَقومونَ بِعَدِّها أيضًا!»

تَذَكَّرَ (ريو) تَعليقَ جَدَّتِه عَنْ والِدَتِهِ لا تَستطيعُ فَتاةٌ واحِدَةٌ أَنْ تَصنَعَ فارِقًا. لقدْ كانَتْ مُخطئَةً، يُمكِنُ لِلمَرْءِ أنْ يَصنَعَ فارِقًا عندَما نَتعاوَنُ كُلُّنا مَعَ بَعضِنا بَعْضًا.

ومعَ ذلِكَ كانَ هناكَ شيءٌ واحدٌ لا يزالُ يُحَيِّرُهُ. «لكِنْ كيفَ يُمكِنُكُمْ تَمييزُ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ؟»

بَصَقَتْ (مارينا) شَرابَها فَتَناثَرَ عَلى الطّاولَةِ «الحيتانُ لا تَتشابَهُ تمامًا في الشَّكْلِ أوِ الصَّوتِ!» أخذَتْ نَفَسًا عَميقًا. «يُمكِنُ لِلمُراقِبينَ أنْ يُلاحِظوا الاخْتلافاتِ حتّى وأعيُنُهُم مُغْمَضَةٌ.»

قالَ (بيرش) «رُبَّما ليسَ وأعيُنُهُم مُغْلقَةٌ تَمامًا، لكنَّ (مارينا) مُحِقَّةٌ. كُلُّ نوعٍ مِنَ الحيتانِ لَهُ خَصائِصُهُ الَّتي تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ - كَحَجْمِ الذَّيْلِ وَشَكلِه، ولونِ الجِلْد، ومَوضِعِ الزُّعْنُفَةِ الظَّهريَّة، حتّى ارْتفاعُ الماءِ المُندفِعِ مِنْ فَتحَةِ التَّنَفُّسِ وَشَكْلُ انْدِفاعِهِ يُمكِنُ أنْ يكونَ مُختلِفًا بِشكْلٍ كَبيرٍ. إذا دَرَسْتَ جَميعَ أنواعِ الحيتانِ، فَستكتَشِفُ أنَّها تختلِفُ عَنْ بعضِها بَعْضًا اختلافًا مَلحوظًا.»

قالَتْ (مارينا) «يَنطبِقُ هذا عَلى كيفِيَّةِ التَّمييزِ بينَ حوتٍ رَمادِيٍّ وآخَرَ، بعضُها تَفقِدُ أجْزاءً صَغيرَةً مِنْ زَعانِفِها أَوْ ذُيولِها. ولَدى بعضِها الآخَرِ عَلاماتٌ فَريدَةٌ عَلى جِلْدِها بِفِعْلِ الطُّفَيلِيّاتِ.»

نَقَرَتْ عَلى صفحَةٍ جَديدَةٍ عَلى (اللّابتوب)، وفجأةً ظهرَتْ عَلى الشّاشَةِ صورَةٌ لِساحلِ المحيطِ الهادِئِ كُلِّهِ. كانَ هُناك نِقاطٌ زَرقاءُ مُتعَدِّدَةٌ عَلى طولِ السّاحِلِ.

«ما هذِهِ النِّقاطُ؟» سأَلَ (ريو) وهوَ يَميلُ إلى الأمامِ.

«هذا أفضَلُ شيءٍ في السّاحِلِ!» صاحَتْ (مارينا) بِحماسٍ: «كُلُّ نقطةٍ مِنْ هذِهِ النِّقاطِ الزَّرقاءِ هِيَ في الواقِعِ حوتٌ رَمادِيٌّ!»

قالَ (بيرش). «إنَّها الحيتانُ الَّتي يُمكِنُ تَعَرُّفُها بِسهولَةٍ. بِاسْتِخدامِ إحْداثِيّاتِ النِّظامِ العالَمِيِّ لِتحديدِ المَواقِعِ (GPS) يُمكِنُنا تَعَقُّبُ مَكانِ مُشاهَدَةِ كُلِّ حوتٍ مِنها عَلى طولِ السّاحِلِ.»

قَرَّبَتْ (مارينا) الصّورَةَ عَلى إحْدى النِّقاطِ، ثُمَّ قالَتْ: «هَلْ تَرى هذا الحوتَ؟»

راحَتِ النُّقطَةُ الزَّرقاءُ تَكبُرُ وتَكبُرُ حتّى مَلَأَتِ الشّاشَةَ تَمامًا.

«هذِهِ وايت بيك.»



الفصلُ الرّابعَ عشرَ

فِكْرَةٌ مَحظوظَةٌ

كانَ (ريو) في صَدْمَةٍ كَبيرَةٍ، حتّى إنّهُ لَمْ يستَطِعِ الكَلامَ. كُلُّ ما تَمَكَّنَ مِنْ فِعْلِهِ هوَ أنْ يفتَحَ فَمَهُ ويغلِقَهُ مِثْلَ سَمكَةٍ.

قالَتْ (مارينا): «هذِهِ (وايت بيك)، في بِدايَةِ هجرَتِها مِنْ ساحِلِ (فانكوفر) في كَندا، لا بُدَّ أنَّ شَخْصًا ما رآها والْتَقَطَ لَها صورَةً. هكَذا نعرِفُ أنَّها (وايت بيك).» أشارَتْ إلى نقطَةٍ زَرقاءَ أخْرى. «هذِهِ الصَورَةُ لَها أيضًا في سان فرانسيسكو مُنْذُ

وقْتٍ لَيسَ بِبعيدٍ.»

أحَسَّ (ريو) أنَّ شَخْصًا ما أشعَلَ ألْعابًا نارِيَّةً في مَعِدَتِهِ، وصارَتْ تَتفَرْقَعُ في كُلِّ مَكانٍ داخِلَ أحْشائهِ. حتّى أيّامٍ قَليلَةٍ ماضِيةٍ كانَتْ (وايت بيك) مُجَرَّدَ قِطعَةٍ مِنَ الورقِ. رَسْمَةٍ تَربِطُهُ بأُمِّهِ وهُوَ عَلى بُعْدِ آلافِ الأمْيالِ مِنْها.

لكِنَ الآنَ، و(ريو) يُحَدِّقُ في الشّاشَةِ، تحَرَّكَ شيءٌ ما في قَلْبِهِ. فَلَمْ تَعُدْ (وايت بيك) مُجَرَّدَ نُقطَةٍ زَرقاءَ. أوْ مُجَرَّدَ قِطعَةٍ مِنْ وَرَقٍ. كانتْ حوتًا يَنبِضُ بِالحَياةِ، حوتًا عَنى في يومٍ ما شَيئًا عَزيزًا لِلغايَةِ عَلى قلبِ أُمِّهِ.

كانَتْ (وايت بيك) أوَّل حوتٍ رأتْهُ والِدَتُهُ عَلى الإطْلاقِ، وقدْ أدركَ مِنَ الصّوَرِ الموجودَةِ في المُتحَفِ كَمْ جعَلَها هذا الأمْرُ سَعيدةً. لَمْ تكُنْ حَزينَةً أو كَئيبَةً كَما كانَتْ حينَ تَرَكَها في لندن. لم تَكُنْ *تلكَ* النُّسْخَةَ مِنْ أُمِّهِ، النُّسْخَةَ الّتي تَقضي ساعاتٍ حَبيسَةً داخِلَ قَوقَعَتِها، وأحيانًا تفعَلُ أشياءَ غَريبَةً. بَلْ نُسخَةً أخْرى. نُسخَةً تَبتَسِمُ كأنَّ شَمْسًا أشرقَتْ في روحِها.

عندَما نَظَرَ (ريو) إلى النُّقْطَةِ الزَّرقاءِ مَرَّةً أخْرى، أدركَ أنَّهُ لَمْ يكُنْ ينظُرُ إلى حوتٍ فقطْ. كانَ ينظُرُ إلى طريقَةٍ أفضَلَ بِكثيرٍ لإنْقاذِ أُمِّهِ.

كانَتْ فِكرَةُ إرْسالِ صوَرِ حيتانٍ مُختلفَةٍ إلى أُمِّهِ، فِكرةً رائعَةً، لكِنْ هذِهِ الفِكْرَةَ الجَديدَةَ؟ هذِهِ الفِكْرَةَ *مِثالِيَّةٌ* أكْثَرُ؛ لأنَّهُ بِالتَّأكيدِ إنْ كانَ هُناكَ شيءٌ يُمكِنُهُ أنْ يُساعِدَها حَقًّا فسَيكونُ (وايت بيك). أجمَلُ شيءٍ يُذَكِّرُها كَمْ كانَتْ سَعيدَةً مِنْ قَبْلُ . . . وكَمْ يُمْكِنُ أنْ تكونَ سَعيدَةً مَرَّةً أُخْرى.

إلّا أنَّ هذِهِ الفِكْرَةَ لَمْ تَبْدُ مَنطِقِيَّةً أيضًا. لَيْسَ مِنَ النّاحِيَةِ الظّاهِرِيَّةِ عَلى الأقَلِّ. الاعْتِقادُ بِأَنَّ إرْسالَ صورِ حوتٍ بِعينِهِ سَيصنَعُ فارِقًا. لكِنْ ما إنْ بَزَغَتِ الفِكْرَةُ في رَأْسِ (ريو)، فإنَّهُ لَمْ يَعُدْ قادِرًا على صورَةِ أُمِّهِ مُبْتَسِمَةً وهيَ تنظُرُ إلى (وايت بيك). الطَّريقَةُ الَّتي سَتُضيءُ بِها عَيناها! كيفَ سَتَتَهَلَّلُ أساريرُها!

كانَتْ هُناكَ مُشكلَةٌ واحدَةٌ. كيفَ سَيتمَكَّنَ مِنَ الْتقاطِ صورٍ (لوايت بيك)؟ فكَّرَ أنَّهُ يَستطيعُ أخْذَ بعضِ صورِها مِنْ قاعِدَةِ البياناتِ، هذا مِنْ شأْنِهِ أنْ . . .

دونَ مُقدِّماتٍ، بدَأَتْ (مارينا) تضحَكُ. ليسَتْ ضَحِكَةً سَيِّئَةً، بَلْ ضَحِكَةً كَبيرَةً مَرِحَةً، ضَحِكَةً سَريعَةَ الانْتقالِ حتّى إنَّ (ريو) وَجَدَ نَفْسَهُ ابْتَسَمَ مِنْ دونِ أنْ يعرِفَ السَّبَبَ.

«لا بُدَّ أنَّكَ أكثَرُ إنْسانٍ مَحظوظٍ عَرفتَهُ يا (ريو).» قالَتْ

(مارينا) وابتسمَتْ ابْتسامَةً عَريضَةً جعلَتْهُ قادِرًا عَلى رؤيَةِ كُلِّ أسنانِها تقريبًا.

أجابَها «أنا؟ مَحظوظٌ؟ لِماذا؟»

«ألا تَرى؟» تَساءلَتْ وهِيَ ما تزالُ تضحَكُ، وتُشيرُ إلى الشّاشَةِ. «ألا تَرى أينَ هِيَ (وايت بيك)؟»

هَزَّ (ريو) رأسَهُ في حَيْرَةٍ.

«إنَّها هُنا!» قالَتْ (مارينا). «إنَّها عَلى وَشَكِ أنْ تَمُرَّ بِجانِبِ (أوشن باي) في غُضونِ أيّامٍ.»

«ماذا؟» سَألَها (ريو) بِنَفَسٍ مُتَقَطِّعٍ.

ضحكَتْ (مارينا) «أجَلْ، قدْ تَتَمكَّنُ مِنْ رُؤيَتِها بِعينَيْكَ!»



الفصلُ الخامسَ عشرَ

رِحْلَةٌ على مَتْنِ قارِبٍ

في صَباحِ اليومِ التّالي، وأثْناءَ تَناوُلِ وجبَةِ الإفْطارِ، قالَتِ (فران) «لا يُمكِنُكَ أنْ تقطَعَ كُلَّ هذِهِ المَسافةِ إلى (أوشن باي) ولا تذهَبَ في رِحْلَةٍ بَحْرِيَّةٍ على مَتْنِ قارِبٍ. انْظُرْ؟ حتّى قُرصانُ يُوافِقُني الرَّأيَ.»

كانَ القِطُّ مُستلقِيًا عَلى حِجْرِ (فران)، وأخَذَ يَموءُ في اسْتِحْسانٍ.

تنَهَّدَ (ريو) تَنهيدَةَ ارْتِياحٍ هِيَ الأطوَلُ في العالَمِ كُلِّهِ. كانَ يَخشى أنْ تجِدَ جَدَّتُهُ عُذْرًا ما لِترفُضَ ذَهابَهُ في الرِّحْلَةِ. في لندن، كانَتْ والِدَتُهُ تشعُرُ بِالقَلَقِ حِيالَ عُبورِهِ الشّارِعَ مِنْ أجْلِ شِراءِ نِصفِ لِترٍ مِنَ الحَليبِ، ناهيكَ عَنْ رُكوبِ المحيطِ الهائجِ.

لِكنَّهُ حَقًّا سيذهَبُ لِرؤيَةِ الحيتانِ الرَّماديَّةِ اليومَ. وليسَ أيُّ حيتانٍ، بِلْ إنَّهُ قدْ يَرى (وايت بيك)! (بيرش) في المُقابِلِ قَلَّلَ مِنَ احْتِماليَّةِ رؤيَةِ الحوتِ، لكِنَّ عُروقَ (ريو) كانَتْ ما تَزالُ نابِضَةً مُنتعِشَةً بِالحَماسِ.

لَمْ يَبُحْ (ريو) (لفران) بِشَأنِ احْتِماليَّةِ رُؤيَةِ حوتِ أُمِّهِ، وبِالتَّأكيدِ لَمْ يُخبِرْها بأيِّ شيءٍ عَنْ خُطَّتِهِ. فهوَ يعرِفُ كيفَ يفكِّرُ الرّاشِدونَ. إنَّهم يُفسِدونَ الأشْياءَ بِاستخدامِ المَنطِقِ، و(ريو) لَمْ يكُنْ بِحاجَةٍ إلى المَنطِقِ الآنَ. إنَّهُ بِحاجَةٍ إلى الأمَلِ فَقَطْ.

قالَتِ (فران) مُقاطِعَةً أفكارَهُ: «عَلى أيِّ حالٍ، آنَ الأوانُ لِتَفْعَلَ بَعضَ الأشياءِ الطَّبيعيَّةِ.»

رفَعَ (ريو) نَظَرَهُ إلَيْها في دَهْشَةٍ؛ فَالذَّهابُ إلى المَدرسَةِ أمْرٌ طَبيعِيٌّ. والاعْتِناءُ بِأُمِّهِ أمْرٌ طَبيعِيٌّ. لكِنَّ الذَّهابَ في رِحْلَةٍ بَحْريَّةٍ عَبْرَ المُحيطِ؟ هذا آخِرُ شيءٍ يُمكِنُ وَصفُهُ بأنَّهُ طَبيعيٌّ!

أَمْسَكَتِ (فران) بِمفاتيحِ سَيّارَتِها، وقالَتْ «عَليكَ فقَطْ أنْ تَحرِصَ عَلى ارْتِداءِ سُتْرَةِ النَّجاةِ طيلَةَ الوَقْتِ، وَلا تَقتَرِبْ كَثيرًا مِنْ حافَّةِ القارِبِ، وَبِالتَّأكيدِ إيّاكَ أنْ تَميلَ فوقَ الماءِ، أَوْ تَفعَلَ أيَّ شيءٍ مِنَ الأشياءِ الحَمقاءِ الَّتي يفعَلُها الصِّغارُ عادَةً.»

كانَ بِإمكانِ (ريو) أنْ يؤَكِّدَ لَها أَنَّهُ لَنْ يفعلَ شَيئًا مِنْ هذا القَبيلِ، لكِنْ قَبلَ أنْ يتمَكَّنَ مِنْ قولِ أيِّ شَيءٍ، كانَتْ قَدْ دَفَعَتْهُ إلى خارِجِ البابِ، وصارا في طَريقِهِما إلى الميناءِ. في المَرْفَأِ وَجَدا (بيرش) يَتحدَّثُ مَعَ زَوجينِ شابَّينِ عَلى الرَّصيفِ الخَشبِيِّ.

هتفَتِ (فران) (لبيرش) «مَرْحَبًا!»

ظهرَتْ (مارينا) مِنْ عَلى سَطحِ القارِبِ، وشَعْرُها يَتطايَرُ ثائِرًا بِفِعْلِ الهَواءِ «لَمْ أتوَقَّعْ أنْ تَأتِيَ!» في البِدايَةِ ظَنَّ (ريو) أنَّها تَتَحَدَّثُ إليهِ، لكِنَّهُ بعدَ ذلكَ أدرَكَ أنَّها كانَتْ في الحَقيقَةِ تَتحدَّثُ إلى جَدَّتِهِ (فران). «ماذا؟ مَهْلًا، السَّيِّدَةُ (جيلبرت) جَدَّتُكَ؟»

وضعَتِ (فران) يَدَها عَلى كَتِفِ (ريو) باحْتِواءٍ «مرحبًا يا (مارينا)، نَعمْ هذا حَفيدي (ريو).»

شَهَقَ (ريو) «أَنْتُما الاثْنَتانِ تَعرِفانِ بَعضَكُما بعضًا؟»

لَمْ يَبْدُ أَنَّهُما تَعرفانِ بعضَهُما فَحَسْبُ، بَلْ بَدا مِنْ حَرارَةِ

التِّرْحابِ أنَّهُما صَديقَتانِ. بِالطَّبْعِ، كانَتْ (أوشن باي) صغيرَةً بِالمقارَنَةِ مَعَ لندن، لكِنَّهُ ما كانَ لِيُخَمِّنَ أبَدًا أنَّ فَتاةً مِثْلَ (مارينا) يُمكِنُ أنْ تكونَ صَديقَةً لِجَدَّتِه.

وضَّحَتْ لَهُ (مارينا): «السَّيِّدَةُ (جيلبرت) كانَتْ معلِّمَتي، وبِفضْلِها نَجحْتُ في امْتحاناتِ مادَّةِ العُلومِ في العامِ الماضي.»

«لا تُبالِغي.» قالَتِ (فران) بِصوْتٍ غَليظٍ.

قبلَ أنْ يتمكَّنَ (ريو) مِنْ توجيهِ سُؤالٍ لِأيٍّ مِنهُما، قفزَتْ (مارينا) إلى الرَّصيفِ الخَشبِيِّ، وبدأَتْ تتحَدَّثُ مَعَ جَدَّتِه. راقَبَهُما في دَهشَةٍ. فَفي حضورِ (مارينا)، كانَتْ جَدَّتُهُ مِثْلَ صورَةٍ فوتوغرافِيَّةٍ جَرى لِلتَّوِّ تَحسينُها بِألْوانٍ زاهِيَةٍ مُضيئَةٍ. حتَّى إنَّها صارَتْ تَضحَكُ الآنَ! ليسَتْ مُجَرَّدَ ضَحْكَةٍ مُهذَّبَةٍ، بَلْ ضَحْكَةٍ اهْتَزَّتْ جَدَّتُهُ بِفِعْلِها عَلى ما قالَتْهُ (مارينا) لَها. وفي هذِهِ اللَّحظَةِ شَعَرَ (ريو) بالذَّنْبِ؛ لأنَّهُ لَمْ يتوَقَّفْ لِيُفَكِّرَ قَطُّ بِاحْتِمالِ أنْ يكونَ لِجَدَّتِهِ جانِبٌ مُختلِفٌ.

«لقَدْ جِئْتُما إذَنْ.» قالَ (بيرش) حينَ ظَهَرَ إلى جوارِهِما بِابتِسامَةِ تَرحيبٍ دافِئَةٍ.

«أنا واثِقَةٌ مِنْ أنَّك سَتَعتَني بِهِ جَيِّدًا.» قالَتِ (فران) (لبيرش) وهِيَ تَشُدُّ عَلى كَتِفَي (ريو) بِقوَّةٍ.

«أنتِ تَعرفينَ جَيِّدًا أنَّ (سباي هوبر) لَدَيْها أفضَلُ سِجِلٍّ أمانٍ في (أوشن باي).» قالَ (بيرش) بِيَقينٍ.

أوْمَأَتِ (فران). «لَمْ أكُنْ لِأَتْرُكَهُ يَذهَبَ مَعَ أيِّ شخصٍ آخَرَ.»

«تَعالي مَعَنا إنْ كُنْتِ تَرغَبينَ في هذا؟» قالَ (ريو) بِتِلْقائِيَّةٍ وهُوَ يَتطَلَّعُ نَحوَها. «أعْني إنْ كانَ هُناكَ مَكانٌ شاغِرٌ؟»

بَدَتِ (فران) مُتَفاجِئَةً، وإنْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ ساطِعَةً بِشِدَّةٍ، لَأَقْسَمَ (ريو) أنَّ وجهَها احْمَرَّ أيضًا. «شُكرًا لَكَ يا (ريو) لكِنْ . . . لكِنَّ الرِّحلاتِ البَحْرِيَّةَ لا تُناسِبُني. ليسَ لأنّي لا أُريدُ ذلكَ. لكِنْ أنا وَرحلاتُ القَواربِ لَمْ نكُنْ قطُّ أفضَلَ أصْدقاءَ.»

أوْمَأَ (ريو)، وهُوَ لَيسَ مُتأكِّدًا إنْ كانَ يُحِسُّ بِالارْتياحِ أمْ لا.

ابتسمَتْ لَهُ (فران) بِارْتِباكٍ «حَسَنًا، اعْتَنِ بِنَفْسِكَ، واسْتَمتِعْ بِوقْتِكَ.»

أرْشَدَ (بيرش) الزَّوجَيْنِ الشّابَّيْنِ و(ريو) نَحْوَ مَتْنِ القارِبِ حيثُ كانَ بِانتِظارِهِمْ حَشْدٌ صَغيرٌ مِنَ السُّيّاحِ المُتَحَمِّسينَ. ارْتَدى (بيرش) قَميصًا أسْوَدَ قَصيرَ الأكْمامِ، حيكَ علَيهِ في الأمامِ كِتابَةٌ فِضِّيَّةٌ تَقولُ: *(سباي هوبر) لِرِحْلاتِ مُراقَبَةِ*

الحيتانِ فَوْقَ صورَةٍ لِحوتٍ رَمادِيٍّ. حينَ قَفَزَتْ (مارينا) إلى سَطحِ القارِبِ لاحَظَ (ريو) أنَّها ارْتَدَتْ نَفْسَ القَميصِ تحتَ مِشْمَلِها الأَحْمَرِ.

مِنْ بَينِ السُّيّاحِ كانَ هُناكَ زَوجانِ شابّانِ قادِمانِ مِنْ فيلادلفيا، وعالِمَةُ أحْياءٍ مُتدرِّبَةٌ تُدْعى (فيرناندا) قادِمَةٌ مِنْ حُدودِ المَكسيكِ الشَّماليَّةِ، وتَوْأَمانِ قَدِما كُلَّ هذهِ المَسافَةِ مِنْ فِنْلَنْدا. جَلَسَ (بيرش) أمامَ الدَّفَّةِ بينَما جَلَسَ الآخَرونَ عَلى المَقاعِدِ وهُمْ يُثَرْثِرونَ بِحَماسٍ.

كانَ (ريو) عَلى وَشَكِ أنْ يجلِسَ في مَكانٍ آمِنٍ في مُنْتَصَفِ القارِبِ عندَما أشارَتْ إلَيهِ (مارينا) عَلى الفَوْرِ أنْ يقتَرِبَ مِنَ (القَوسِ)، في مُقَدِّمَةِ القارِبِ المُدَبَّبَةِ.

«إنَّهُ أفْضَلُ مَكانٍ لِلمُراقَبَةِ.» قالَتْ بِحَماسٍ، ثُمَّ طَلَبَتْ إليهِ أنْ يَستَلْقِيَ عَلى بطنِهِ، وأنْ يُطِلَّ بِرأسِهِ مِنْ عَلى حافَّةِ القارِبِ. «هذا يَعْني أنَّنا أوَّلُ مَنْ سَيَرى أيَّ شَيءٍ.»

كانَتْ مُقدِّمَةُ القارِبِ (القَوسُ) أفْضَلَ مَكانٍ لِلمُراقَبَةِ بِالفِعْلِ، لكِنَّ (ريو) بَلَعَ ريقَهُ في تَوَتُّرٍ، خاصَّةً حينَ انْدَفَعَ القارِبُ مُبتَعِدًا عَنِ المَرْسى. لَمْ يكُنْ أمْهَرَ سَبّاحٍ، وكانَ يكْرَهُ السِّباحَةَ في العُمْقِ الَّذي يَتجاوَزُ طولَهُ في مَسْبَحِ الحَيِّ.

ورغْمَ أنَّ (مارينا) أكّدَتْ لَهُ أنَّ (سباي هوبر) آمِنَةٌ تَمامًا، فإنَّهُ لَمْ يَستَطِعْ مَنْعَ نفْسِهِ مِنَ الإحْساسِ بالقَلَقِ. ماذا لَوِ انْقَلَبَ القارِبُ أو غَرِقَ أو ضاعَ في عُرْضِ البحرِ؟ لِحُسْنِ الحَظِّ، كانَ قَدْ تَرَكَ رَسْمَةَ (وايت بيك) مَحفوظَةً بِأمانٍ في البيتِ.

لكِنْ فاتَ أوانُ التَّراجُعِ الآنَ. (فسباي هوبر) كانَتْ قدْ تحرَّكَتْ بِثَباتٍ تحتَ ظِلِّ المَنارَةِ الطَّويلِ، وسارَتْ بِمُحاذاةِ جِدارِ المَرْفَأِ، قَبْلَ أنْ تُصبِحَ وَجْهًا لِوَجْهٍ مَعَ المِياهِ المَفتوحَةِ أخيرًا. هُنا صارَتِ الأمْواجُ أكْثَرَ تقلُّبًا، وأكثَرَ ارْتِفاعًا، ومِنْ آنٍ لِآخَرَ تَصْفَعُ مُقدِّمَةَ القارِبِ مَوْجَةٌ أوْ اثْنَتانِ. دارَتْ مَعِدَةُ (ريو).

تَشَبَّثَ بِسُتْرَةِ النَّجاةِ، وَحَدَّقَ نَحْوَ الأسْفَلِ، عَبْرَ سَطْحِ الأمْواجِ، إلى الأعْماقِ غَيْرِ المَرْئِيَّةِ. في البِدايَةِ لَمْ يَستَطِعْ أنْ يَرى أيَّ شيءٍ بِاسْتِثناءِ حَرَكَةِ الماءِ نفْسِهِ. هذا الشَّيءُ المُتَحَرِّكُ النّابِضُ بِالحَياةِ الَّذي دَفَعَ وَجَذَبَ جَسَدَ القارِبِ، وَرَشَقَ رَذاذَ الماءِ إلى الأعْلى نَحْوَ وَجْهِهِ. جَعَلَ مِلْحُ البَحْرِ جِلْدَهُ مَشدودًا، وقدْ آلَمَهُ مِرْفَقاهُ مِنَ الاتِّكاءِ عَلى الهَيكَلِ الخَشَبِيِّ الصَّلْبِ. أَحَسَّ أنَّهُ لَمْ يُغادِرِ المَرْفَأَ فَحَسْبُ، بَلْ دَخَلَ عالَمًا جَديدًا تَمامًا.

«أَلَيْسَ هذا رائعًا؟» صاحَتْ (مارينا) باتِّجاهِهِ.

كانَتْ عَيناهُ قَدِ الْتَهَبَتا، وعِندَما انْخَفَضَ القارِبُ انْقَلَبَتْ مَعِدَتُهُ مَرَّةً أُخْرى. لكِنَّهُ تَفاجَأَ تَمامًا حينَ سَمِعَ نَفْسَهُ يُوافِقُها هامِسًا «أَجَلْ.»

وَلِأَنَّ المُحيطَ كانَ هائِجًا، والرِّياحَ تَقذِفُ بِكَلماتِهِ بَعيدًا باتِّجاهِ البحرِ، وَلِأَنَّهُ شَعَرَ بِالصَّرْخَةِ تَصْعَدُ مِنْ مَكانٍ ما في أعْماقِهِ، صاحَ بِكُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ كَيانِهِ.

«**أَجَلْ!**»

حينَ تَرَكَتْ (سباي هوبر) الشّاطِئَ وَراءَها، أَحَسَّ (ريو) بِشيءٍ بِداخِلِهِ يَنْحَلُّ مِنْ عِقالِهِ. شيءٍ لَمْ يَكُنْ يَعرِفُ حَتّى إِنَّهُ كانَ مُقَيَّدًا بِهِ عَلى الإِطْلاقِ.



الفصلُ السّادسَ عشرَ

في عُرْضِ المُحيطِ

توَجَّهَتْ (سباي هوبر) إلى المِياهِ المَفتوحَةِ، ثُمَّ اسْتَدارَتْ جَنوبًا بِهدَفِ الالْتِفافِ والعَودَةِ إلى المَرْفَأِ في غُضونِ ساعَةٍ. شَعَرَ (ريو) بعَدَمِ الارْتِياحِ مِنَ الاتِّكاءِ عَلى مِرفَقيهِ، وبَدأَتْ رُكْبَتاهُ تُؤلِمانِهِ، لكنَّهُ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ ذلكَ، أبْقى عَينيهِ مُثَبَّتَتينِ عَلى الماءِ.

لَمْ يَمْضِ سوى دَقائقَ مَعدودَةٍ قَبْلَ أنْ يَرى سَمكَتَهُ الأولى،

كانَتْ فِضِّيَّةً زِئبَقِيَّةً وتلْمَعُ تحتَ سَطحِ الماءِ. ثُمَّ ظهرَتْ سَمَكَةٌ أخْرى، أكبرُ حَجمًا وتنطَلِقُ عَبْرَ الأمْواجِ مِثْلَ رُمْحٍ، وسَمَكَةٌ أخْرى رَشْرَشَتْ عَليهِ الماءَ حينَ قَفزتْ لِلحظَةٍ في الهَواءِ قَبْلَ أنْ تَعودَ غاطِسَةً بِسرعَةٍ إلى البَحرِ.

وَكَزَتْهُ (مارينا) في جَنْبِهِ، وأشارَتْ إلى طائرينِ بِمنقارَيْنِ كَبيرينِ يُحَلِّقانِ في السَّماءِ الزّرقاءِ. «البَجَعُ،» تَمْتَمَتْ وهِيَ تَبحَثُ في جُيوبِها عَنْ مِنْظارِها. «هَلْ تَرى كيفَ يَتدَلّى الجُزْءُ السُّفْلِيُّ مِنْ مِنْقارِها؟ هذا كيسُ حَلْقِها، إنّهُمْ يَستخدمونَهُ كَجَرّافَةٍ لِجَمْعِ السَّمَكِ. راقِبْها. أعْتقِدُ أنَّ واحِدَةً مِنْهُما عَلى وَشَكِ الغَوْصِ.»

أخرَجَ (ريو) المِنْظارَ الّذي أعْطَتْهُ إيّاهُ (مارينا)، بينَما أبْقى عَينَيهِ عَلى البَجَعَةِ، كانَتْ مَخلوقًا غَريبَ المَظْهَرِ مِنْ عُصورِ ما قَبْلَ التّاريخِ. لَقَدْ رَأى البَجَعَ في لندن مِنْ قَبْلُ، في مُتَنَزَّهِ (سانت جيمس)، لكنْ لَيسَ في المُحيطِ العَظيمِ. لَيسَ هكَذا. دارَ الطّائرُ مُحلِّقًا في السَّماءِ قَبْلَ أنْ يَغوصَ بِرأسِهِ فَجأةً في البحرِ مُطَرْطِشًا الماءَ، ثُمَّ ظَهَرَ مَرَّةً أخْرى مَعَ سَمَكَةٍ تَتَدَلّى مِنْ مِنْقارِهِ.

«المُحيطُ مَكانٌ صَعْبٌ،» قالَتْ (مارينا) كأنَّها شَعَرَتْ

بِالتَّعاطُفِ مَعَ السَّمَكَةِ. «بَلْ إِنَّهُ أَصعَبُ الأَماكِنِ عَلى الأَرضِ وأَكثَرُها خُطورَةً، لكنَّهُ أيضًا مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى أكثَرُ الأَماكِنِ المعُرَّضَةِ للخَطَرِ.»

اخْتَلَسَ (ريو) نظْرَةً جانبيَّةً ناحِيَتَها. كانَتْ مَعِدَتُهُ لا تَزالُ مُضطَرِبَةً، لكنَّ (مارينا) بَدَتْ وكأنَّها في بَيتِها تمامًا. كأنَّها حوريَّةُ بَحْرٍ نُحِتَتْ مِنْ خَشَبِ القارِبِ نَفْسِهِ، ووُلِدَتْ لِتَعيشَ في البحرِ. لَمْ يَشْعُرْ بِهذا القَدْرِ مِنَ الانْتِماءِ تِجاهَ أيِّ مَكانٍ مِنْ قَبْلُ.

«دولفين» صاحَتْ (فيرناندا) في حَماسٍ. «هناكَ!!!»

ظَهَرَ الدّولفينُ فَجأَةً كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ صُندوقٍ سِحرِيٍّ مُخَبَّأٍ تَحْتَ سَطْحِ البحرِ، جَسَدُهُ الرَّماديُّ الأَمْلَسُ يَتَقَوَّسُ خارِجًا مِنَ الأمواجِ قَبْلَ أَنْ يَغوصَ مِنْ جَديدٍ.

«دولفينٌ قاروريُّ الأنْفِ!» صاحَتْ (مارينا) وهِيَ تَستقيمُ واقِفَةً. «هَلْ تَرى شَكْلَ الأَنْفِ المُدَبَّبِ؟»

«هناكَ كثيرٌ مِنْها!» صاحَ (ريو). فجأَةً صارَ الماءُ حَيًّا بِالدّلافينِ، تَتلَوّى وَترقُصُ وتقفِزُ في كُلِّ اتِّجاهٍ.

«إنَّها تريدُ أنْ تلعَبَ.» صاحَ (بيرش). ثُمَّ زادَ مِنْ سُرعَةِ المُحرِّكِ، فانْدفَعَ القارِبُ للأمامِ.

«انْظُرْ إلى الأسْفَلِ.» قالَتْ (مارينا).

تحتَ سَطْحِ الماءِ مُباشَرَةً، كانَ هُناكَ أربعَةُ دَلافينَ تَسبَحُ جنبًا إلى جَنْبٍ مَعَ (سباي هوبر)، وهِيَ تُواكِبُ سُرعَةَ القارِبِ بِلا عَناءٍ.



انفجَرَتْ ضَحِكاتُ (ريو). كُلَّما أسرَعَ القارِبُ، سابَقَتْهُ الدُّلافينُ وهِيَ تقفِزُ بِمَرَحٍ عَبْرَ الماءِ بِجانِبِ مُقدِّمَتِهِ تَمامًا. لَمْ يكُنْ هناكَ أيُّ كَلماتٍ، فقَطْ هذا الإحْساسُ العَجيبُ المُندَفِعُ في عُروقِهِ مِثْلُ السِّحْرِ.



كانَ أفضَلَ مِنْ أيِّ قِطارِ مَلاهي، أفضَلَ حَتّى مِنَ الوقْتِ الّذي اصْطَحَبَتْهُ فيهِ أُمُّهُ إلى المِهْرَجانِ. كانَ كُلُّ هذا وأكْثَر. صَرَخَتْ (مارينا) صَرْخَةً عالِيَةً، والبَهجَةُ الخالِصَةُ مَرسومَةٌ عَلى كُلِّ جُزْءٍ مِنْ وَجْهِها. ذلكَ النَّوعُ مِنَ البَهجَةِ الّذي لَمْ يشعُرْ بِهِ (ريو) منذُ وَقْتٍ طَويلٍ. ورُبّما توقَّعَ ألّا يَشعُرَ بِهِ مَرَّةً أخْرى، لكِنْ هُنا، اسْتَطاعَ هذا الشُّعورُ أنْ يَغْمُرَهُ، ويَسْري في عُروقِهِ مِثْلَ الكَهرَباءِ.

اخْتَفَتِ الدَّلافينُ بِنَفْسِ السُّرعَةِ الّتي ظهَرَتْ بِها، فَتَباطَأَ القارِبُ إلى سُرعَتِهِ الطَّبيعِيّةِ قَبْلَ أنْ يُطفِئَ (بيرش) المُحرِّكَ تَمامًا. اسْتَقامَ (ريو) جالِسًا وهُوَ يَفْرُكُ مِرْفَقَيهِ. مِنْ وَرائِهِمْ كانَ السّاحِلُ غَيْرَ واضِحٍ ولا يُمكِنُ تَمييزُهُ. بِالكادِ بَدا حَقيقيًّا.

في غِيابِ ضَجيجِ المُحرِّكِ كانَ صَوتُ ارْتِطامِ الأمْواجِ بِهيكَلِ القارِبِ أعْلى بِكَثيرٍ. صوتٌ ثابِتٌ لِارْتِطاماتٍ تِلْوَ ارْتِطاماتٍ.

لَمْ يتحَدَّثْ أيُّ أَحَدٍ عَلى القارِبِ. هذا لا يَعْني أنَّ الصَّمْتَ كانَ مُخَيِّمًا. فقدْ هَيْمَنَ صوتُ التَّرَقُّبِ. ذلِكَ الصَّوتُ الّذي يَصْدُرُ عَنِ الجُمهورِ قَبْلَ بَدْءِ الحَفلَةِ الموسيقِيَّةِ. شيءٌ خافِقٌ وَحَيٌّ.

«نحنُ نبحَثُ عَنِ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ الآنَ،» هَمَسَتْ (مارينا).

«هذِهِ هِيَ البُقْعَةُ الّتي نَراها فيها عادَةً، فَقَطْ أَبْقِ عَينيكَ مَفتوحَتينِ، قَدْ تكونُ في أيِّ مَكانٍ.»

هذا ما كانَ يَنتظِرُهُ. لَمْ تكُنْ هُناكَ أيُّ ضَماناتٍ بأنَّهُمْ سَيَرَوْنَ (وايت بيك)، لكنَّ قَلْبَ (ريو) خَفَقَ بِسرعَةٍ، وأحَسَّ فَجأةً بِرغبَةٍ عارمَةٍ في أنْ تكونَ أُمُّهُ معَهُ هُنا. رَغبَةٍ شَديدَةِ الإلْحاحِ حتّى إنَّهُ تَشَبَّثَ بِجانِبِ القارِبِ لِيحفَظَ تَوازُنَهُ. قَدْ لا تكونُ أُمُّهُ هُنا، لكنَّهُ هُنا الآنَ. وسيكونُ عَيْنَيْها.

«إلى مَتى سَننتظِرُ؟» ردَّ عَليها (ريو) هامِسًا. لَمْ يكُنْ مُتأكِّدًا مِنْ سَبَبِ تَهامُسِهما، لكنَّهُ أحَسَّ أنَّ الأصواتَ العاليَةَ لا تَنْتَمي لِلمحيطِ.

«لا يوجَدُ طَريقَةٌ لِمَعرِفَةِ هذا،» تمْتَمَتْ (مارينا): «عَلَينا فقَطْ أنْ نَتَحَلّى بِالصَّبْرِ.»

أخْرَجَ الزَّوجانِ القادِمانِ مِنْ فيلادلفيا أكبَرَ كاميرا رَآها (ريو) في حَياتِهِ، وكانا مَشغولَيْنِ بِتصويرِ الأُفُقِ بِسلسِلَةٍ مِنَ النَّقراتِ السَّريعَةِ. كانَ التَّوأمانِ و(فيرناندا) عَلى الجانِبِ الآخرِ مِنَ القارِبِ، مُتَّكئينَ عَلى الحافَّةِ، ويحدِّقونَ إلى الأفقِ بِتعابيرَ مُشرقَةٍ مُفعَمَةٍ بِالأمَلِ، ووجوهٍ تَقَشَّرَتْ بِفِعْلِ الرّيحِ. كان (بيرش) قدْ خَرَجَ بِالقارِبِ مِئاتِ أو ربّما آلافِ المَرّاتِ مِنْ

قَبْلُ، لكِنَّ التَّعبيرَ المُرتَسِمَ عَلى وجهِهِ كانَ أيضًا مَليئًا بِالانْبِهارِ.

تَساءَلَ (ريو) إنْ كانَ يَبدو هكَذا أيضًا. كأنَّ وُجودَهُ هُنا قَدْ نَزَعَ عنهُ شَيئًا مِنْ جَوهَرِهِ المادِّيِّ.

سألَ أحَدُ التَّوأمَينِ: «لِماذا توقَّفْنا؟»

«لَقدْ أطْفأْنا المُحرِّكَ؛ لأنَّنا لا نَرغَبُ بِأنْ نُخيفَ الحيتانَ،» شَرَحَ (بيرش) للجَميعِ. «إنْ رَأيْنا حوتًا فَسَنَسْمَحُ لَهُ حينَها بِالاقْتِرابِ مِنّا، وليسَ العَكْسُ؛ فالمُحيطُ عالَمُهُم هُمْ، ومِنَ المُهِمِّ أنْ نتذَكَّرَ دومًا أنَّنا فقطْ ضيوفٌ فيهِ.»

واصلَتِ الأمْواجُ صَفْعَ هيكَلِ القارِبِ الَّذي بَدا وكأنَّهُ يَنتظِرُ الحيتانَ هُوَ الآخَرُ.

قالَتْ (مارينا) بِصوتٍ خافِتٍ: «نحنُ نبحَثُ عَنْ نَوافيرِ المِياهِ الَّتي تُطلِقُها الحيتانُ أثْناءَ تَنَفُّسِها. هذِهِ أسهَلُ طَريقَةٍ للتَّنَبُّهِ لَها. هلْ تذكُرُ حينَ قُلْتُ لَكَ إنَّ كُلَّ الحيتانِ تَصعَدُ إلى السَّطْحِ لِكي تَتَنفَّسَ مِنْ خِلالِ فَتحاتِ التَّنَفُّسِ؟»

بَينَما (مارينا) تُخرِجُ دَفتَرَها مِنْ جيبِها لِتُسَجِّلَ أيَّ حيتانٍ رَمادِيَّةٍ قَدْ يَرَوْنَها، نَظَرَ (ريو) مِنْ خِلالِ مِنْظارِهِ. كانَ مِنْظارًا صَغيرًا لكِنَّهُ قَويٌّ، ويجعَلُهُ يَرى مَسافاتٍ بَعيدَةً بِوُضوحٍ

مُذهِلٍ. ما بَدا لَهُ مِثْلَ نِقاطٍ بَيضاءَ بِعينَيْهِ المُجَرَّدَتينِ، تَحوَّلَ إلى بَجَعاتٍ تَستريحُ عَلى سطحِ المُحيطِ. بَعيدًا في عُمْقِ البحرِ اسْتَطاعَ رُؤيَةَ الخُطوطِ العَريضَةِ لِسفينَةٍ شِراعيَّةٍ، وَطيورِ نَوْرَسٍ جائِعَةٍ تُحلِّقُ في دَوائِرَ فَوقَها.

لكِنْ ما لَمْ يَرَهُ كانَ . . .

«حوتًا!»



الفصلُ السّابعَ عشرَ

قَوْسُ قُزَحَ على شَكْلِ قَلْبٍ

«هُناكَ!» صاحَتْ (مارينا) في حَماسٍ وهِيَ تُشيرُ بِيَدِها ناحِيَةَ الأُفُقِ. كادَ المِنْظارُ يَسقُطُ مِنْ يَدي (ريو) حينَ انْدَفَعَ الجَميعُ لِرُؤيَةِ الحوتِ، مُلْقينَ بِأَجْسادِهِمْ نَحْوَ حافَّةِ القارِبِ. تمايَلَ القارِبُ (سباي هوبر) وتَأَرْجَحَ تَحتَ وَطْأَةِ ثِقَلِهِمْ.

أَمْسَكَتْ (مارينا) بِيَدِ (ريو) الحامِلَةِ المِنظارَ، وأعادَتْ تَوجيهَها؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ النَّظَرِ في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ. «هلْ تَرى

الآنَ؟ عِنْدَ السَّاعَةِ الخامِسَةِ. حوتٌ رَماديٌّ!»

اتَّسَعَتْ عَيْنا (ريو) لأنَّ الحوتَ كانَ هُناكَ. عَلى مَسافَةِ أَقَلَّ حتَّى مِنْ خَمسينَ مِترًا. كانَتْ نافورَةُ الماءِ تَندَفِعُ بِشَكْلٍ مُذْهِلٍ مِنْ سَطْحِ المُحيطِ كَشَلّالٍ مَقْلوبٍ.

إنَّهُ نَفَسُ حوتٍ.

مِنْ عَلى الشَّاطِئِ، كانَ مِنَ المُسْتَحيلِ سَماعُ حوتٍ وَهُوَ يَتَنَفَّسُ. لكِنْ هُنا، وقَدْ صَمَتَ المُحَرِّكُ، تَرَدَّدَ صوتُ انْدِفاعِ الماءِ القَوِيِّ، وَجَعَلَ القَشْعَريرَةَ تَسْري في عَمودِهِ الفِقْرِيِّ حَتّى نِهايَتِه.

لكِنْ لَمْ يَكُنْ صَوتُ نَفَسِهِ هُوَ أكثَرُ شَيءٍ خارِقٍ.

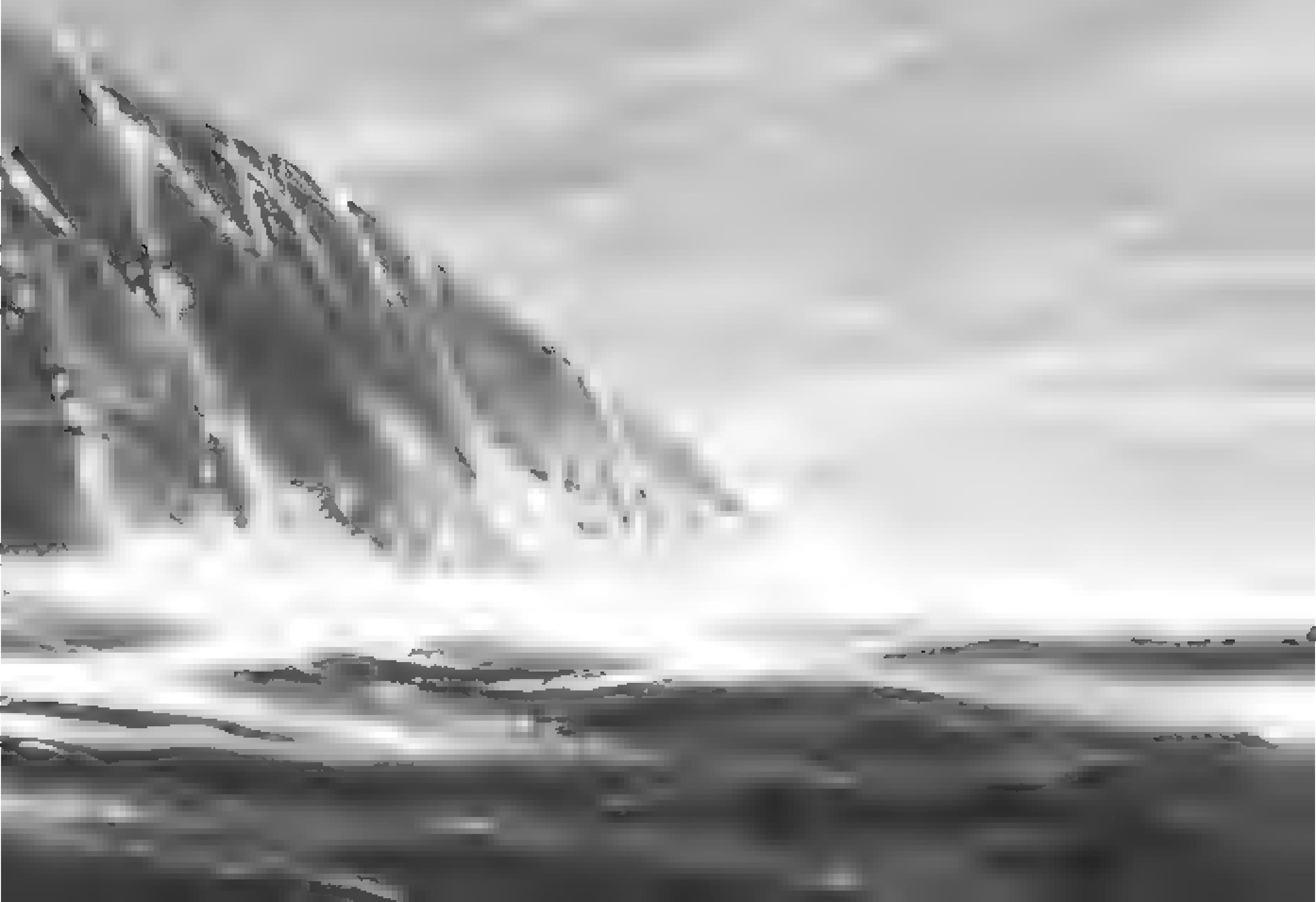
بَلْ كانَ شَكْلُهُ.

لَمْ يَنْدَفِعِ النَّفَسُ إلى أعْلى في خَطٍّ عَموديٍّ مِنْ زَفيرِ الماءِ، بَلْ كانَ عَلى شَكْلِ قَلْبٍ.

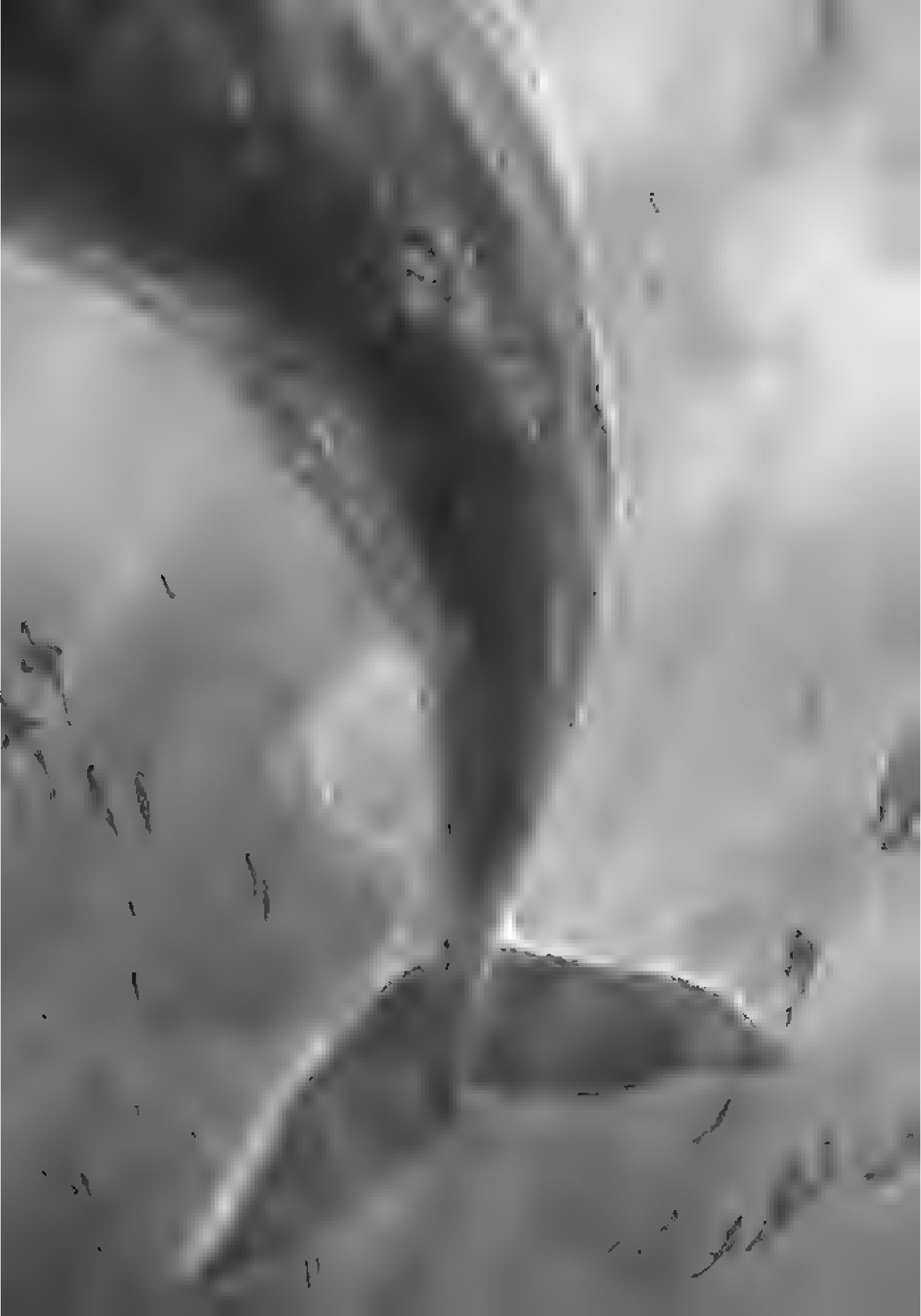
«كيفَ تَفعَلُ الحيتانُ هذا؟» الْتَفَتَ (ريو) إلى (مارينا) في ذُهولٍ.

«لِأنَّهُمْ يَمْتَلِكونَ فَتْحَتي تَنَفُّسٍ عَلى عَكْسِ كَثيرٍ مِنَ الحيتانِ الأُخْرى الَّتي تَمْتَلِكُ فَتْحَةَ تَنَفُّسٍ واحِدَةً فَقَطْ،» شَرَحَتْ لَهُ (مارينا) مُقَرِّبَةً يَدَيْها مِنْ بَعْضِهِما لِلتَّوضيحِ.

«عِنْدَما تَتَنَفَّسُ الحيتانُ، تَندَفِعُ نافورَتانِ مِنَ الماءِ، وَتَلْتَقِيانِ في الأعْلى هكَذا، فَتَبْدو وَكَأَنَّ الحيتانَ تُطْلِقُ أَنْفاسًا مِنَ القُلوبِ.»







"قلب مصنوع من الطبيعة" تمتم (ريو)، عائدًا بذاكرته إلى الحصى التي على شكل قلب والتي اعتادت أمه جمعها أيضًا... يوم

الْتَفَتَ نَحْوَ الماءِ مَرَّةً أُخْرى، وانْتَظَرَ خُروجَ الحوتِ في تَرَقُّبٍ صامِتٍ.

«سَيَطْفو إلى السَّطْحِ في أيِّ لَحظَةٍ الآنَ،» قالَتْ (مارينا) بِهدوءٍ: «وهذِهِ المَرَّةُ انْظُرْ إلى القَلْبِ بِإمعانٍ.»

ثَبَّتَ (ريو) نَظَرَهُ على البُقْعَةِ الَّتي كانَ الحوتُ تَحْتَها. كانَ الضَّوءُ المُنْعَكِسُ عَلى الماء ساطِعًا لِلغايَةِ، حَتّى إنَّهُ كانَ يَتَمَوَّجُ عالِيًّا في ضَبابٍ أزرَقَ لامِعٍ. حينَ بَدَأَ (ريو) يَشْعُرُ بِالألَمِ في مِرفَقَيْهِ، ولَمْ يَعُدْ بِمَقْدورِهِ البَقاءُ ثابِتًا في مَوْضِعِهِ لِدَقيقةٍ أخْرى، سَمِعَ الصَّوْتَ. صوتَ انْدِفاعِ الماءِ القَوِيِّ النّاتِجِ عَنْ تَنَفُّسِ الحوتِ مَرَّةً أُخْرى. هذِهِ المَرَّةَ كانَ أقْرَبَ لِلقارِبِ، قَريبًا للغايَةِ حَتّى إنَّ أَحَدَ رُكّابِ القارِبِ صاحَ.

مالَ (ريو) بِجِذْعِهِ إلى الأمامِ. لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنْ أنْ يَشْهَقَ. كانَ مَشْهَدُ تَنَفُّسِ الحوتِ وهُوَ يَسْتَحيلُ إلى شَكْلِ القَلْبِ أَجْمَلَ مَشْهَدٍ رآهُ في حياتِهِ عَلى الإطْلاقِ.

«قَوْسُ قُزَحٍ؟»

«لَيْسَ مُجَرَّدَ قَوْسِ قُزَحٍ،» هَمَسَتْ (مارينا). «بَلْ قَوْسِ قُزَحٍ عَلى شَكْلِ قَلْبٍ.»

تَلألأَ وَبَرَقَ كأنَّهُ قَلْبٌ مَصْنوعٌ مِنْ سِحْرٍ، *أفْضَلُ* أنْواعِ *السِّحْرِ*.

شَرَحَتْ لَهُ «إنَّهُ الزَّيْتُ الَّذي في أنْفاسِهِمْ حينَ يَعْكِسُ أشِعَّةَ الشَّمْسِ.»

تَعالى مِنْ حولِ (ريو) صَوْتُ نَقراتِ وَضَرَباتِ الكاميراتِ. لكِنَّهُ تَجَمَّدَ في مَكانِه. لَمْ يَسْتَطِعْ وَصْفَ الشُّعورِ الَّذي سَرى في جَسَدِهِ. لَمْ يَكُنْ مِثْلَ أيِّ شُعورٍ اخْتَبَرَهُ مِنْ قَبْلُ. لا يُشْبِهُ إطْلاقًا إحْساسَهُ حينَ يَكونُ في حَديقَةِ الحَيوانِ حَيثُ يَفْصِلُ بينَهُ وبَينَ الحَيواناتِ سورٌ أَوْ جِدارٌ. إنَّهُ هُنا في طَبيعَةٍ حَقيقيَّةٍ. طَبيعَةٍ نَقِيَّةٍ حُرَّةٍ وَبِكْرٍ.

وَمَضَتْ في عَقْلِه صورَةُ أُمِّهِ عَلى مَتْنِ القارِبِ. البَهْجَةُ عَلى وَجْهِها، واللَّمْعَةُ في عَيْنَيْها. لا عَجَبَ في هذا! كانَتْ هذِهِ هِيَ اللَّحْظَةُ بِالتَّحْديدِ الَّتي أدْرَكَ فيها (ريو) أخيرًا سَبَبَ حُبِّ أُمِّهِ الشَّديدِ لِلحيتانِ. فكيفَ لا يَقَعُ إنْسانٌ في حُبِّ مَخْلوقٍ يَصْنَعُ أقْواسَ قُزَحَ؟

قالَتْ (مارينا) «إنَّهُ يَسْبَحُ مُبْتَعِدًا، تَفَحَّصِ الذَّيلَ.»

ومِنْ خِلالِ المِنْظارِ، راقَبَ (ريو) الذَّيلَ وهُوَ يَضْرِبُ الماءَ مَرَّةً، ثُمَّ مَرَّتينِ، قَبْلَ أنْ يَغوصَ في الماءِ وَيَخْتَفيَ. حينَ اخْتَفى الحوتُ تَساءَلَ (ريو) في نَفْسِهِ إنْ كانَتْ هذِهِ (وايت بيك). كانَ مِنَ المُسْتَحيلِ عَليهِ مَعرِفَةُ ذلِكَ. في الحَقيقَةِ، حَدَثَ كُلُّ

شَيءٍ بِسرعَةٍ كَبيرَةٍ حتّى إنَّهُ لَمْ يَلتقِطْ أيَّ صُوَرٍ.

وبَينَما هُوَ يَلومُ نَفْسَهُ عَلى بُطْئِهِ الشَّديدِ، سَمِعَ (ريو) صَوْتًا.

لَمْ يَكُنْ صَوْتَ *ارْتِطامِ* الأمْواجِ أو نَقراتِ الكاميراتِ أوْ حَتّى صياحِ النّوارِسِ أو ثَرثَرَةِ البَشَرِ. بَلْ شَيءٍ مُختلِفٍ تمامًا. كانَ صَدًى يَتصاعَدُ مِنَ الأعْماقِ. دَمْدَمَةٌ غَريبَةٌ، صَوْتَ أَنينٍ لَمْ يَسْمَعْ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ.

«هذا الصَّوْتُ . . .»

«أيُّ صَوْتٍ؟» قالَتْ (مارينا) وهِيَ تَلْتَفِتُ نَحْوَهُ. «الماءُ المُرْتَطِمُ بِالقارِبِ؟»

«لا، لَيْسَ هذا. الصَّوْتُ الآخَرُ.»

«الصَّوْتُ *الآخَرُ*؟» بَدَتْ (مارينا) مُحْتارَةً. «هَلْ تَعْني المُحَرِّكَ؟»

هَزَّ (ريو) رأسَهُ نافِيًا، وحاوَلَ أنْ يُصْغِيَ السَّمْعَ. لكِنْ أيًّا كانَ هذا الصَّوْتُ فَقَدْ تَلاشى. اخْتَفى في أعْماقِ المُحيطِ. اسْتَلْقى (ريو) مَرَّةً أخْرى عَلى بَطْنِهِ وَمَرْجَحَ أصابِعَهُ فوقَ الماءِ. وَبينَما (مارينا) تَكْتُبُ شَيئًا في دَفْتَرِ مُلاحَظاتِها، شَعَرَ بِرَغْبَةٍ شَديدَةٍ في الاسْتِرْخاءِ. لَمْ يَشْعُرْ بِالحَرَجِ، أوِ الخَجَلِ أوِ

القَلَقِ أَوْ أَيٍّ مِنَ المَشاعِرِ الأُخْرى الَّتي تَنْتابُهُ عادَةً عَلى اليابِسَةِ. تَعَجَّبَ مِنْ ذلِكَ وَبَدا الشُّعورُ سَخيفًا حَتّى لِنَفْسِهِ، فهذِهِ كانَتْ أَوَّلَ رِحْلَةٍ بَحرِيَّةٍ لَهُ، لكِنَّهُ أَحَسَّ كأَنَّهُ في بَيتِه.

حَتّى وإنْ لَمْ يتَمَكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ (وايت بيك) اليومَ فإنَّ مَعرِفَتَهُ بأنَّها قَريبَةٌ لِلغايَةِ مَنَحَتْهُ إحْساسًا غريبًا بِالارْتِياحِ. كأنَّ أُمَّهُ مَعَهُ هُنا، وصارَ عَلى وَشَكِ سَماعِ صَوْتِها يَهمِسُ لَهُ عَبْرَ المُحيطِ.

عادَ الصَّوْتُ واضِحًا للغايَةِ حَتّى إنَّهُ اسْتقامَ جالِسًا. لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ أشْياءَ. يُمْكِنُهُ أنْ يَسْمَعَ شَيئًا. نَفْسُ صَوْتِ الصَّدى الَّذي سَمِعَهُ قَبْلَ لَحَظاتٍ. تَلَفَّتَ (ريو) مِنْ حَوْلِهِ. كانَتْ (مارينا) لا تَزالُ تُدَوِّنُ مُلاحَظاتِها عَنِ الحوتِ الَّذي رَأَوْهُ لِلتَّوِّ، بَينَما (بيرش) يَشْرَحُ سُلوكَ هِجْرَةِ الحيتانِ لِلآخَرينَ.

كانَ (ريو) وَحْدَهُ مَنْ رَآهُ.

مُخْتَبِئًا تحْتَ سَطْحِ الماءِ عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ أمْتارٍ تَقريبًا مِنْ مُقَدِّمَةِ القارِبِ.

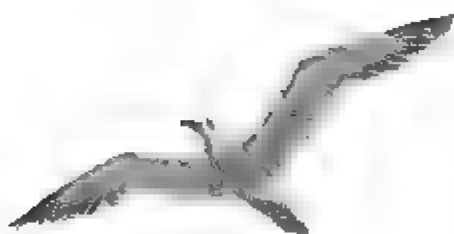
أَحَسَّ (ريو) بِجَسَدِهِ ساكِنًا، تَمامًا كَما فَعَلَتْ أُمُّهُ قَبْلَ أنْ تَعْزِفَ النَّغَماتِ الأولى عَلى (كَمانِها)، كَأَنَّها تَتَماهى مَعَ الآلَةِ الموسيقِيَّةِ بِطَريقَةٍ سِحْرِيَّةٍ غَيْرِ مَرْئِيَّةٍ. كأَنَّ هُناكَ تَيارًا خَفِيًّا

يَرْبِطُهُ بِالحوتِ، وَبِإِبْقاءِ نَفْسِهِ ساكِنًا، يَسْتَطيعُ، بِطَريقَةٍ ما، أَنْ يَصِلَ إِلَيهِ وَيَتَواصَلَ مَعَهُ.

فَجْأَةً دَفَعَ الحوتُ بِرأسِهِ خارِجَ المُحيطِ، كانَ قَريبًا لِلغايَةِ، وكانَ خُروجُهُ مُفاجِئًا لِلغايَةِ، حَتّى إِنَّ دَفتَرَ المُلاحَظاتِ سَقَطَ مِنْ يَدِ (مارينا). «يا الله!»

أَسْرَعَ الآخَرونَ نَحْوَ مُقَدِّمَةِ القارِبِ، وَسَمِعَ (ريو) مِنْ وَرائِهِ شَهَقاتِهِمْ وَصوتَ نَقَراتِ الكاميرا، لكِنَّهُ لَمْ يَسْتوعِبْ أَيًّا مِنْ هذا؛ لأَنَّ الحوتَ الماثِلَ أَمامَ عَيْنَيْهِ بَدا مَأْلوفًا لِلغايَةِ.

«وايت بيك!»



الفصلُ الثّامنَ عشرَ

وايت بيـك

كانَتْ (وايت بيك)، عِنْدَ رُؤيَتِها في الواقِعِ، كبيرَةً لِلْغايَةِ، وعَريضَةً لِلْغايَةِ، ومُثيرَةً لِلرَّهْبَةِ، حَتّى إنَّ (ريو) عَضَّ على لِسانِهِ، فامْتَلأَ فَمُهُ بِمَذاقِ الدَّمِ السّاخِنِ المَعدَنِيِّ. رُبَّما كانَ حَجْمُ رَأسِها وَحْدَهُ ثلاثَةَ أضْعافِ حَجْمِ (ريو)، وَمُؤَلَّفٌ مِنْ فَكٍّ عُلْوِيٍّ، وَفَكٍّ سُفْلِيٍّ ضَخْمَينِ. كانَ لَوْنُ جِلْدِها أُرْدُوازِيًّا داكِنًا، مَعَ بُقَعٍ بَيضاءَ وَرَمادِيَةٍ فاتِحَةٍ تُغَطّي أَنْفَها.

«إنَّها هِيَ!» صاحَتْ (ماريا) صَيْحَةَ انْتِصارٍ. «إنَّها وايت بيك!»

لَمْ يَتَمَكَّنْ (ريو) حَتّى مِنَ الرَّدِّ. بَدَلًا مِنْ هذا، اكْتَفى بِالتَّحْديقِ إلى الحوتِ بِاشْتِياقٍ خالِصٍ دونَ أَنْ تَرْمِشَ عَيناهُ. فَهذِهِ بِالتَّأكيدِ لَمْ تَكُنْ صُدْفَةً؟ بَلْ إشارَةً. إشارَةً واضِحَةً وُضوحَ الشَّمْسِ أَنَّهُ يَسيرُ في الدَّرْبِ الصَّحيحِ لِمُساعَدَةِ أُمِّهِ حَتّى تَتَعافى مِنْ جَديدٍ. إنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذلِكَ، فَلِمَ ظَهَرَتْ (وايت بيك) في هذِهِ اللَّحْظَةِ بِالتَّحديدِ؟

بِالكادِ بَقِيَ رَأْسُ الحوتِ خارِجَ الماءِ لِبِضْعِ ثَوانٍ فَقَطْ، لكِنْ بِالنِّسْبَةِ (لريو) فَقَدْ بَدا وَكأَنَّ الزَّمَنَ قَدْ تَوقَّفَ، فاسْتَطاعَ بِهذِهِ الطَّريقَةِ أَنْ يَمتلِكَ بِكُلِّ تَفاصيلِها حتّى أَدَقِّها: الخُطوطِ المُتَجَعِّدَةِ حَوْلَ عَينِها الوَحيدَةِ المَرئيَّةِ، مَحارِ البَرنقيلِ المُلتَصِقَةِ بِأَنْفِها عَلى شَكْلِ كُتَلٍ خَشِنَةٍ غَيْرِ مُستَوِيَةٍ، وَالأَشياءِ البَيضاءِ الشَّبَكِيَّةِ في فَمِها، الَّتي قالَتْ (مارينا) إنَّها تُسَمّى بالين[6].

لكِنَّ الحوتَ اخْتَفى لَحْظَتَها، وَبِالسُّرْعَةِ نَفْسِها الَّتي ظَهَرَ بِها.

«هَلْ رأَيْتَ؟» قالَتْ (مارينا) وهِيَ تَقْفِزُ في مَرَحٍ. «هَلْ رأَيْتَ الطَّريقَةَ الَّتي نَظَرَتْ بِها إلَيْنا؟»

أَوْمَأَ (ريو) مُوافِقًا، رُغْمَ أَنَّ نَظَرَهُ بَقِيَ مُعلَّقًا عَلى الماءِ، آمِلًا

فِي أَنْ تَصْعَدَ (وايت بيك) إلى السَّطْحِ مِنْ جَديدٍ؛ لِيَتَمَكَّنَ مِنَ الْتِقاطِ صُوَرٍ لَها. كانَ مُتَلَهِّفًا لِلَّحْظَةِ الَّتي سَتَرى فيها أُمُّهُ هذِهِ الصُّوَرَ، اللَّحْظَةِ الَّتي سَتَكْتَشِفُ فيها أَنَّ (ريو) عَثَرَ عَلى حوتِها. وعَلى عُجالَةٍ حاوَلَ إِخْراجَ هاتِفِهِ مِنْ جَيْبِهِ.

كانَ الآخَرونَ مُحْتَشِدينَ مِنْ وَرائِهِ، واقِفينَ عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ لِلْغايَةِ مِنْهُ، حَتّى إِنَّهُ كانَ قادِرًا عَلى شَمِّ رائِحَتِهِمْ. جَعَلَهُ هذا أَكْثَرَ ارْتِباكًا وهُوَ يُحاوِلُ إِخْراجَ هاتِفِهِ، لكِنَّهُ إِنْ تَحَرَّكَ لِلأَمامِ قَليلًا . . .

. . . لَمْ يَكُنْ واثِقًا مِمّا حَدَثَ بَعْدَ ذلِكَ.

بِاسْتِثْناءِ أَنَّ قَدَمَهُ تَعَثَّرَتْ عِنْدَ مُقَدِّمَةِ القارِبِ، وحينَ لَمْ يَكُنْ هُناكَ شَيءٌ لِيَتَشَبَّثَ بِهِ، فَقَدْ وَقَفَ (ريو) لِلَحْظَةٍ مُعَلَّقًا في الهَواءِ وَهُوَ يُلَوِّحُ بِذراعَيْهِ مِثْلَ الطّاحونَةِ.

الشَّيءُ التّالي الَّذي يَعْرِفُهُ هُوَ أَنَّهُ غَطَسَ في الماءِ البارِدِ بِصَوْتِ ارْتِطامٍ عالٍ جِدًّا وَطَرْطَشَةِ ماءٍ بارِدٍ جِدًّا.

وَرُغْمَ أَنَّ (ريو) كانَ يَرْتَدي سُتْرَةَ النَّجاةِ، فَإِنَّ جَسَدَهُ بِالكامِلِ، بِما في ذلِكَ رَأْسُهُ، غاصَ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ. كانَ الأَمْرُ مُفاجِئًا وَمُخيفًا جِدًّا، حتّى إِنَّ أَوَّلَ شَيءٍ فَعَلَهُ كانَ فَتْحَ فَمِهِ لِيَصْرُخَ طالِبًا النَّجْدَةَ. كانَ تَصَرُّفًا أَحْمَقَ؛ لِأَنَّ ماءَ البَحْرِ تَدَفَّقَ إلى الدّاخِلِ، فَراحَ يَبْصُقُ وَيَتَقَيَّأُ وَيَسْعُلُ. وفي الوَقْتِ الَّذي خَرَجَ فيهِ رَأْسُهُ إلى

سَطْحِ الماءِ، بَدا القارِبُ بَعيدًا بِشَكْلٍ مُخيفٍ. كُلُّ ما اسْتَطاعَ رُؤيَتَهُ هُوَ الهَيكَلُ الرَّماديُّ الأمْلَسُ لِلقارِبِ وَسَبْعَةُ وُجوهٍ شاحِبَةٍ تُطِلُّ مِنْ عَلى حافَّتِهِ.

«ريو!» صَرَخَتْ (مارينا). «ابْقَ مَكانَكَ وَلا تَتَوَتَّرْ!»

لا تَتَوَتَّرْ؟ لَقَدْ فاتَ الأوانُ عَلى هذا. أخَذَ (ريو) يُخَبِّطُ بِذِراعَيْهِ، وَيَضْرِبُ بِرِجْلَيْهِ في يَأْسٍ. لَمْ يَكُنْ قادِرًا حَتّى عَلى رُؤْيَةِ القاعِ، ناهيكَ عَنْ لَمْسِهِ. كانَ هُناكَ بِئْرٌ عَميقَةٌ وَشاسِعَةٌ مِنَ المِياهِ المُخيفَةِ المُظْلِمَةِ، وَالإِحْساسِ بِأنَّهُ بَعيدٌ تَمامَ البُعْدِ عَنْ بَرِّ الأمانِ.

«مارينا!» صَرَخَ (ريو) حينَ لَطَمَتْهُ مَوْجَةٌ أُخْرى. شَهَقَ مِنَ الصَّدْمَةِ. **«مارينا!»**

مالَ (بيرش) بِجِذْعِهِ مِنْ عَلى حافَّةِ القارِبِ، وَمَدَّ إلَيْهِ بِعَمودٍ طَويلٍ بِهِ خُطّافٌ في طَرَفِهِ. «ابْقَ هادِئًا يا (ريو). أمْسِكْ بِهذِهِ، وَسَأجْذِبُكَ إلى القارِبِ»

مَدَّ (ريو) ذِراعَهُ إلى أبْعَدِ حَدٍّ، وحاوَلَ أنْ يُمْسِكَ بِالخُطّافِ، كانَ عَلى وَشَكِ الإمْساكِ بِهِ عِنْدَما دَفَعَتْهُ مَوْجَةٌ بِقُوَّةٍ بَعيدًا. سَعَلَ وَبَصَقَ وَتَقَيَأَ. ثُمَّ حاوَلَ مَرَّةً أُخْرى. لكِنْ، رغْمَ مُحاوَلَتِهِ المُسْتَميتَةِ في الوُصولِ إلى العَمودِ، اسْتَمَرَّ التَّيّارُ يَدْفَعُهُ إلى الوَراءِ.

كانَتْ هذِهِ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتي تَذَكَّرَ فيها (ريو) أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحْدَهُ. كانَ هُناكَ أَيضًا حوتٌ رَمادِيٌّ، طولُهُ سِتَّةَ عَشَرَ مِترًا، مَعَهُ في الماءِ.

قالَتْ لَهُ (مارينا) إِنَّ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ لَيْسَتْ خَطيرَةً، وإِنَّها لَنْ تُؤْذِيَ إِنْسانًا عَنْ عَمْدٍ. لكِنْ مِنَ السَّهْلِ التَّفكيرُ بِهذِهِ الطَّريقَةِ حينَ تَنْظُرُ إِلَيْها مِنْ عَلى سَطْحِ قارِبٍ جافٍّ وآمِنٍ، وَلَيْسَ وأنتَ فِعْلِيًّا مَعَها في الماءِ، وكانَ لَها فَمٌ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ جِسْمِكَ.

وَبَيْنَما هُوَ عَلى وَشَكِ الدُّخولِ في نَوْبَةِ هَلَعٍ كامِلَةٍ، سَمِعَ (ريو) صَوْتَ الصَّدى الَّذي سَمِعَهُ مِنْ قَبْلُ، لكِنَّهُ في هذِهِ المَرَّةِ كانَ أَقْرَبَ بِكَثيرٍ. أَصْغى السَّمْعَ، بِالتَّأكيدِ لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ الصَّوتَ. بَدا الصَّوتُ عَميقًا ومُعْتِمًا كَصَوْتِ (جيتارٍ) كَهرَبائِيٍّ. سِلْسِلَةٌ مِنَ الدَّمْدَماتِ الخَفيضَةِ تَليها نَقْرَةٌ، ثُمَّ صَوْتٌ أَشْبَهُ بِقَرْعِ طُبولٍ، ثُمَّ نَقْرَةٌ أُخْرى. كانَتِ الطَّريقَةُ الوَحيدَةُ لِوَصْفِهِ هِيَ أَنَّهُ مِثْلُ مَوْجاتٍ صَوْتِيَّةٍ قادِمَةٍ مِنْ مَكانٍ ما تَحْتَ سَطْحِ الماءِ، تَتَحَرَّكُ صاعِدَةً عَبْرَ باطِنِ قَدَمَيْهِ.

لكِنْ مِنْ *أينَ يَأتي الصَّوتُ*؟

كانَ صَوتًا غَريبًا وغَيْرَ مُعْتادٍ، لكِنَّهُ لا يُنْذِرُ بِالخَطَرِ. شَعَرَ (ريو) بِالامْتِنانِ حينَ أَدْرَكَ ذلِكَ. كانَ الصَّوتُ عَلى نَحْوٍ ما مُطَمْئِنًا. مِثْلَ

حِكايَةٍ مِنْ حِكاياتِ ما قَبْلَ النَّوْمِ الَّتي اعْتادَتْ أُمُّهُ أنْ تَحْكِيَها لَهُ، عَنْ أراضٍ سِحْرِيَّةٍ بَعيدَةٍ، وَمَخْلوقاتٍ أُسْطورِيَّةٍ عَجيبَةٍ، وكانَتْ تُدْخِلُهُ في نومٍ عَميقٍ.

وأدْرَكَ (ريو) في أعْماقِ قَلْبِهِ أنَّهُ صَوْتُ (وايت بيك).

وكأنَّما لِتُوافِقَهُ الرَّأْيَ، أحَسَّ بِدَفْعَةٍ لَطيفَةٍ على ظَهْرِهِ.

كانَ أوَّلُ رَدِّ فِعْلٍ لَهُ، هُوَ أنَّهُ دارَ حَوْلَ نَفْسِهِ، لكِنَّ الالْتِفافَ في الماءِ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا، وكُلُّ ما فَعَلَهُ (ريو) في النِّهايَةِ هُوَ الانْقِلابُ عَلى وَجْهِهِ في الماءِ. شَهَقَ مِنْ أَجْلِ الهَواءِ، لكِنَّهُ ابْتَلَعَ المَزيدَ مِنْ مِياهِ البَحْرِ قَبْلَ أنْ يَتَمَكَّنَ أخيرًا مِنْ تَحْريكِ جَسَدِهِ في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ نَحْوَ الأعْلى.

كانَتْ قَريبَةً لِلْغايَةِ، حَتّى صارَ بِمَقْدورِهِ رُؤْيَةُ كُلِّ مَحارَةٍ مِنْ مَحاراتِ البَرنقيلِ المُلْتَصِقَةِ عَلى الجانِبِ الأيمنِ مِنْ وَجْهِها، والصِّبْغَةِ البَيضاءِ الَّتي غطَّتْ كُلَّ فَكِّها العُلْوِيِّ تَقريبًا، لكنَّها كانَتْ مُتَفَرِّقَةً حَوْلَ طَرَفِ الأنْفِ. وكانَ قادِرًا عَلى شَمِّ رائِحَةِ المُلوحَةِ وَالزَّيتِ والسَّمَكِ الَّتي عَلى جِلْدِها. كانَ مِنَ المُفْتَرَضِ أنْ يكونَ خائِفًا، لكنَّهُ بِطَريقَةٍ ما لَمْ يكُنْ كَذلِكَ.

«مَرْحبًا يا وايت بيك،» هَمَسَ نَحْوَها. «هذِهِ أنتِ، ألَيْسَ كذلِكَ؟»



أرادَ (ريو) أنْ يَمُدَّ يَدَهُ لِيَلْمِسَها، لكنَّهُ لَمْ يَجْرُؤْ عَلى هذا. كانَ هُناكَ شَيءٌ ثَمينٌ وَعزيزٌ حِيالَها يَجعَلُها جَديرَةً بِالاحْتِرامِ، مِثْلَ أغْلى (كمانٍ) تَمْتَلِكُهُ أُمُّهُ، (الكمانُ) الَّذي لا تَسْتَخْدِمُهُ إلّا في الحَفَلاتِ المُهِمَّةِ فَقَطْ، وَتُبْقيهِ مُغْلَقًا في حَقيبَتِهِ طيلَةَ الوَقْتِ حينَ لا تَسْتَخْدِمُهُ.

«أنتِ جَميلَةٌ.» تَمْتَمَ قائلًا بِصَوْتٍ مَبْحوحٍ.

ومِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ، امْتَلأَ صَدْرُهُ بِدَفْقَةٍ مِنَ المَشاعِرِ، قَوِيَّةٍ لِلْغايَةِ وَمُشْرِقَةٍ لِلْغايَةِ حَتّى إنَّهُ اضْطَرَّ لِأَنْ يُغْمِض عَينَيْهِ لِلَحْظَةٍ. حينَ فَتَحَهُما مَرَّةً أخْرى، كانَتْ (وايت بيك) أمامَهُ تَمامًا، تُحَدِّقُ إلَيْهِ بِطَريقَةٍ جَعَلَتْ قَلْبَهُ يَرْتَجِفُ. نَظْرَةً لَمْ يَفْهَمْ مَعْناها. مِنَ النّاحِيَةِ المَنْطِقيَّةِ عَلى الأقَلِّ. لكِنَّها كانَتْ نَفْسَ الطَّريقَةِ الَّتي اعْتادَتْ أُمُّهُ أنْ تَنْظُرَ بِها إلَيْهِ.

نَظْرَةً مَليئَةً بِالحُبِّ.

كانَ مِنَ المَفروضِ أنْ يَشْعُرَ بِالغَرابَةِ حِيالَ فِكْرَةٍ كَهذِهِ؛ الاعْتِقادُ بِأنَّ هذا الكَمَّ مِنَ الحُبِّ يُمْكِنُهُ أنْ يَأتِيَ مِنْ مَخْلوقٍ جامِحٍ مِثْلِها، خاصَّةً مِنْ مَخْلوقٍ أُسيئَتْ مُعامَلَتُهُ كَثيرًا مِنْ قِبَلِ البَشَرِ. لكِنَّهُ بِطَريقَةٍ ما لَمْ يَشْعُرْ بِالغَرابَةِ. في الحَقيقَةِ، شَعَرَ كأنَّ هذا الحُبَّ كانَ مَوجودًا دائمًا، وَسَيَظَلُّ مَوجودًا إلى الأَبَدِ.

كانَتْ هُناكَ رابِطَةٌ قَديمَةٌ بَينَهُما قِدَمَ الزَّمَنِ، وَعَميقَةٌ عُمْقَ المُحيطِ.

مِنَ الخَلْفِ، كانَ (ريو) بِاسْتِطاعَتِهِ سَماعُ نِداءاتٍ قادِمَةٍ مِنَ القارِبِ تَزْدادُ عُلُوًّا وَحِدَّةً. مَعَ الوَقْتِ صارَتْ ساقاهُ مُتْعَبَتانِ مِنَ الحَرَكَةِ في الماءِ، وَعَيْناهُ تَحْرِقانِهِ بِشِدَّةٍ حَتّى إِنَّهُ بِالكادِ اسْتَطاعَ الرُّؤْيَةَ، لكِنَّهُ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هذا، لَمْ يَرْغَبْ في الالْتِفافِ لِلعَوْدَةِ. لَيْسَ بَعْدُ.

«أنا . . . أنا . . .» أرادَ أَنْ يَقولَ شيئًا ما، لكِنَّهُ لَمْ يكُنْ مُتأكِّدًا مِمّا يُريدُ قَوْلَهُ. ما الَّذي يُمكِنُ أَنْ يقولَهُ لِمِثْلِ هذا المَخْلوقِ؟ نَظَرَتْ إِلَيهِ (وايت بيك) نَظْرَةً أخيرَةً، ثُمَّ بَدَأَتْ تَخْفِضُ رَأْسَها بِبُطْءٍ.

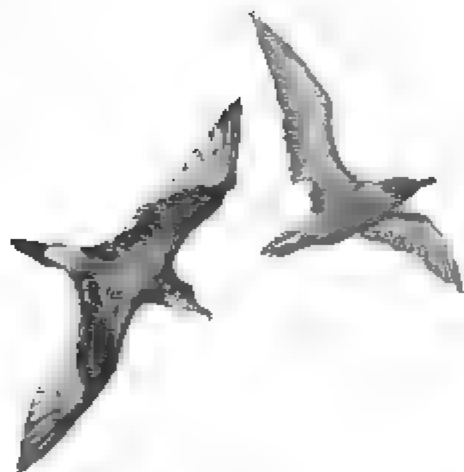
أَحَسَّ (ريو) بِجَسَدِهِ يُؤلِمُهُ مِنْ بَقائِهِ في الماءِ. مَدَّتْ (وايت بيك) أَنْفَها لِلأمامِ، وَضَغَطَتْ بِرِفْقٍ عَلى صَدْرِهِ، ثُمَّ وَكَزَتْهُ وَكَزاتٍ لَطيفَةً لِلْغايَةِ، ودَفَعَتْهُ ناحِيَةَ القارِبِ. طَوالَ الوقْتِ، بَقِيَتْ عَيْنا (ريو) ثابِتَتَيْنِ عَلى وَجْهِها، بَينَما غاصَتْ هِيَ بِبُطْءٍ، واخْتَفَتْ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ.

حينَ صارَ بِجانِبِ هَيكَلِ (سباي هوبر) مُباشَرَةً، مالَتْ (مارينا) بِجِذْعِها عَلى حافَّةِ القارِبِ وهِيَ تَصرُخُ فيهِ حَتّى

يُمْسِكَ بِالعَصا، لكنَّ (ريو) لَمْ يَتحَرَّكْ. بَقِيَ يُحَدِّقُ إلى تَمَوُّجاتِ الماءِ. إلى الدَّليلِ الوَحيدِ عَلى أنَّ (وايت بيك) كانَتْ هُنا، وتَساءَلَ مَعَ نَفْسِهِ: لِمَ فَجأَةً أَحَسَّ بِالوَحْدَةِ.

ثُمَّ، دونَ سابِقِ إنْذارٍ، انْتُشِلَ مِنَ المحيطِ، وَسُحِبَ مِنْ جانِبِ القارِبِ. حينَ صارَ عَلى سَطْحِهِ أخيرًا، راحَ يَسْعُلُ وَيبصُقُ ماءَ البَحْرِ الَّذي امْتَلَأَ بِهِ فَمُهُ. كانَتْ عَيناهُ تَحْرِقانِهِ، وَشَعَرَ بِجِلْدِهِ مُجَعَّدًا وَبارِدًا.

جَلَسَتْ (مارينا) إلى جِوارِهِ، وَقالَتْ: «عِنْدَما دَعَوْتُكَ في رِحْلَةٍ بحرِيَّةٍ لِمُراقَبَةِ الحيتانِ، لَمْ أَقْصِدْ أنْ تَغوصَ فِعْلِيًّا في الماءِ.»



الفصلُ التّاسعَ عشرَ

تَبْتَسِمُ

في اللّيلَةِ نَفْسِها، وبَعْدَ تَناوُلِ عَشاءٍ مُتَأَخِّرٍ، عَلّقَتْ (فران) قائلَةً: «أَتَعْرِفُ، هذِهِ هِيَ المَرّةُ الأولى الّتي أَراكَ فيها تَبْتَسِمُ فِعْلًا.»

تَلَمّسَ (ريو) طَرَفَيْ فَمِهِ بِأَصابِعِهِ. لَمْ يُدْرِكْ أَنّهُ كانَ يَبتَسِمُ، لكِنْ نَعَمْ. كانَتْ شَفَتاهُ مُنْحَنِيَتَيْنِ لِأَعْلى، وكانَ ذلِكَ أَمْرًا غَيْرَ مَألوفٍ، حتّى إِنّهُ أَنْزَلَ يَدَيْهِ مِنَ الصّدْمَةِ.

تابَعَتْ جَدَّتُهُ: «الحوتُ الرَّمادِيُّ، بِبساطَةٍ شَديدةٍ، واحِدٌ مِنْ أعظمِ المَخلوقاتِ عَلى وَجْهِ الأرضِ. وَمِثْلُ كُلِّ الحَيواناتِ الَّتي تَعيشُ في الطَّبيعَةِ، فإنَّهُ يَمْتَلِكُ القُدْرَةَ عَلى أنْ يَتَجاوَزَ كُلَّ شَيءٍ تَقريبًا.»

لَمْ يكُنْ (ريو) قادِرًا عَلى كَتْمِ حَماسِهِ؛ فَأَخْبَرَها بِمُقابَلَتِهِ لِحوتٍ رَمادِيٍّ وَجْهًا لِوَجْهٍ. لكِنَّهُ قَرَّرَ ألّا يَذْكُرَ لَها حَقيقَةَ أنَّ الحوتَ كانَ (وايت بيك) وأَنَّهُ سَقَطَ في الماءِ، فَقَدِ احْتَفَظَ بِهذينِ الجُزئَيْنِ مِنَ الحِكايَةِ لِنَفْسِهِ.

«أَتَذَكَّرُ المَرَّةَ الأولى الَّتي رَأَيْتُ فيها حوتًا رَمادِيًّا،» تَمْتَمَتِ (فران). «أوه، حَدَثَ هذا مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، لكِنَّ الإحْساسَ لا يُفارِقُكَ أبَدًا.»

اتَّخَذَ وَجْهُها تَعْبيرًا شارِدًا في البَعيدِ، تَعْبيرًا يُشْبِهُ إلى حَدٍّ كَبيرٍ التَّعبيراتِ الَّتي رآها عَلى وُجوهِ مُراقِبي الحيتانِ. حَتّى إنَّ (ريو) أَحَسَّ بِرغْبَةٍ في أَنْ يُطْلِعَها عَلى خُطَّتِهِ لِإنْقاذِ أُمِّهِ. فَرُبَّما تَسْتَطيعُ مُساعَدَتَهُ؟

وَبَيْنَما هُوَ يُفَكِّرُ إنْ كانَ عَلَيْهِ أنْ يَثِقَ بِها، رَنَّ جَرَسُ الهاتِفِ.

اليَومُ هُوَ يَومُ الأحَدِ! كانَ ما يَزالُ يَشْعُرُ بِالوَخْزِ في كُلِّ

جَسَدِهِ بَعْدَ لِقاءِ (وايت بيك)، حتّى إنَّهُ احْتاجَ لِلَحْظَةٍ كَي يُدْرِكَ أنَّ هذِهِ المُكالَمَةَ هِيَ المُكالَمَةُ الّتي كانَ يَنتَظِرُها طيلَةَ الأسْبوعِ. لَقَدْ بَدَّلَتْ أُمُّهُ وَقْتَ الاتِّصالِ إلى المَساءِ؛ مِمّا يَعْني أنَّ الوَقْتَ بِالتَّأكيدِ مُبَكِّرٌ لِلغايَةِ في لندن.

وَكَما حَدَثَ مِنْ قَبْلُ، أجابَتِ (فران) عَلى المُكالَمَةِ، ثُمَّ مَرَّرَتْ لَهُ الهاتِفَ.

«أُمّي؟» أسْرَعَ (ريو) إلى سُلَّمِ الحَديقَةِ الخَلفِيَّةِ حيثُ كانَتِ الشَّمسُ مُنْخَفِضَةً في السَّماءِ. «خَمِّني مَنْ رَأيتُ اليَومَ،» قالَ بِحَماسٍ لَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى كِتْمانِهِ أكْثَرَ مِنْ لَحْظَةٍ واحِدَةٍ. «لَنْ تَقْدري عَلى التَّخمينِ، لكنَّها كانَتْ (وايت بيك)! حوتَكِ! رَأيتُها في المُحيطِ بِعَيْنَيَّ الاثْنتينِ!»

صَمَتَ لِيَلْتَقِطَ أنْفاسَهُ. كانَ قَلْبُهُ يَطْرُقُ بِشِدَّةٍ كَطَرَقاتِ حَبّاتِ مَطَرٍ مُنْهَمِرَةٍ عَلى صَدْرِهِ. كانَ يَنتَظِرُ رَدَّةَ فِعْلٍ مِنْها. يَنتَظِرُ أنْ تَقولَ شَيئًا.

«ماما؟»

«أنا هُنا.» قالَتْ بِصوتٍ بَدا بَعيدًا لِلغايَةِ؛ مِمّا اضْطَرَّهُ لِيَضْغَطَ بِالهاتِفِ بِقُوَّةٍ عَلى أذُنِهِ. «هَلْ ذَهَبْتَ إلى الماءِ؟»

ابْتَلَعَ (ريو) تَنْهيدَتَهُ. لَقَدْ نَسِيَ كيفَ كانَ يَضْطَرُّ أحْيانًا

إلى تكرارِ ما يَقولُهُ. لا يَهُمُّ. سَيَتَحَدَّثُ بِشَكْلٍ أَبْطَأَ هذِهِ المَرَّةَ، وَسَيُخْبِرُها بِالحِكايَةِ كامِلَةً مِنَ البِدايَةِ.

«الْتَقَيْتُ بِفَتاةٍ في الرَّصيفِ البَحرِيِّ. تُدْعى (مارينا). ثُمَّ أَخَذَتْني مَعَها لِمُراقَبَةِ الحيتانِ عَلى قارِبِها و . . .»

«ذَهَبْتَ إلى الميناءِ؟»

«أَجَلْ فَعَلْتُ . . . *لكِنْ أَوَّلًا* ذَهَبْتُ إلى الرَّصيفِ البَحرِيِّ. الفَتاةُ الَّتي الْتَقَيْتُ بِها اسْمُها مارينا.»

«مارينا، يا لَهُ مِنِ اسْمٍ جَميلٍ.»

كانَتِ الشَّمسُ تَغوصُ بِسرعَةٍ في الأُفُقِ، وصارَتْ مُنخفِضَةً لِلغايَةِ حتّى لامَسَتْ سَطحَ الماءِ. أكْمَلَ (ريو) حديثَهُ في عُجالَةٍ. «ألَمْ تَسْمعيني يا أُمّي؟ لَقَدْ رأيتُ (وايت بيك)! لَقَدْ رأيتُ حوتَكِ!»

«حوتي؟» وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ، تحدَّثَتْ بِنبرَةٍ مُبتهِجَةٍ. «(وايت بيك)؟ هل تَقْصِدُ (وايت بيك؟) الَّتي *أَعْرِفُها*»

«بِالضَّبطِ، (وايت بيك) الَّتي تَعرِفينَها،» قالَ (ريو)، والشَّمسُ تَغيبُ خَلْفَ الأُفُقِ في وميضٍ ذَهبيٍّ باهِرٍ. «رأيتُها اليومَ.»

كانَ هُناكَ صَمْتٌ طَويلٌ، طَويلٌ لِلغايَةِ حتّى خُيِّلَ إلَيهِ أنْ

قَلْبَهُ سَيَنْفَجِرُ، لكنَّهُ في النِّهايَةِ سَمِعَ أَضْأَلَ صَوتٍ عَلى الإِطْلاقِ. صوتِ ابْتِسامَةِ أُمِّهِ.



الفصلُ العِشرونَ

صُوَرٌ إلى لندن

قَبْلَ أَنْ يَخْلُدَ (ريو) إلى النَّومِ، اسْتَلْقى عَلى بَطْنِهِ أمامَ حاسوبِ جَدَّتِهِ المَحْمولِ. كانَ قَدْ طَلَبَ إلَيها أنْ يَسْتَعيرَهُ في اليَومِ السّابِقِ؛ لِكَي يَتَمَكَّنَ مِنْ أداءِ بَعْضِ واجِباتِهِ المَدرسِيَّةِ. لَمْ تكُنْ هذِهِ كِذْبَةً بالكامِلِ؛ لِأنَّ مُدَرِّسَتَهُ لا تَزالُ تُرسِلُ إلَيْهِ بَعْضَ الواجِباتِ. لكِنْ كانَتْ هذِهِ الدِّراسَةُ مِنْ نَوْعٍ مُخْتَلِفٍ، دراسَةُ (وايت بيك). أمّا هاتِفُهُ فَهُوَ يَقْبَعُ الآنَ في قاعِ المُحيطِ

الهادِئ. لكِنْ لِحُسْنِ الحَظِّ أَخْبَرَهُ الزَّوْجانِ القادِمانِ مِنْ (فيلادلفيا) أنَّهما سَيُرسِلانِ لَهُ، عَبْرَ البَريدِ الإلكترونيِّ، بَعْضَ الصُّوَرِ الَّتي الْتَقَطاها.

كانَ (ريو) مُتَلَهِّفًا لِلْغايَةِ حَتّى إنَّ أصابِعَهُ أخَذَتْ تَكْبِسُ وَتَنْقُرُ عَلى المَفاتيحِ الخَطَأِ قَبْلَ أنْ يَتَمَكَّنَ أخيرًا مِنَ الوُصولِ إلى صُنْدوقِ الوارِدِ في بَريدِهِ الإلكترونيِّ.

أرْجوكِ كوني *هُناك*.

وبِالفِعْلِ! كانَتِ الصُّوَرُ هُناكَ!

شَهَقَ (ريو). إنَّها أرْوَعُ صُوَرٍ رَآها في حَياتِهِ. أفْضَلُ مِنْ أيِّ صُوَرٍ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ يَلْتَقِطَها بِهاتِفِهِ. واضِحَةٌ لِلْغايَةِ ونابِضَةٌ بِالحَياةِ، لِدرَجَةِ جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ أنَّهُ في الماءِ مَرَّةً أُخْرى، وأنَّهُ صارَ وَجْهًا لِوَجْهٍ مَعَ حوتٍ رَماديٍّ.

وَلَيْسَ *أيَّ* حوتٍ فَحَسْبُ، بَلْ (وايت بيك).

كانَتْ تَسبَحُ بِجانِبِ القارِبِ، وقريبًا جِدًّا مِنْ سَطْحِ الماءِ، بِحيثُ يُمكنُكَ أنْ تَرى الخُطوطَ العَريضَةَ لِجَسَدِها بِالكامِلِ، وكانَتْ تَملأُ الصُورَةَ تَمامًا. حَجْمُها الهائِلُ يَخطُفُ الأنْفاسَ. كانَتْ أضْخَمَ مَخْلوقٍ رآهُ في حَياتِهِ. أكْبَرَ حَتّى مِنْ (سباي هوبر)، ومَعَ ذلِكَ، حينَ قرَّبَ (ريو) الصّورَةَ عَلى وَجْهِها كانَ

هُناكَ رِقَّةٌ حِيالَها أيضًا. رِقَّةٌ لَمْ تَأتِ مَعَ الحَجْمِ، لكنَّها نَبَعَتْ مِنَ الدّاخِلِ.

«أنتِ لَسْتِ مُجَرَّدَ حَيوانٍ، أَلَيْسَ كذلِكَ؟» هَمَسَ وهُوَ يَلْمِسُ الشّاشَةَ. «أنتِ تُشْبِهينَنا.»

أَحَسَّ أنَّهُ سَخيفٌ بَعْضَ الشّيءِ لِقولِ هذا؛ لأنَّ الحيتانَ لَيْسَتْ بَشَرًا. ومَعَ ذلِكَ، كانَ هُناكَ شَيءٌ مُمَيَّزٌ حِيالَ (وايت بيك). لَيْسَ فَقَطْ لأنَّها نَظَرَتْ إلَيهِ بطريقَةٍ بَشَرِيَّةٍ اسْتِثْنائيَّةٍ، بَلْ لأنَّها أيضًا دَفَعَتْهُ لِتُعيدَهُ بِأمانٍ إلى القاربِ كَأنَّها تَعْتَنِي بِهِ، كأنَّها تَحْرُسُهُ. أحَسَّ (ريو) بِحَلْقِهِ يَحْتَقِنُ دونَ أنْ يَعْرِفَ السَّبَبَ. مَضى عَليهِ في (أوشن باي) ما يَزيدُ عَلى الأسبوعِ، وبِاسْتِثْناءِ اليَومِ، كانَ هذا أكثَرَ أسْبوعٍ شَعَرَ فيهِ بِالوَحْدَةِ في حَياتِهِ.

لكِنَّهُ، فَجْأَةً، لَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بالوَحْدَةِ.

«لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَيْكِ،» قالَ بِلينٍ. «أوْ رُبَّما أنتِ مَنْ عَثَرَ عَلَيَّ.»

سارَ لِيَقِفَ بِجانِبِ النّافِذَةِ، واضِعًا قَدَمَيْهِ عَلى أثَرِ قَدَمَي أُمِّهِ، وراحَ يُفَكِّرُ في الماءِ.

الشَّيءُ المُحْزِنُ الوَحيدُ هُوَ أنَّهُ لَنْ يَراها مَرَّةً أُخْرى. فَقَدْ

شَرَحَتْ لَهُ (مارينا) أنَّ (وايت بيك) مِثْلُ كُلِّ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ، تَمُرُّ فَقَطْ بِجانِبِ (أوشن باي) وهِيَ في طَرِيقِها إلى البُحيراتِ الضَّحْلَةِ في الجَنوبِ.

كانَتْ رُؤْيَتُهُ لَها مُجَرَّدَ صُدْفَةٍ. كانَ اللِّقاءُ قَصيرًا، وَرُبَّما دامَ بِضْعَ دَقائِق فَقَطْ، إلّا أنَّ (ريو) أدْرَكَ أنَّهُ سَيَتَذَكَّرُهُ طيلَةَ ما تَبَقّى مِنْ حَياتِهِ.

«لَقَدْ ساعَدْتِني،» تَمْتَمَ. «والآنَ سَتُساعِدينَ أُمِّي أيضًا.»

مُكالَمَتُهُ التّالِيَةُ مَعَ أُمِّهِ لَنْ تكونَ قَبْلَ أُسْبوعينِ مِنَ الآنَ، فَيَوْمُ الأحَدِ القادِمِ سَتَكونُ أُمُّهُ في مُحاضَرَةٍ خاصَّةٍ أو شَيءٍ مِنْ هذا القَبيلِ. أسْبوعَينِ. سَيَكونُ الانْتِظارُ طَويلًا. لكِنْ بِحُلولِ هذا الوَقْتِ سَتَكونُ قَدْ تَحَسَّنَتْ بِالتَّأْكيدِ.

خاصَّةً بَعْدَ أنْ يُرسِلَ لَها صُوَرَ (وايت بيك) هذِهِ. أيُّ وَسيلَةٍ أَفْضَلُ مِنْ هذِهِ لِتذكيرِ أُمِّهِ كَمْ كانَتْ سَعيدَةً وهِيَ طِفلَةٌ، والأَهَمُّ مِنْ ذلِكَ، كَمْ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تكونَ سَعيدَةً مَرَّةً أُخْرى؟

لَمْ يُخْبِرْها (ريو) أنَّهُ سَيُرْسِلُ لَها صُوَرًا، فَأَحْيانًا تَخْتَلِطُ عَلَيْها الأُمورُ حينَ يُخْبِرُها بِكثيرٍ مِنَ الأَشْياءِ في وقْتٍ واحِدٍ. سَتكونُ هذِهِ مُفاجَأَةً مُمَيَّزَةً لِلْغايَةِ.

إِحْتاجَ الأَمْرُ مِنْهُ عِدَّةَ مُحاوَلاتٍ؛ لِكَي يَعْثُرَ عَلى الكَلِماتِ

المُناسِبَةِ الَّتي سَيُرْسِلُها مَعَ الصُّوَرِ. لكِنَّهُ في النِّهايَةِ قَرَّرَ أَنْ يَكتُبَ شَيئًا مُخْتَصَرًا وَبَسيطًا.

عَزيزَتي ماما،

إِلَيْكِ بَعْضَ صُوَرِ (وايت بيك). كانَتْ تَمُرُّ بِجانِبِ (أوشن باي) اليومَ، وَرَأَيْتُها بِعَيْنَيَّ. كانتْ أَجْمَلَ شَيءٍ رَأَيتُهُ في حَياتي مِنْ بَعْدِكِ. وقَدْ جَعَلَتْني سَعيدًا مِنَ الأَعْماقِ.

آمَلُ أَنْ تَجْعَلَكِ سَعيدَةً أيضًا.

أُحِبُّكِ

(ريو) القِطُّ xxx

أَرْسَلَ (ريو) الرِّسالَةَ بِابْتِسامَةٍ عَلى وَجْهِهِ، ثُمَّ شَطَبَ عَلى يومٍ آخَرَ في التَّقويمِ. لَمْ يَتَبَقَّ إلّا ثَلاثَةُ أَسابيعَ حَتّى تَتَحَسَّنَ أُمُّهُ، وَيَعودَ إلى البَيْتِ.



الفصلُ الحادي والعشرونَ

سمعٌ استثنائيٌّ

«هَلْ أَنْتَ مُسْتَعِدٌّ؟» سَأَلَتْهُ (مارينا) وعَلى وَجْهِها ذلِكَ النَّوْعُ مِنَ الابْتِساماتِ الَّتي تَظْهَرُ حينَ تَتَذَوَّقُ طَعْمَ مُغامَرَةٍ عَلى شَفَتَيْكَ، مَمْزوجٌ بِنَكْهَةِ انْتِهاءِ اليَومِ الدِّراسِيِّ. أَصَرَّتْ أَنْ يَصْحَبَها (ريو) هي و(بيرش) إلى المُحيطِ في رِحلَةٍ ما بَعْدَ الظَّهيرَةِ لِمُراقَبَةِ الحيتانِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَرْفُضَ مِثْلَ هذا الأَمْرِ. بِالإضافَةِ إِلَيهِمْ، كانَ هُناكَ مَجْموعَةٌ كَبيرَةٌ مِنَ السُّيّاحِ

اليابانِيّينَ وَمُعَلِّمٌ مِنْ واشنطن، وَزوجانِ في مُنتَصَفِ العُمْرِ مِنْ إسْكُتْلندا.

كَما في اليَومِ السّابِقِ، وَجَّهَ (بيرش) (*سباي هوبر*) ناحِيَةَ الجَنوبِ، إلى منطِقةٍ بَعيدَةٍ تَمامًا عَنْ مَدخَلِ الميناءِ المُزدَحِمِ. كانَ الماءُ اليَومَ أكْثَرَ اضْطِرابًا، والأمْواجُ تَضْرِبُ هَيكَلَ القارِبِ، ومِنْ آنٍ لِآخَرَ، يَترَقْرَقُ الزَّبَدُ الأبيضُ عَلى سَطْحِ الماءِ.

اضْطَرَبَتْ مَعِدَةُ (ريو) وتقَلَّبَتْ، لكِنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِدُوارِ البحرِ. في الحَقيقَةِ، كانَ مِنَ الصَّعْبِ التَّخَيُّلُ أنَّهُ خافَ مِنَ البحرِ قَطُّ. كُلُّ شَيءٍ هُنا كانَ أكبَرَ حَجْمًا، وأكْثَرَ سُطوعًا. كأنَّ نورَ الشَّمسِ ازْدادَ دَرَجَةً، وَنَثَرَتْ غُبارًا مِنَ الذَّهَبِ عَلى سَطْحِ العالَمِ بِأَسْرِهِ.

بَعْدَ قُرابَةِ عَشْرِ دَقائقَ، وَصَلوا إلى وُجْهَتِهِمْ، وأطْفَأَ (بيرش) المُحَرِّكَ. كانَ القارِبُ مُمْتَلِئًا بِمجموعَةٍ مُتَبايِنَةٍ مِنَ السُّيّاحِ، ومَعَ ذلِكَ خَيَّمَ عَليهِمْ جَميعًا التَّرَقُّبُ الصّامِتُ نَفْسُهُ، وكانَ بِاسْتِطاعَةِ (ريو) أنْ يَشْعُرَ بِالأمَلِ يَملَأُ قلوبَهُمْ جَميعًا.

لكِنْ، عَلى عَكْسِ الأمْسِ، كانَ المَشْهَدُ يَنْقُصُهُ شَيءٌ واحِدٌ. *الحيتانُ*.

لِنِصْفِ ساعَةٍ تَمايَلَ القارِبُ صاعِدًا وهابطًا في صَمْتٍ دونَ

أَثَرٍ لِأَيِّ حوتٍ: لا ذَيْلَ، وَلا قَفْزَ اسْتِطلاعِيٌّ، ولا نافورَةَ ماءِ تَنَفُّسٍ، وبِالتَّأكيدِ لَمْ يكُنْ هُناكَ أَثَرٌ لِأَيِّ قَوْسِ قُزَحَ عَلى هَيئَةِ قَلْبٍ.

«هذِهِ هِيَ المُشْكِلَةُ،» عَلَّقَتْ (مارينا) حينَ بَدا عَلى بَعْضِ السُّيّاحِ التَّذَمُّرُ مِنْ طولِ الانْتِظارِ. «الحيتانُ لا تَتَصَرَّفُ بِناءً عَلى التَّوقيتِ البَشَرِيِّ.»

أرادَ (ريو) أنْ يُوافِقَها. أرادَ هذا حقًّا. لكِنْ كانَ مِنَ الصَّعْبِ عَليهِ أَنْ يَكْبَحَ إحْساسَ خَيبَةِ الأَمَلِ المُتَزايِدَ بِداخِلِه. كانَ يَرْغَبُ بِشِدَّةٍ في رُؤْيَةِ المَزيدِ مِنَ الحيتانِ. لَيْسَ فَقَطْ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ، لكِنَّهُ أدرَكَ أَنَّهُ يُريدُ هذا مِنْ أَجْلِهِ هُوَ أيضًا. لِقاؤُهُ (بمارينا)، ووجودُهُ عَلى مَتْنِ (*سباي هوبر*) مَنَحاهُ أكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ السَّعادَةِ لَمْ يَشْعُرْ بِها مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ. مَنَحاهُ فُرْصَةً لِيَعيشَ حَياةً لَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ أنْ يَعيشَها. لكِنْ، مِنَ النّاحِيَةِ العَمَلِيَّةِ، كَمْ يا تُرى عَدَدُ الرِّحلاتِ البَحرِيَّةِ الَّتي تستطيعُ (مارينا) أنْ تَدْعوهُ إلَيْها بَينَما هُوَ في (أوشن باي)؟ قالَ (بيرش) إنَّهُمْ سَيَكونونَ مَشْغولينَ خِلالَ الأسابيعِ القَليلَةِ المُقْبِلَةِ، ماذا لَوْ كانَتْ هذِهِ الرِّحْلَةُ هِيَ آخِرُ فُرْصَةٍ أمامَ (ريو) لِيَرى الحيتانَ؟

كانَتْ تِلكَ هِيَ اللَّحْظَةُ الَّتي سَمِعَ فيها صَوْتَ نَقْرَةٍ. نَقْرَةٍ خافِتَةٍ لِلغايَةِ، ظَنَّ بِسَبَبِها أنَّهُ قَدْ أَخْطَأَ السَّمْعَ. لكِنْ هُناكَ! نَقْرَةٌ أُخْرى. أَصْغى (ريو) السَّمْعَ. كانَ نَفْسَ ضَجيجِ البارِحَةَ. قَرْقَرَةٌ مُشَوَّشَةٌ طَويلَةٌ، ثُمَّ سِلْسِلَةٌ مِنَ النَّقراتِ القَصيرَةِ الحادَّةِ، مَتْبوعَةٌ بِضَجيجٍ أَشْبَهَ بِضَرَباتِ طَبْلٍ كَبيرٍ.

دارَ عَلى عَقِبَيْهِ وَهُوَ يَتَفَحَّصُ الماءَ مِنْ جَميعِ الزَّوايا. لكِنْ، مَهْما أَمْعَنَ النَّظَرَ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ شَيءٌ لِيَراهُ. ومَعَ ذلِكَ كانَ ما يَزالُ قادِرًا عَلى سَماعِ شَيءٍ ما. كانَ واثِقًا مِنْ أنَّهُ يَسْمَعُ الصَّوتَ. لكِنْ مِنْ أينَ يَأتي؟

مِنْ هُناكَ. كانَ الصَّوتُ آتِيًا مِنْ تَحْتِ الماءِ هُناكَ.

«هُناكَ حوتٌ!» قالَ (ريو) في عُجالَةٍ بَينَما (بيرش) يَسْتَعِدُّ لِتَشْغيلِ المُحَرِّكِ. «عِنْدَ السّاعَةِ الخامِسَةِ.»

ضَيَّقَتْ (مارينا) عَيْنَيْها وَهِيَ تُحَدِّقُ بِقُوَّةٍ إلى الاتِّجاهِ الَّذي يُشيرُ إلَيهِ (ريو). «لا أَسْتَطيعُ رُؤْيَةَ أَيِّ شَيءٍ.»

«هُناكَ حوتٌ، يُمْكِنُني سَماعُهُ،» قالَ (ريو) بِإلْحاحٍ. «هُناكَ!»

في هذِهِ اللَّحْظَةِ، انْدَفَعَ مِنَ الماءِ، عندَ النُّقْطَةِ الَّتي كانَ يُشيرُ إلَيْها (ريو) تَمامًا، رَأْسٌ عِمْلاقٌ مُغَطًّى بِمَحارِ البَرْنقيلِ.

«قَفْزَةٌ اسْتِطلاعِيَّةٌ.» صاحَ أَحَدُ السُّيّاحِ.

تَلَفَّتَ الحوتُ مِنْ حَوْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَغوصَ بِجَلالٍ تَحْتَ الأَمْواجِ مِنْ جَديدٍ. اسْتَعادَ الرُّكّابُ حَيَوِيَّتَهُمْ مَرَّةً أُخْرى، وَهُمْ يَلْتَقِطونَ الصُّوَرَ، وَيُثَرْثِرونَ في حَماسٍ. نَظَرَتْ (مارينا) إلى (ريو) بِفُضولٍ كَأَنَّهُ لُغْزٌ تُحاوِلُ حَلَّهُ.

«كَيْفَ عَرَفْتَ أَنَّ الحوتَ هُناكَ؟»

«لَقَدْ سَمِعْتَهُ، أَلَمْ تَسْمَعيهِ؟»

عَقَدَتْ حاجِبَيْها «لكِنَّكَ لا تَسْتَطيعُ سَماعَهُمْ.»

«لِمَ لا؟.»

«لأَنَّ البَشَرَ لا يُمْكِنُهُمْ سَماعُ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ،» أَجابَتْ (مارينا). «ذَبْذَباتُ صَوْتِهِمْ مُنْخَفِضَةٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لِآذانِنا. سَيَكونُ الأَمْرُ أَشْبَهَ بِسَماعِ صافِرَةِ اسْتِدعاءِ الكِلابِ. بِبَساطَةٍ هذا مُسْتَحيلٌ.»

تَذَكَّرَ (ريو) اللَّحظَةَ الَّتي كانَ فيها في الماءِ، وسمِعَ الأَصواتَ تَرتَحِلُ صاعِدَةً عَبْرَ قَدَمَيْهِ. لا شَكَّ لَديهِ أَنَّ هذِهِ الأَصواتَ جاءَتْ مِنْ (وايت بيك). وكذلِكَ الضَّجيجَ الَّذي سَمِعَهُ قَبْلَ لَحَظاتٍ، جاءَ بِالتَّأكيدِ مِنْها. لَقَدْ عَرَفَ هذا بِالطَّريقَةِ نَفْسِها الَّتي يَتَمَكَّنُ بِها مِنَ الإِحْساسِ بِاقْتِرابِ العاصِفَةِ بِسَبَبِ الكَهرباءِ الَّتي تُطَقْطِقُ في الهواءِ. قالَتْ أُمُّهُ إِنَّ ذلِكَ بِسَبَبِ امْتِلاكِهِ لِأُذُني قِطَّةٍ. «لكِنّي

سَمِعْتُهُ، أُقْسِمُ لَكِ.»

قَطَّبَتْ (مارينا) جَبينَها قَبْلَ أَنْ تُشيرَ بِيَدِها نَحْوَ البَحْرِ: «هَلْ تُقْسِمُ أمامَ المُحيطِ؟ هَلْ تُقْسِمُ أَنَّكَ قادِرٌ عَلى سَماعِهِمْ؟»

أَوْمَأَ (ريو) «أُقْسِمُ أمامَ المُحيطِ.»

«حَسنًا، ماذا عَنِ الآنَ؟» قالَتْ: «هَلْ تَستَطيعُ سَماعَ حوتِ الآنَ؟»

أَغْمَضَ (ريو) عَينَيهِ. رَكَّزَ بِقُوَّةٍ، مُحاوِلًا أَنْ يَعْزِلَ صَوْتَ ارْتِطامِ الماءِ بِهَيْكَلِ القارِبِ، وَمُحادَثاتِ الرُّكّابِ الآخَرينَ، وَحَتّى حِدَّةَ نَظْرَةِ (مارينا) الَّتي كانَ قادِرًا عَلى الإحْساسِ بِها عَلى وَجْهِهِ.

في البِدايَةِ، لَمْ يَسمَعْ شَيئًا، وَنَبَتَتْ بِداخِلِهِ بَذْرَةٌ صَغيرَةٌ مِنَ الشَّكِّ. رُبَّما كانَ مُخْطِئًا؟ لكِنْ جاءَتْ بَعْدَ ذلِكَ نَقْرَةٌ صَغيرَةٌ. خافِتَةٌ لكِنَّها بِالتَّأكيدِ هُناكَ. قَرْقَرَةٌ. نَقْرَةٌ أُخْرى. الآنَ عَلَيْهِ فَقَطْ أَنْ يُحَدِّدَ الاتِّجاهَ.

«عِنْدَ السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ،» قالَ بِيَقينٍ حاسِمٍ.

دارَتْ (مارينا) حَوْلَ نَفْسِها، وَحَدَّقَتْ إلى الأُفُقِ بِشَراسَةٍ شَديدَةٍ جَعَلَتْ (ريو) يَرْتَجِفُ. لكِنَّ المُحيطَ بَقِيَ هادِئًا وَمُسْتَوِيًا.

بَلَعَ ريقَهُ. هَيّا. لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ مُخْطِئًا.

وَرُغْمَ ذلِكَ لَمْ يَظهَرْ شَيءٌ.

وَبَعْدَها . . . انْدَفَعَتْ نافورَةٌ مِنَ الماءِ عالِيًا في السَّماءِ.

اسْتَدارَتْ (مارينا) إلى الوَراءِ، حَدَّقَتْ إلى (ريو) بِمَزيجٍ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالتَّعَجُّبِ. «يُمْكِنُكَ حَقًّا سَماعُهُمْ!»



الفصلُ الثّاني والعشرونَ

دَعْـوَةٌ

قَضى كُلٌّ مِنْ (ريو) و(مارينا) ما تَبَقّى مِنَ الرِّحْلةِ البَحريَّةِ وَهُما يَسْتَمْتِعانِ بِالتَّجربَةِ. كَيفَ بَدا الصَّوتُ حَقًّا؟ هَلْ بإمْكانِهِ أنْ يُحاوِلَ وَصْفَهُ لَها؟ ما المَسافَةُ الّتي يَجِبُ أنْ يَكونَ عَليها الحوتُ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ سَماعِهِ؟ رَسَمَتْ (مارينا) بَعْضَ المُخَطَّطاتِ في دَفْتَرِ مُلاحَظاتِها لِتُوَضِّحَ المَسافَةَ التَّقريبِيَّةَ.

أخَذَتْ تَشْرَحُ لَهُ: «هذا نَحْنُ عَلى القارِبِ، وأَبْعَدُ حوتٍ سَمِعْتَهُ كانَ هُناكَ. أُخَمِّنُ أَنَّهُ كانَ عَلى بُعْدِ مِئَةِ مترٍ تَقريبًا.»

«لكنَّني سَمِعْتُ هذا الحوتَ بِشَكْلٍ خافِتٍ جِدًّا.»

«لا يَزالُ عَمَلًا مُذْهِلًا.» الْتَفَتَتْ (مارينا) نَحْوَ (ريو) بِعَينينِ تَلْمَعانِ كالنُّجومِ: «لِأنَّني أَرْكَبُ البَحرَ مُنْذُ أَنْ كُنْتُ طِفْلَةً رَضيعَةً، وَلَمْ أَسمَعْ قَطُّ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ. بَيْنَما أنتَ قادِرٌ عَلى سَماعِها!»

هَزَّ (ريو) رَأْسَهُ رافِضًا التَّصديقَ. كَمْ هُوَ غَريبٌ أَنْ يُفَكِّرَ أَنْهُ قَطَعَ كُلَّ هذِهِ المسافَةِ، مِنْ لَنْدن إلى الطَّرَفِ الآخرِ مِنَ العالَمِ، لِيَكْتَشِفَ في نَفْسِهِ شَيئًا اسْتِثْنائِيًّا. حينَ بَدَأَ (ريو) في اسْتيعابِ الأمْرِ، كانَتْ (سباي هوبر) قَدْ عادَتْ إلى الرَّصيفِ البَحريِّ، ورَكَضَتْ (مارينا) إلى (بيرش) وَجَذَبَتْهُ مِنْ ذِراعِهِ.

«أبي، لَنْ تُصَدِّقَ أبدًا! (ريو) يَستَطيعُ سَماعَ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ!»

ظَنَّ (ريو) أَنَّ (بيرش) سيُكَذِّبُ كلامَها عَلى الفَورِ. كَعادَةِ الرَّاشِدينَ حينَ يَسْمَعونَ شَيئًا يَبْدو لَهُمْ أَنَّهُ ضَرْبٌ مِنَ الخَيالِ. لكِنَّهُ لَمْ يَفعَلْ شَيئًا مِنْ هذا القَبيلِ. بَدَلًا مِنْ ذلِك ضَيَّقَ عَينَيهِ، وَعَضَّ شَفَتَهُ مُفَكِّرًا.

«لَقَدْ أدْرَكْتُ أنَّ هُناكَ شَيئًا مُختَلِفًا حِيالَكَ مُنذُ أوَّلِ مَرَّةٍ أبْحَرْتَ فيها مَعَنا.» صَمَتَ لَحظَةً. «لَدَيْكَ أُذُنُ مُحيطٍ، كَما نَقولُ نَحنُ البَحّارَةُ.»

الْتَفَتَتْ (مارينا) نَحْوَ والِدِها، وتَبادَلا شَيئًا ما بِالنَّظَراتِ، لَمْ يكُنْ (ريو) واثِقًا مِنْ ماهِيَّتِهِ، لكِنْ بَدا الأمْرُ وَكأنَّ كَلماتٍ خَفِيَّةً تَطْفو في الهواءِ، وَمُحادَثَةً تَجري بَعيدًا عَنِ الأنْظارِ.

صَفَّى (بيرش) حُنْجُرَتَهُ: «في حَياتي كُلِّها لَمْ أَلْتَقِ بِأَيِّ أَحَدٍ يَستطيعُ سَماعَ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ إلّا شَخْصٍ واحِدٍ، وهُوَ صَديقٌ مَكْسيكِيٌّ عَرَفْتَهُ قَبْلَ سَنَواتٍ عَديدَةٍ، وَيعيشُ جَنوبًا في البُحيراتِ الضَّحْلَةِ.»

قالَ (ريو) «لا شَكَّ أنَّ هذا بِسَبَبِ الأوركسترا، هذا هُوَ المَكانُ الَّذي نَشَأْتُ فيهِ. أُمّي . . . أُمّي كانَتْ عازِفَةَ (كمان) - أعْني أُمّي *ما زالَتْ* عازِفَةَ (كمان)، ر-ر-رُبَّما هذا هو السَّبَبُ، أنا فَقَطْ أسْمَعُ الأشياءَ بِشَكْلٍ مُخْتَلِفٍ.»

كانَ هذا هُوَ التَّفسيرُ *المَنْطِقِيُّ* الوَحيدُ - حَقيقَةً أنَّهُ نَشَأَ بَينَ موسيقِيّينَ لكِنَّ شَيئًا آخرَ وَكَزَهُ في ضُلوعِهِ. شَيئًا لَمْ يَكُنْ مَنطقِيًا حَقًّا. فَقَدْ كانَ لَديهِ إحْساسٌ غَريبٌ بِأنَّهُ وُلِدَ مِنْ أجْلِ هذا. تَمامًا كَما وُلِدَتْ أُمُّهُ مِنْ أجْلِ الأوركسترا، وكَما

وُلِدَتْ (مارينا) مِنْ أجْلِ المُحيطِ. يَبدو أنَّ (ريو)، ولِسَبَبٍ لَمْ يَفهَمْهُ بَعْدُ، قَدْ وُلِدَ لِكَي يَسْمَعَ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ.

اِخْتَفى (بيرش) عائدًا إلى المَقْصورَةِ دونَ أنْ يَقولَ كَلمةً أُخْرى، ثُمَّ عادَ إلى سَطْحِ القارِبِ وهُوَ يَحْمِلُ قَميصًا مَألوفًا أسْوَدَ قَصيرَ الأكْمامِ، عَلى مُقَدِّمَتِهِ صورَةُ حوتٍ رَمادِيٍّ وحُروفٌ قَدْ حيكَتْ بِخُيوطٍ فِضِّيَّةٍ، تَقولُ: (*سباي هوبر*) *لِرِحلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ*.

قالَ (بيرش) وهُوَ يُقَدِّمُ القَميصَ إلى (ريو): «مَرحبًا بِكَ ضِمْنَ طاقِمِ (سباي هوبر)، هذا إنْ كُنْتَ تَرغَبُ في الانْضمامِ إلينا. سَيَنْفَعُنا زَوجانِ إضافِيّانِ مِنَ الأعْيُنِ والآذانِ.»

«لكِنْ . . . أنا هُنا لِثَلاثَةِ أسابيعَ أُخْرى فقَطْ، ثُمَّ أعودُ إلى لَنْدن.»

أجابَ (بيرش): «لا يَهُمُّ، حينَ يَتعَلَّقُ الأمْرُ بِمُساعَدَتِنا في تَعْدادِ الحيتانِ، فَشَخْصٌ بِمِثْلِ مَوْهِبَتِكَ لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ لَنا.»

قالَتْ (مارينا): «أرْجوكَ وافِقْ يا (ريو)! فَكِّرْ فَقَطْ في عَدَدِ الحيتانِ الَّتي سَنَتَمَكَّنُ مِنْ إنقاذِها!»

«إنقاذِها؟ ما الَّذي تقْصِدينَهُ؟» سَأَلَ (ريو): «لَمْ يَعُدِ البَشَرُ يَصطادونَ الحيتانَ، ألَيْسَ كذلِكَ؟»

قالَ (بيرش): «البَشَرُ لا يَفعلونَ ذلِكَ. لكِنَّنا، لِسوءِ الحَظِّ، ما زِلْنا نُؤذيها بِطَرائقَ أُخْرى عَديدَةٍ.»

«كَثيرٌ مِنَ البَلاستيكِ يَنْتَهي بِهِ المَطافُ في بُطونِ الحيتانِ وَالدَّلافينِ.» هَزَّتْ (مارينا) رَأْسَها بِغَضَبٍ: «في مُعْظَمِ الأحيانِ يَعتَقدونَ أَنَّهُ طَعامٌ.»

«ليسَ البلاستيكُ فَحَسْبُ،» أضافَ (بيرش): «فَالبَياناتُ الَّتي نَجْمَعُها مِنْ مَوْقعِ (happywhale) تُساعِدُ العُلَماءَ في مُراقَبَةِ الطَّريقَةِ الَّتي يُؤَثِّرُ بِها ارْتِفاعُ دَرَجاتِ الحَرارَةِ، لَيسَ فَقطْ عَلى سُلوكِ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ وعاداتِها الغِذائيَّةِ، بَلْ عَلى كُلِّ الحيتانِ في العالَمِ.»

كانَ التَّلَوُّثُ البِلاستيكيُّ، وَتَغَيُّرُ المناخِ مِنَ المَوضوعاتِ الَّتي دَرَسَها (ريو) في المدرسَةِ. لكِنَّ الجُلوسَ داخِلَ غرفَةِ فَصْلٍ بارِدَةٍ في لَنْدن، أوِ النَّظَرَ إلى الصُّوَرِ عَلى الإنترنت، بَعيدانِ كُلَّ البُعْدِ عَنْ وُجودِهِ عَلى مَتْنِ قارِبٍ في المُحيطِ الهادئ.

بَلَعَ ريقَهُ: «ماذا تَعْني دَرَجاتُ الحَرارَةِ المُرتفِعَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلحيتانِ؟»

نَظَرَتْ إلَيهِ (مارينا) نَظْرَةً طَويلَةً ثابِتَةً قَبْلَ أنْ تُجيبَ: «تَعْني أَنَّهُمْ يَحْتَضِرونَ.»

«يَخْتَضِرونَ؟»

«الأمْرُ بَسيطٌ بِالنِّسْبَةِ لَنا نَحْنُ البَشَرُ؛ لِأَنَّنا نَسْتَطيعُ الخُروجَ مِنَ الماءِ في أيِّ وَقْتٍ نَشاءُ.» لَوَّحَتْ (مارينا) ذِراعَها في الهواءِ بِحِدَّةٍ «لكِنَّ الحيتانَ لا تَستطيعُ. وَلا السَّلاحِفَ، ولا الفُقْماتِ، وَلا أفيالَ البَحرِ، ولا أُسودَ البحرِ، ولا الدَّلافينَ. إنَّهُمْ عالِقونَ في الماءِ إلى الأَبَدِ.»

وضَعَ (بيرش) يدَهُ بِرِفْقٍ عَلى كَتِفِها: «ابْنَتي، كما تَرى، شَغوفَةٌ جِدًّا بهذا الموضوعِ. وهِيَ مُحِقَّةٌ في ذلِكَ.»

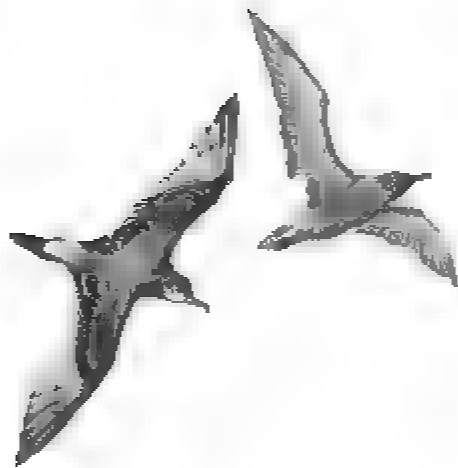
«لِهذا دَرَسَتْ بِجِدٍّ مِنْ أجْلِ اخْتِباراتِ مادَّةِ العُلومِ،» قالَتْ بِاعْتِزازٍ: «لأنَّني أُريدُ أنْ أُصبِحَ عالِمَةَ أَحياءٍ بَحريَّةٍ عِنْدَما أكْبَرُ. أُريدُ أنْ أُساعِدَ في إنقاذِ المحيطِ! لكِنْ، حتّى ذلكَ الحينِ سَأفْعَلُ ما بُوسْعي لِأُحْصِيَ عَدَدَ الحيتانِ، حوتًا تِلْوَ حوتٍ.»

قالَ (بيرش): «كُلَّما جَمَعْنا المزيدَ مِنَ البَياناتِ، ساعَدْنا في رَفْعِ وَعْيِ النّاسِ بِما يحدُثُ في المحيطِ. الوَعْيُ هوَ جوهَرُ التَّغييرِ.»

ثُمَّ ناوَلَهُ القَميصَ: «لا أَحَدَ مِنّا يُمْكِنُهُ أنْ يُنْقِذَ العالَمَ بِمُفْرَدِهِ. لكِنَّنا إنْ عَمِلْنا معًا، فقَدْ نَجدُ الفُرصَةَ. شَخْصٌ مِثْلُكَ يُمكِنُهُ أنْ يُساعِدَنا حقًّا يا ريو.»

كانَ (بيرش) و(مارينا) يَنْظُرانِ إلى (ريو) بِتعبيرٍ جادٍّ مُفْعَمٍ

بِالأَمَلِ، جَعَلَ قلبَهُ يَقفِزُ اسْتِجابَةً لَهُما. لَمْ تَعُدْ أُمُّهُ هيَ مَنْ يَحتاجُهُ فَقطْ، بَلِ المحيطُ بِأَسْرِهِ. وبينَما هوَ يَرتَدي القَميصَ الفِضِّيَّ فَوقَ قَميصِهِ الأَصْفرِ، لَمْ يَكُنْ (ريو) يلبِسُ قَميصًا فَحَسْبُ، بَلْ هُوِيَّةً جَديدَةً بِالكامِلِ.



الفصلُ الثَّالثُ والعشرونَ

تـدريبٌ

في الأيّامِ القَليلَةِ التّالِيةِ، تَعَلَّمَ (ريو) مِنْ (مارينا) و(بيرش) كُلَّ ما يَحتاجُ أنْ يَعرِفَهُ لِكَي يُصْبِحَ مُرْشِدَ مُراقَبَةِ حيتانٍ. لَمْ يَقتَصِرْ ذلِكَ عَلى الجَوانِبِ العَمَليّةِ مِثْلَ إعْطاءِ الأَوْلَوِيّةِ لِسَلامَةِ البَشَرِ وَالحيتانِ دائمًا لكِنْ أيضًا التّفاصيلُ الدّقيقَةُ الخاصَّةُ بِتَسْجيلِ مُشاهَدَةِ الحيتانِ في قاعِدَةِ بياناتِ (happywhale).

بِسَبَبِ قَضائِهِ كُلَّ هذا الوَقْتِ عَلى مَتْنِ (سباي هوبر)، تَعَلَّمَ (ريو) أُمورًا كَثيرَةً عَنِ المُحيطِ فاقَتْ ما يُمْكِنُ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ مِنْ قِراءَةِ الكُتُبِ. سابِقًا، كانَ كُلَّما فَكَّرَ في المُحيطاتِ، فَكَّرَ فيها مِنْ حَيْثُ الإِحْصائِيّاتُ وَالأَرْقامُ العَمَلِيَّةُ البَحْتَةُ. كَأَنْ يَسْأَلَ: أَيُّ مُحيطٍ هُوَ الأَكْبَرُ، أَوِ الأَعْمَقُ أَوِ الأَكْثَرُ بُرودَةً. لكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ المُحيطاتِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ *تَضاريسَ عَلى الخَريطَةِ*، بَلْ مَوْطِنٍ لِمَلايينِ الكائِناتِ الحَيَّةِ. بَعْضُ هذِهِ الكائِناتِ قَدْ لا يَراها أَغْلَبُ البَشَرِ طَوالَ حَياتِهِمْ، لكِنَّ هذا لا يَعْني أَنَّها لَيْسَتْ مَوجودَةً، وَلا يَعْني أَنَّها لَيْسَتْ مُهِمَّةً.



بِالنِّسْبَةِ (لِريو)، كانَتْ (مارينا) مَوْسوعَةً بَحرِيَّةً عَلى هَيئَةِ إنْسانٍ. لَيْسَ فَقَطْ بِما يَتَعَلَّقُ بِالحيتانِ الرَّمادِيَّةِ، بَلْ بِكُلِّ فَصيلَةٍ مِنَ الكائناتِ البَحرِيَّةِ قاطِبَةً؛ لِذا اسْتَطاعَ أَنْ يَجْمَعَ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ المَعْلوماتِ عَنِ المَخْلوقاتِ المَوْجودَةِ في أَعْماقِ البِحارِ. كانَ الأَمْرُ أَشْبَهَ بِالالْتِحاقِ بِمَدْرَسَةٍ داخِلَ المُحيطِ.

بِالإضافَةِ لِذلِكَ، تَعَلَّمَ (ريو) أَشْياءَ حَزينَةً أيضًا، أَشْياءَ جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِالغَثَيانِ بَعْضَ الشَّيءِ.

تَعَلَّمَ (ريو) أَنَّ الحيتانَ الرَّمادِيَّةَ كانَتْ، يومًا ما، مَوْجودَةً في المُحيطِ الأَطْلَنطِيِّ أيضًا، لكِنَّها انْقَرَضَتْ بِسَبَبِ الصَّيدِ. وَتَعَلَّمَ أيضًا أَنَّ البُحيراتِ الضَّحْلَةَ في المَكْسيكِ لَمْ تَكُنْ دَوْمًا مَلاذًا آمِنًا لِلحيتانِ الرَّمادِيَّةِ كَما هِيَ اليَوْمَ. في الواقِعِ، وحَتّى عَهْدٍ قَريبٍ، كانَ صائِدو الحيتانِ يَسِدّونَ مَداخِلَ بَعْضِ البُحيراتِ الضَّحْلَةِ؛ لِيُحاصِروا الأُمَّهاتِ وَصِغارَهُنَّ بِالدّاخِلِ، ثُمَّ يَذْبَحونَ كُلَّ حوتٍ مِنْها تارِكينَ وَراءَهُمْ بَحْرًا مِنَ الدِّماءِ الحَمْراءِ الكَثيفَةِ.

لكِنَّ (ريو) لَمْ يَرْغَبْ بِالتَّفكيرِ كَثيرًا في هذا الأَمْرِ.

فَقَدْ أَحَسَّ في الدَّقائِقِ القَليلَةِ الَّتي قَضاها مَعَ (وايت بيك)، بِرابِطٍ عَميقٍ بَيْنَهُما، حَتّى إنَّه ما زال يَسْمَعُ صَداهُ خافِتًا في قَلْبِهِ؛ لِذا فَالتَّفكيرُ بِأَنَّ شَخْصًا ما، أَوْ شَيئًا ما، يُمْكِنُ أَنْ يُؤْذِيَها

جَعَلَ أحْشاءَهُ تَنْقَبِضُ، وَبَعْدَ أنِ الْتقى بِها وَجْهًا لِوَجْهٍ، صارَ عَلى اسْتِعدادٍ لِفِعْلِ ما بِوُسْعِهِ لِيَعْتَنِيَ بِها. في اللَّيلِ، وَبَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ البَحْرِ، وَقَدْ سَفَعَتْهُ الشَّمْسُ، وَأنْهَكَهُ التَّعَبُ، وَأصابَهُ الدُّوارُ، اعْتادَ (ريو) أنْ يُخْرِجَ رَسْمَةَ أُمِّهِ.

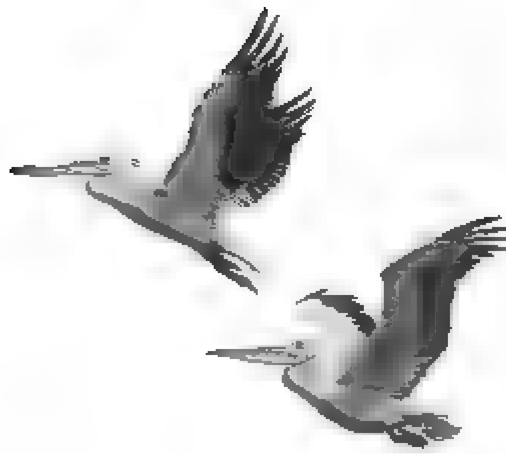
«سَأَعْتَني بِكِ،» عاهَدَ نَفْسَهُ: «سَأُبْقيكِ بِأمانٍ.»

في الحَقيقَةِ، لَمْ تَكُنْ لَدَيهِ أيُّ فِكْرَةٍ كَيفَ يُمْكِنُ لَهُ أنْ يَفْعَلَ هذا. لكِنَّهُ، عَلى الأقَلِّ، يَسْتَطيعُ أنْ يَتَتَبَّعَها عَبْرَ قاعِدَةِ بَياناتِ (happywhale). فَفي حينِ أنَّ العَديدَ مِنْ مُشاهَداتِ الحيتانِ جاءَتْ مِنْ رِحلاتٍ بَحرِيَّةٍ مُتَخَصِّصَةٍ، إلّا أنَّ قَدْرًا كَبيرًا منها جاءَ مِنْ أشْخاصٍ عادِيّينَ يُراقِبونَ الحيتانَ مِنْ عَلى الشّاطِئِ، بِلا عُدَّةٍ أوْ عَتادٍ إلّا مِنْ مِنظارٍ وَجُرْعَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ الصَّبْرِ. (بيرش) أيضًا، قالَ: إنَّ هُناكَ اسْمًا يُطْلَقُ عَليهِمْ. هذا الاسْمُ هُوَ: (هُواةُ العِلْمِ مِنَ المُواطِنينَ) (citizen scientists).

شَعَرَ (ريو) بِالفَخْرِ؛ لأنَّهُ انْضَمَّ إلى كَيانٍ أكْبَرَ مِنْ ذاتِهِ. لكِنَّ السَّبَبَ لَمْ يكُنْ هذا فَحَسْبُ، فَوُجودُهُ في الطَّبيعَةِ البَحرِيَّةِ، ومُراقَبَةِ الحيتانِ، أعادا *لَهُ* شَيئًا أيضًا. ولَمْ يَقْتَصِرْ ذلِكَ الشَّيءُ عَلى الإحْساسِ بِالسَّكينَةِ وَطَعْمِ المُغامَرَةِ، بَلْ أيضًا الدَّهْشَةِ. الدَّهْشَةِ الَّتي لا يَمْنَحُها لَكَ إلّا المُحيطُ.

لِوَقْتٍ طَويلٍ جِدًّا كانَ (ريو) قَلِقًا. عَلى أُمِّهِ في المَقامِ الأوَّلِ. فَمِنَ الصَّعْبِ ألّا يَشْعُرَ بِالقَلَقِ عَليها، وعَلى نَفْسِهِ أيضًا، وكيفَ يُمْكِنُ لِشَخْصٍ مِثْلِهِ أنْ يَتوافَقَ مَعَ عالَمٍ هُوَ في أغْلَبِ أوْقاتِهِ عالَمٌ ضَخْمٌ وَمُخيفٌ.

لكِنَّ (ريو)، وهُوَ عَلى مَتْنِ (سباي هوبر)، صارَ لَدَيْهِ أخيرًا إحْساسٌ بِالمَكانِ الَّذي يَنْتَمي إلَيهِ، والأهَمُّ مِنْ هذا، بِما يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَهُ لِيُقَدِّمَ المُساعَدَةَ.



الفصلُ الرّابعُ والعشرونَ

أوْقاتٌ سَعيدَةٌ

كانَتِ الأيامُ القَليلَةُ التّالِيَةُ مِنْ أسْعَدِ الأيّامِ في حَياةِ (ريو)، أيّامٌ كانَ يَتَمَنّى لَوْ أنّهُ يَستطيعُ أنْ يُعَبِّئَها في زُجاجَةٍ، وَيَضَعَها في مَكانٍ آمِنٍ حتّى يتَمَكّنَ مِنْ فَتْحِها في المُستَقبَلِ، ويعيشَ كُلَّ الذِّكرياتِ مَرّةً أُخْرى تِلْوَ مَرّةٍ تِلْوَ مَرّةٍ.

كانَتْ هُناكَ رِحْلَتانِ عَلى مَتْنِ القارِبِ كُلَّ يَومٍ. كُلُّ رِحْلَةٍ مُمْتَلِئَةٌ بِالسُّيّاحِ المُتَلَهّفينَ لِأَنْ يَلْمَحوا حوتًا. لكِنَّها بِالنِّسْبَةِ

(لِريو) لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ رِحْلَةٍ. بَلْ فُرْصَةٍ لِيُدْرِكَ الإنْسانُ الَّذي صارَ عَلَيهِ. كانَ (ريو) مُجَرَّدَ فَتًى، وَمَعَ ذلِكَ كانَ يَتَواصَلُ مَعَ واحِدٍ مِنْ أَضْخَمِ الحَيواناتِ في هذا الكَوْكَبِ. إنَّهُ أمْرٌ لا يَسْتَوْعِبُهُ عَقْلٌ. في كُلِّ مَرَّةٍ يَسْمَعُ فيها حوتًا، يَشْعُرُ بِوَخْزٍ في جِلْدِهِ كُلِّهِ.

بِالتَّأْكيدِ، عَلى الحوتِ أنْ يَكونَ قَريبًا مِنهُ، إلى حَدٍّ ما، كي يَسْمَعَهُ، لكِنَّ (بيرش) أَصَرَّ أنَّهُ بِفَضْلِ (ريو) ازْدادَ عَدَدُ المُشاهَداتِ الَّتي تَمَكَّنوا مِنْ تَحْقيقِها بِشَكْلٍ كَبيرٍ.

قالَ (بيرش) لَهُ ذاتَ يَومٍ: «أنْتَ تَصْنَعُ فارِقًا يا بُنَيَّ.»

لا يَتَذَكَّرُ (ريو) مَتى بَدَأَ (بيرش) يُناديهِ: بُنَيَّ، لكِنَّ الاسْمَ صارَ لَصيقًا بِهِ. في الحَقيقَةِ لَمْ يَكُنْ (ريو) لِيَعْتَرِضَ عَلى ذلِكَ. فَوالِدُهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ يَومًا أنَّهُ فَخورٌ بِهِ، لكِنَّ (بيرش) كانَ يُخْبِرُهُ بِهذا في كُلِّ رِحْلَةٍ بَحرِيَّةٍ.

ومِنْ جانِبِهِ، شَعَرَ (ريو) بالاعْتِدادِ بِنَفْسِهِ.

حينَ لا تكونُ (مارينا) في المَدرسَةِ، تَصْطَحِبُ (ريو) في جَوْلَةٍ حَولَ (أوشن باي)، لَيْسَ فَقَطْ الشَّوارِعُ المُشَجَّرَةُ المُكْتَظَّةُ بِالسُّياحِ، بَلْ أيضًا الأماكِنُ الَّتي لا يُمْكِنُ أنْ يَعْرِفَها سِوى شَخْصٍ يَعيشُ في البَلْدَةِ: جِدارُ الحَديقَةِ الَّذي رَسَمَ

أَحَدُهُمْ عَليهِ لَوْحَةٌ ضَخْمَةٌ لِسُلَحْفاةٍ، أَطْوَلُ نَخْلَةٍ في (أوشن باي) حيثُ نَحَتَتْ (مارينا)، ذاتَ يَومٍ، الحُروفَ الأولى مِنَ اسْمِها بِسكِّينَةِ والِدِها الصَّغيرَةِ، الفَتْحَةُ الصَّغيرَةُ في الطَّرفِ البَعيدِ مِنَ الرَّصيفِ البَحريِّ حيثُ يُمكِنُكَ، إنْ نَظَرْتَ مِنْ خِلالِها، أنْ تَرى أفْواجًا مِنَ السَّمَكِ تَسْبَحُ مِنْ تَحْتِكَ، وَمَحَلُّ المُثَلَّجاتِ السِّرِّيُّ، المُخْتَبِئُ بَعيدًا عَنِ الشّارِعِ الرَّئيسِيِّ، وَيبيعُ مُثَلَّجاتٍ مَحَلِّيَّةً بِأَلْفِ نَكْهَةٍ مُختلِفَةٍ.

كانَتْ تُثَرْثِرُ دونَ تَوَقُّفٍ. ولَمْ يُمانِعْ (ريو) هذا، فَلَطالَما كانَ مِنَ النَّوعِ الَّذي يَميلُ إلى الإنْصاتِ، وَعَلى عَكْسِهِ، بَدا أنَّ (مارينا) لَدَيْها مَخْزونٌ لا يَنْفَدُ مِنَ الكَلِماتِ. أخْبَرَتْهُ كَيفَ تَعَلَّمَتِ السِّباحَةَ قَبْلَ حتّى أنْ تَتَعَلَّمَ المَشْيَ، وأنَّها تَشْعُرُ بِراحَةٍ مَعَ الكائِناتِ البَحْرِيَّةِ أكْثَرَ مِمّا تَشْعُرُ بِهِ مَعَ البَشَرِ، وأنَّ أوَّلَ كَلِمةٍ نَطَقَتْ بِها كانَتْ "حوت". رُبَّما تكونُ حَياتُها مُختلِفَةً تمامًا عنْ حَياتِهِ، لكنَّها حَياةٌ بَسيطَةٌ أيضًا، كَعَلاقَتِها مَعَ والِدِها. وُجودُ (ريو) بِرِفْقَتِهِما جَعَلَهُ يَشْعُرُ بِأنَّ الحَوافَّ الخَشِنَةَ في روحِهِ بَدَأَتْ تَلينُ.

بينَ حينٍ وَآخَرَ، يَجلِسُ (ريو) عَلى مَتْنِ (سباي هوبر) فَيَلْمَحُ انْعِكاسَهُ في سَطْحِ الماءِ. في أسابيعَ قَليلَةٍ فَقَطْ، بَدا

أنَّهُ صارَ أقْوى، وصارَ لِوَجْهِهِ ذاتُ الوَهْجِ الذَّهَبِيِّ الّذي عَلى وَجْهِ (مارينا)، وصارَ لَدَيْهِ ثِقَةٌ في نَفْسِهِ، كانتْ غائبَةً عَنْ نَفْسِهِ القَديمَةِ الّتي في لندن.

ورغْمَ كُلِّ هذا، حينَ يَعودُ إلى فِراشِهِ في اللَّيلِ، كانَ لا يزالُ يَشْطُبُ على الأيّامِ في تَقْويمِهِ؛ لأنَّهُ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ عَدَدِ الحيتانِ الّتي سَمِعَها، أوِ الأيّامِ الجَيِّدَةِ الّتي قضاها في المُحيطِ، فإنَّ الألَمَ الّذي في صَدْرِهِ لَمْ يَخْتَفِ أبدًا. كيفَ يُمْكِنُ أنْ يَخْتَفِيَ؟ لَيْسَ وَأُمُّهُ في المُسْتَشْفى، ليسَ وَهُما مُفْتَرِقانِ لِأَطْوَلِ فَتْرَةٍ في حَياتِهِ. وافْتِقادُ شَخْصٍ ما، كَما اكْتَشَفَ (ريو)، هُوَ واحِدٌ مِنْ أصْعَبِ الأمورِ عَلى الإطْلاقِ.

ما زالَ عَليهِ الانْتظارُ لِثَلاثَةِ أيّامٍ حَتّى يَستَطيعَ الحَديثَ مَعَها؛ لِذا كانَ ثاني أفْضَلِ شَيءٍ يَفعلُهُ هُوَ الوُقوفُ عَلى أَثَرِ قَدَمَيْها، فَقَطْ لِيَرى إنْ كانَ بِمَقْدورِهِ، عَلى نَحْوٍ ما، اسْتِدْعاؤُها بِطَريقَةٍ سِحْرِيَّةٍ عَبْرَ ألْواحِ الأرْضِ الخَشَبِيَّةِ. كَما أنَّ لَدَيْهِ أخْبارًا جَديدَةً لِيُخْبِرَها بِها.

«لَنْ تُصَدِّقي يا أُمّي! لَقَدْ تَمَّ رَصْدُ وايت بيك!» هَمَسَ (ريو). «شَخْصٌ ما رَفَعَ صورَةً جَديدَةً لَها إلى قاعِدَةِ البَياناتِ.»

في الصَّباحِ الباكِرِ لِذلِكَ اليَومِ، عَرَضَتْ عَليهِ (مارينا)

بِحَماسٍ صورَةً (لوايت بيك) وهِيَ تُبْحِرُ بِأمانٍ بِمُحاذاةِ (لوس أنجلوس)، في طَريقِها إلى البُحَيراتِ الضَّحْلَةِ في المَكسيكِ. كانَتْ صورَةً قَديمَةً؛ لأنَّ مَنِ الْتَقَطَها احْتاجَ بِضْعَةَ أيّامٍ لِكَي يَرْفَعَها. لكنَّها لا تَزالُ واحِدَةً مِنْ أجْمَلِ الصُّوَرِ الَّتي رآها (ريو) في حَياتِهِ.

«أرَأَيْتِ يا أُمّي؟» تَمْتَمَ (ريو). «سَتَكونُ (وايت بيك) بِخَيرٍ، تَمامًا مِثْلَما سَتَكونينَ أنْتِ بِخيرٍ قَريبًا.»

سَمَحَ (ريو) لِنَفْسِهِ أنْ يَبْتَسِمَ، لا يَهُمُّ أنَّ أُمَّهُ لَمْ تَرُدَّ عَلى أيٍّ مِنَ الرَّسائلِ الَّتي أرْسَلَها بِالبَريدِ الإلكترونيِّ حَتّى الآنَ. فَمِنَ المُقَرَّرِ أنْ يَتَحَدَّثَ مَعها في غُضونِ ثَلاثَةِ أيّامٍ. وَسَيقولُ لَها حينَها كُلَّ شَيءٍ.



الفصلُ الخامسُ والعشرونَ

فـران

كانَ الجَوُّ عاصِفًا، وَلَمْ يَسْمَحْ بِرِحْلَةٍ بَحريَّةٍ بِالقارِبِ؛ لِذا فقدْ بَقِيَ (ريو) في البَيتِ مَعَ جَدَّتِهِ. طَنَّتِ الأفْكارُ وَدارَتْ في عَقْلِهِ وَهُوَ يَتَخَيَّلُ ما قَدْ تَقولُهُ أُمُّهُ عَنْ كُلِّ الصُّوَرِ الَّتي أَرْسَلَها لَها. البَهْجَةُ في نَبْرَةِ صَوْتِها، ضَحكَتُها وَهِيَ تَشْرَحُ لَهُ كيفَ أَثَّرَتْ فيها رُؤيَةُ (وايت بيك) مِنْ جَديدٍ، وأَشْعَلَتْ شيئًا ما في قَلْبِها. كيفَ أنَّها-

«ريو؟» قَطَعَتِ (فران) حَبْلَ أَفْكارِهِ: «هَلْ تُنْصِتُ إلَيَّ؟»

تلاشَتْ صورَةُ أُمِّهِ، وَبَدَلًا مِنْها رَأى وَجْهَ جَدَّتِهِ يُطالِعُهُ مِنْ فوقِ نَظّارَتِها. شَعَرَ أَنَّهُ صَعِدَ مِنْ قاعِ المُحيطِ، وَخَرَجَ إلى السَّطْحِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أسابيعَ. رَمَشَ عَيْنَيْهِ بِارْتِباكٍ.

«كُنْتُ أقولُ لِمَ لا تُخْبِرُني بِالمَزيدِ عَنْ رِحْلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ الَّتي شارَكْتَ فيها؟»

مُنْذُ رِحْلَتِهِ البَحريَّةِ الأولى، وَ(فران) مُتَحَمِّسَةٌ بِشَأْنِ مُغامَراتِ (ريو) في المُحيطِ. في كُلِّ مَرَّةٍ يَعودُ فيها إلى البَيتِ تَسْتَقْبِلُهُ بِوَجْبَةٍ ساخِنَةٍ، وَعَشراتِ الأَسْئِلَةِ الفُضوليَّةِ. لكنَّ مُراقَبَةَ الحيتانِ كانَتْ عَمَلًا مُرْهِقًا، والإصغاءَ لِلحيتانِ كانَ أكثَرَ صُعوبَةٍ. لَقَدِ اسْتَنْزَفَتْ هذِهِ الرِّحلاتُ كُلَّ قَطْرَةٍ مِنْ طاقَتِهِ. قالَتْ (مارينا) إنَّ هذا بِسَبَبِ المُحيطِ - لِلمحيطِ طَريقَتُهُ في ابْتِلاعِ كُلِّ شَيءٍ تَقْريبًا. كانَتْ كُلُّ هذِهِ الأمورِ تَجْعَلُ (ريو) يَتَثاءَبُ عادَةً حينَ تُواجِهُهُ جَدَّتُهُ بِاسْتِفْساراتِها، ثُمَّ يَخْتَفي هارِبًا إلى فِراشِهِ؛ لِيُرْسِلَ إلى أُمِّهِ رِسالَةً بَالبَريدِ الإلِكترونيِّ.

نَظَرَتْ إلَيهِ (فران) بِطَريقَةٍ مُرَحِّبَةٍ وَمُفْعَمَةٍ بِالأَمَلِ، بَينَما تَمَدَّدَ قُرْصانٌ عَلى حِجْرِها. ذَكَّرَتْهُ نَظَراتُها بِالسُّيّاحِ عَلى مَتْنِ

(سباي هوبر) وهُمْ يَسْتَعِدّونَ للانْطِلاقِ في رِحْلَةٍ بَحريَّةٍ.

أَحَسَّ بِشَيءٍ مِنَ الخَجَلِ. كانَتْ تَعْتَني بِهِ، وَتُطْعِمُهُ، وَتَغْسِلُ ثِيابَهُ، حَتّى إنَّها اشْتَرَتْ لَهُ هاتِفًا مَحْمولًا بَدَلًا مِنْ هاتِفِهِ الَّذي سَقَطَ مِنْهُ في البَحْرِ. وَما الَّذي قَدَّمَهُ لَها في المُقابِلِ؟

لَمْ يُخْبِرْها بِأيِّ شَيءٍ تَقريبًا، بِاسْتِثْناءِ الدَّعْوَةِ الَّتي تَلَقّاها لِيُصْبِحَ عُضْوًا في طاقِمِ القارِبِ. كانَ (بيرش) يَقولُ دائمًا إنَّ عَلاقَتَنا بِالمُحيطِ مَبْنِيَّةٌ عَلى الأَخْذِ وَالعَطاءِ؛ إنْ كُنّا نَتَوَقَّعُ مِنهُ أنْ يَعْتَنِيَ بِنا - أنْ يُطْعِمَنا، وَيَرْعانا، وَيُبْقينا آمِنينَ - إذَنْ فَيَجِبُ عَلَيْنا في المُقابِلِ أنْ نَعْتَنِيَ بِهِ.

فتحَ (ريو) هاتِفَهُ المَحْمولَ، وفَتَّشَ بينَ الصُّوَرِ الكَثيرَةِ قَبْلَ أنْ يَجِدَ الصّورَةَ الَّتي كانَ يَبْحَثُ عَنْها. بَعْدَ ذلِكَ مَرَّرَ الهاتِفَ بِرِفْقٍ نَحْوَ جَدَّتِهِ عَبْرَ الطّاوِلَةِ.

رفَعَتْ جَدَّتُهُ الهاتِفَ المَحْمولَ، ثُمَّ أَلْقَتْ بِهِ مَرَّةً أُخْرى مُقَعْقِعًا عَلى الطّاوِلَةِ: «هَلْ هذِهِ . . . *وايت بيك*؟»

أَوْمَأَ (ريو) مُوافِقًا. لَمْ يَكُنْ حَتّى مُتَأَكِّدًا مِنْ أنَّ (فران) تَعرِفُ شَيئًا عَنْ (وايت بيك)، ناهيكَ بِالتَّعَرُّفِ عَلَيها. رَقَّ شَيءٌ في قَلْبِهِ حينَ أزالَتْ نَظّارَتَها، وَمَسَحَتْ عَيْنَيها.

رَفَعَتْ هاتِفَهُ المَحْمولَ مَرَّةً أُخْرى: «كَيْفَ أُكَبِّرُ الصّورَةَ؟»

تَحَرَّكَ (ريو) حَوْلَ الطّاوِلَةِ إلى جِهَتِها، وَشَرَحَ لَها: «انْظُري، هذِهِ هِيَ النُّدوبُ الطُّفَيلِيَّةُ عَلى أَنْفِها، الَّتي نَسْتَخْدِمُها لِلتَّعَرُّفِ عَلَيها.»

ارْتَجَفَ صَوتُ (فران): «إِنَّها هِيَ حَقًّا. كَمْ أَحَبَّتْ أُمُّكَ هذِهِ الحوتَ. كَمْ جَعَلَتْها سَعيدَةً.»

فَكَّرَ (ريو). *لَمْ تَجْعَلْها سَعيدَةً فَحَسْبُ، بَلْ جَعَلَتْ حالَها أَفْضَلَ أَيضًا.*

جَذَبَ كُرْسِيًّا لِيُرِيَها بَقِيَّةَ الصّوَرِ عَلى هاتِفِهِ. لَيسَ فَقَطْ صُوَرُ (وايت بيك)، بَلْ كُلُّ الحيتانِ الأُخْرى الَّتي رَآها مُنْذُ وُصولِهِ كاليفورنيا. ولِوَقْتٍ طَويلٍ، جَلَسَ الحَفيدُ مَعَ جَدَّتِهِ كَتِفًا إلى كَتِفٍ عَلى الطّاوِلَةِ، تَنْقُرُ أَصابِعُهُما الصّوَرَ الَّتي في الهاتِفِ.

عَلَّقَتِ (فران): «فَقَطْ تَخَيَّلْ هَذا، في الوَقْتِ الَّذي سَتَعودُ فيهِ إلى لندن، سَتَكونُ (وايت بيك) في إِحْدى البُحيراتِ الضَّحْلَةِ. آمَلُ، إِنْ كُنّا مَحْظوظينَ، أَنْ تُنْجِبَ حوتًا صَغيرًا أَيضًا.»

جَفَلَ (ريو) حينَ سَمِعَ كَلِماتِ جَدَّتِهِ، وانْتَصَبَ في جِلْسَتِهِ. *سَيَعودُ إلى لندن في غُضونِ أُسْبوعٍ واحِدٍ!*

كيفَ مَضى الوَقتُ بِمِثْلِ هذِهِ السُّرْعَةِ الخاطِفَةِ؟ كانَ يَتَطَلَّعُ



إلى العَودَةِ إلى لندن مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ. لكِنِ الآنَ، وقَدْ صارَ هذا وَشيكًا، لَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ ما يُريدُهُ. بِالطَّبْعِ كانَ مُتَحَمِّسًا لِلعَوْدَةِ. لكِنَّهُ حينَ نَظَرَ إلى صورَةِ (وايت بيك) مِنْ جَديدٍ، اخْتَقَنَتْ أحْشاؤُهُ بِشَيءٍ آخَرَ، شَيءٍ ناتِئٍ وَصَلْبٍ وَمُؤلِمٍ.

أكْمَلَتِ (فران): «بإذنِ اللهِ، إنْ صارَ لَدى (وايت بيك) حوتٌ صَغيرٌ، فَهذا يَعْني أنَّ الاثْنينِ سَيَتِمُّ رَصْدُهُما وَهُما يَمُرّانِ بِجانِبِ (أوشن باي) في طَريقِهِما إلى الشَّمالِ. كانَتْ أُمُّكَ تُحِبُّ رُؤيَةَ صِغارِ الحيتانِ.»

«لِماذا رَحَلَتْ؟» سَأَلَها (ريو) فَجْأَةً.

«لا يَبْقى أيٌّ مِنَ الحيتانِ طَويلًا في البُحيراتِ الضَّحْلَةِــــــ»

«لا!» قالَ بِحِدَّةٍ: «أُمّي، لِماذا رَحَلَتْ أُمّي عَنْ (أوشن باي) إنْ كانَتْ تُحِبُّ هذا المَكانَ كَثيرًا؟»

بَدَتِ (فران) مُتَفاجِئَةً. مَسَّدَتْ أُذُنَي قُرْصانَ قَبْلَ أنْ تُجيبَ.

«لِأَنَّ أُمَّكَ فازَتْ بِمِنْحَةٍ لِدِراسَةِ الموسيقى،» قالَتْ أخيرًا: «كانَ هذا أصْعَبُ قَرارٍ في حَياتِها. أنْ تَرْحَلَ وَتَتْبَعَ موسيقاها، أَوْ أنْ تَبْقى هُنا. في النِّهايَةِ انْتَصَرَتِ الموسيقى.»

«لكنْ ماذا لَوْ بَقِيَتْ هُنا؟» سَأَلَ (ريو) بِصَوْتٍ صَغيرٍ: «ماذا لَوْ بَقِيَتْ في مَكانِها السَّعيدِ؟»

أَخَذَتِ (فران) بِحِدَّةٍ نَفَسًا عَميقًا: «تَقْصِدُ، هَلْ كانَتِ الأمورُ سَتَخْتَلِفُ؟»

نَظَرَ (ريو) إلى الطّاوِلَةِ لِوَقْتٍ طَويلٍ قَبْلَ أنْ يومِئَ مُوافِقًا. اسْتَمَعَ إلى جَدَّتِهِ وَهِيَ تُمَسِّدُ رَأْسَ قُرْصانَ بِحَرَكاتٍ مُنْضَبِطَةٍ

الإيقاعِ، حَتّى تَجَرَّأَ وَرَفَعَ نَحْوَها عَينَيهِ.

كانَتِ النَّظْرَةُ الَّتي عَلَتْ وَجْهَ جَدَّتِهِ نَظْرَةً لَمْ يَرَها مِنْ قَبْلُ. لكِنَّها، رغْمَ ذلِك، كانَتْ نَظْرَةً يَعْرِفُها جَيِّدًا. لأنَّها النَّظْرَةُ الَّتي كانَ يَراها كُلَّ يَوْمٍ في المِرآةِ طيلَةَ الأشْهُرِ القَليلَةِ الماضِيَةِ. نَظْرَةً بَريئَةً، وَمُتَجَرِّدَةً، وَخائِفَةً.

رَفَعَتِ (فران) نَظّارَتَها، وَفَرَكَتْ عَينَيها بِتَعَبٍ.

«لِأَكونَ صَريحَةً مَعَكَ يا (ريو). لا أَحَدَ يَعرِفُ ما الَّذي كانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَحْدُثَ لَوْ لَمْ تَرْحَلْ.» قالَتِ (فران) بِهدوءٍ: «لكِنْ هُناكَ شَيءٌ واحِدٌ أكيدٌ: إنَّهُ شِجاري مَعَها؛ لأنَّها اخْتارَتْ أَلّا تَعودَ. حَسنًا، كانَ هذا أكبَرُ خَطَأٍ عَلى الإطْلاقِ.»



الفصلُ السّادسُ والعشرونَ

أخْبـارٌ سَيِّئَةٌ

في مَساءِ يَومِ الأحَدِ، انْتَظَرَ (ريو) رَنينَ الهاتِفِ، وخَليطٌ مِنَ المَشاعِرِ يَتَقَلَّبُ في مَعِدَتِهِ. لَمْ تَكُنْ والِدَتُهُ قَدْ رَدَّتْ بَعْدُ عَلى رَسائِلِهِ بِالبَريدِ الإلكترونيِّ، لكِنْ لا يَهُمُّ، سَيَتَحَدَّثُ مَعَها عَنِ الحيتانِ. سَيَتَحَدَّثُ بِبُطْءٍ وَوُضوحٍ وَيُخْبِرُها بِكُلِّ شَيءٍ حَدَثَ لَهُ طيلَةَ الأسابيعِ القَليلَةِ الماضِيَةِ بَدْءًا مِنْ قُدْرَتِهِ عَلى سَماعِ الحيتانِ، وَالدَّعْوَةِ الَّتي تَلَقّاها للانْضِمامِ إلى

طاقِمِ (سباي هوبر).

لأوّلِ مَرّةٍ مُنْذُ وُصولِهِ إلى (أوشن باي) لا يَشْعُرُ بِأنّهُ بَعيدٌ تَمامًا عَنْها. حتّى إنّهُ راحَ يُدَنْدِنُ لِنَفْسِهِ لَحْنًا صَغيرًا بِصَوْتٍ خافِتٍ.

دَبّتِ الحَياةُ في الهاتِفِ. قَفَزَ قَلْبُ (ريو). سَمِعَ (فران) وهِيَ تُجيبُ الاتِّصالَ. وَبَعْدَها . . . وَبَعْدَها . . .

ما الّذي جَعَلَها تَسْتَغْرِقُ كُلَّ هذا الوَقْتِ؟

بَدَلًا مِنْ أنْ تُمَرِّرَ لَهُ الهاتِفَ، حَشَرَتِ (فران) نَفْسَها في زاوِيَةِ المَطْبَخِ البَعيدَةِ، وَأمْسَكَتْ سَمّاعَةَ الهاتِفِ بِإحْكامٍ إلى أُذُنِها.

خَفَضَتْ صَوْتَها: «ماذا؟ أوه، فَهِمْتُ. حَسَنًا . . . إلى مَتى؟»

تَحَدَّثَتْ جَدَّتُهُ بِنَبْرَةٍ لَمْ يَسْبِقْ أنْ سَمِعَها (ريو) مِنْ قَبْلُ. كانَتِ النَّبْرَةُ الّتي قَدْ يَسْتَخْدِمُها شَخْصٌ حينَ يَتَوَقَّعُ أخْبارًا سَيِّئَةً. نَبْرَةٌ جَعَلَتْ مِعِدَتَهُ تَضْطَرِبُ وَحَلْقَهُ يَحْتَقِنُ.

«فَهِمْتُ.» نظَرَتْ (فران) إلى (ريو) بسُرعَةٍ، قَبْلَ أنْ تَخْطُوَ إلى الرَّدْهَةِ، وتُغلِقَ بابَ المَطْبَخِ بِرِفْقٍ. اسْتَطاعَ رُؤْيَةَ إطارِ جَسَدِها الخارِجِيِّ عَبْرَ الزُّجاجِ كانَ مُخْتَلِفًا تَمامًا عَنْ

إطارِ جَسَدِ والِدَتِهِ الضَّئيلِ   لكِنَّهُ، عَلى أيَّةِ حالٍ صارَ، مُعْتادًا عَليهِ. تَحَرَّكَ مُقْتَرِبًا مِنَ البابِ. وَرُغْمَ كُلِّ مُحاوَلاتِهِ الإصْغاءَ بِشِدَّةٍ، لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يُمَيِّزَ شَيئًا بِاسْتِثْناءِ دَمْدَماتِ صوتِها الخَفيضَةِ.

في النِّهايَةِ، عادَتِ (فران) وجَلَسَتْ أمامَ الطّاوِلَةِ. راحَتْ تَلُفُّ خاتَمَ زَواجِها حَولَ إصْبَعِها مِرارًا وتَكْرارًا قَبْلَ أنْ تَرفَعَ نَظَرَها إلَيهِ أخيرًا: «إنَّهُ الطَّبيبُ . . .» صَمَتَتْ كأنَّها تُحاوِلُ انْتِقاءَ الكَلِماتِ الصَّحيحةِ. «لِلأسَفِ، لَنْ تَتَّصِلَ بِكَ والِدَتُكَ اليَومَ.»

«لَنْ تَتَّصِلَ بي اليَومَ؟» بَلَعَ (ريو) ريقَهُ. «هَلْ تَقْصِدينَ أنَّها سَتَتَّصِلُ غَدًا بَدَلًا مِنْ هذا؟ هَلْ يُمْكِنُني الحَديثُ مَعَها في الغَدِ؟»

هزَّتِ (فران) رأسَها: «الأمْرُ وما فيهِ . . . الطَّبيبُ الَّذي يُعالِجُ أُمَّكَ في العِيادَةِ يَقولُ إنَّها قَدِ اتَّخَذَتْ مُنْعَطَفًا صَغيرًا لِلغايَةِ نَحْوَ الأسْوَأِ . . . وإنَّ هُناكَ احْتِماليَّةَ أنْ تَضْطَرَّ إلى البَقاءِ لِبِضْعَةِ أسابيعَ أُخْرى.»

أسابيعُ؟ أُخْرى؟ حَدَّقَ (ريو) في يَأْسٍ إلى جَدَّتِهِ. *أُمُّهُ سَتَبْقى هُناكَ؟ حالَتُها تَزْدادُ سوءًا؟*

«لـ-لـ-لكِنْ كانَ مِنَ المُفْتَرَضِ أنْ تَتَحَسَّنَ!» صاحَ (ريو): «الصُّوَرُ! لَقَدْ أرْسَلْتُ لَها الصُّوَرَ!»

«أيُّ صُوَرٍ؟» سَأَلَتْهُ (فران)

«صُوَرُ وايت بيك!» أجابَ بِغَضَبٍ، مُدرْكًا أنَّهُ كانَ يَصْرُخُ، لكِنَّهُ كانَ عاجِزًا عَنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ: «كُنْتُ أُرْسِلُ إلَيْها كُلَّ لَيلَةٍ صُوَرَ وايت بيك والحيتانِ!»

«كُنْتَ تُرسِلُ الصُّوَرَ؟» بَدَتِ (فران) مُسْتَغْرِبَةً. «لكِنْ لِماذا؟»

أَحَسَّ (ريو) بِمَخالِبَ تُمَزِّقُ قَلْبَهُ وَتُقَطِّعَهُ. أرادَ، بِقَبْضَةِ يَدِهِ، أنْ يَضْرِبَ الطّاوِلَةَ، أنْ يَضْرِبَ نَفْسَهُ، أنْ يَضْرِبَ العالَمَ: «لأنَّ الحيتانَ كانَتْ تَجْعَلُها سَعيدَةً!» قالَ بِيَأْسٍ: «أنتِ قُلْتِ هذا بِنَفْسِكِ! قلْتِ إنَّها كانَتْ أكثَرَ شَيءٍ ساحِرٍ رَأَتْهُ في حَياتِها، إنَّها جَعَلَتْ قَلْبَها يَبْتَسِمُ! وأنا ظَنَنْتُ...»

«أوه، يا (ريو)،» قالَتْ بِصوتٍ رَقيقٍ. «أوه، يا طِفْلي العَزيزَ.»

«والآنَ عَلَيَّ أنْ أَبْقى هُنا!» صاحَ، غَيْرَ قادِرٍ عَلى تَحَمُّلِ نَظْرَتِها المُشْفِقَةِ. «عَلَيَّ أنْ أَبْقى هُنا بَينَما هِيَ هُناكَ، ولا يُمْكِنُني . . . لا يُمْكِنُني أنْ أفعَلَ أيَّ شَيءٍ لِمُساعَدَتِها!»

انْحَنَتْ جَدَّتُهُ، وأمْسَكَتْ بِكَتِفَيهِ. مالَتْ إلى الأمامِ مُقْتَرِبَةً مِنهُ أكثَرَ حتّى صارَ بِاسْتِطاعَتِهِ أنْ يَشُمَّ رائحَةَ النَّعْناعِ في أنْفاسِها. «اسْمَعْني يا (ريو). لا يوجَدُ شَيءٌ تَفْعَلُهُ بِإمْكانِهِ أنْ يُحَسِّنَ مِنْ حالَةِ والِدَتِكَ. هَلْ تَسْمَعُني؟ وهذا لَيْسَ لأنَّكَ لا تُحِبُّها، أنا *أعْرِفُ* أنَّكَ تُحِبُّها.» صَمَتَتْ قَليلًا. «لكِنْ، لَمْ تَكُنْ أبَدًا *أبَدًا* مَسْؤولِيَّتُكَ أنْ تَجْعَلَ حالَتَها أحْسَنَ.»

«كيفَ تَجْرُئينَ عَلى قولِ هذا!» زَأَرَ في وَجْهِها. خَلَّصَ كَتِفَيهِ مِنْ يَدَيْها، لَمْ يَسْتَطِعْ إيقافَ كَلِماتِهِ المُتَدافِعَةِ. «إنَّكَ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ العالَمِ! لَمْ تَكوني قَطُّ في لندن مِنْ أجْلِها مِثْلَما كُنْتُ أنا!»

فَتَحَتْ جَدَّتُهُ فَمَها لِتُجيبَهُ، لكِنْ لَمْ يَخْرُجْ شَيءٌ. بَدَلًا مِنْ هذا ظَهَرَتْ بُقْعَتَينِ حَمْراوَيْنِ عَلى وَجْنَتَيها، ومَعَ ذلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ (ريو) التَّوَقُّفَ.

«أنْتِ حتّى لا تَعرفينَ كيفَ تَسيرُ الأمورُ!» صاحَ باكِيًا. «أنا مَنْ كانَ مَعَها طيلَةَ الوَقْتِ. أنا مَنْ يُعِدُّ لَها أكْوابَ الشّاي في مُنْتَصَفِ اللَّيلِ حينَ لا تَسْتَطيعُ النَّوْمَ. أنا مَنْ يَشْتَري لَها بَسْكويتَ الزَّنْجبيلِ؛ لأنَّها تَرْفُضُ أنْ تَأكُلَ أيَّ شَيءٍ آخَرَ! أنا مَنْ يُمْسِكُ بِيَدِها عِنْدَما تَبْكي. لَيسَ أنْتِ!» صَرَخَ

عالِيًا. « لَمْ تَكُنْ أَبَدًا *أَبَدًا* مَسْؤولِيَّتَكِ أَنْتِ!»

نَدَّ عَنْ جَدَّتِهِ صَرْخَةٌ خافِتَةٌ. ذلِكَ النَّوعُ مِنَ الصَّرَخاتِ الَّتي قَدْ يُطْلِقُها حَيوانٌ جَريحٌ. وعِنْدَها رَكَضَ (ريو) صاعِدًا الدَّرَجاتِ إلى غُرْفَتِهِ، صَفَقَ البابَ وَراءَهُ، وَأَلْقي بِنَفْسِهِ عَلى السَّريرِ.



الفصلُ السّابع والعشرونَ

اخْتِفاءٌ

في صَباحِ اليومِ التّالي استيقَظَ (ريو) باكِرًا وقدْ قَرَّرَ أنْ يَتَسَلَّلَ إلى خارجِ البيتِ قَبْلَ حَتّى أنْ تَستيقظَ (فران).

لكِنَّ الحَظَّ لَمْ يُحالِفْهُ.

لقَدْ وَجَدَها جالِسَةً إلى طاولَةِ المَطبخِ، ولَوْلا أنَّها بَدَّلَتْ مَلابسَها لَظَنَّ أنَّها بقيَتْ هُناكَ طيلَةَ اللَّيلِ. كانتْ مُنحنِيَةً على كوبٍ مِنَ القَهوَةِ، وَقُرصانُ يَلْكُزُ كَتِفَها بِرِفْقٍ مُحاوِلًا جَذْبَ

انْتِباهِها إليهِ. تَساءلَ (ريو) إنْ كانَ مِنَ الواجِبِ عَليهِ أنْ يَعتذِرَ. هذا هوَ الفِعْلُ المناسِبُ. الفِعْلُ *الصَّحيحُ*. لكنَّهُ بِطريقَةٍ ما لَمْ يَستَطِعْ حَمْلَ نَفْسِهِ على الاعتِذارِ. كانَ صوتُ الألَمِ والغضَبِ الكامِنَينِ في أعماقِهِ عالِيًا لِلغايَةِ، حتّى إنَّهُ حَجَبَ كُلَّ الكَلِماتِ الأُخْرى الّتي أرادَتْ أنْ تخرُجَ مِنْ فَمِهِ.

بدلًا مِنَ الاعْتِذارِ، مَشى بِهدوءٍ مُتَجاوِزًا الطّاوِلَةَ وهُوَ يأمُلُ ألّا تُلاحظَهُ.

«ريو؟ بِشأنِ اللَّيلةِ الماضِيَةِ . . .»

«لا أُريدُ أنْ أتَحَدَّثَ عَنِ الأمْرِ،» أجابَها مُتَمْتِمًا. ومِنْ دونِ حَتّى أنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ عَناءَ الالْتِفاتِ إلَيها، اندَفَعَ خارِجًا مِنَ البابِ الخَلفِيِّ، يَتبَعُهُ صَوتُ مُواءِ قُرْصانَ طويلًا وحَزينًا.

في الخارِجِ، كانَتْ حالَةُ الطَّقْسِ مُطابِقَةً لِمِزاجِ (ريو). السَّماءُ مُلَبَّدَةٌ ورَمادِيَّةٌ، لَمْ يتمَكَّنْ حَتّى مِنْ رُؤيَةِ أينَ انْتَهى المُحيطُ وأينَ بَدأتِ الغُيومُ. بَدا كُلُّ شَيءٍ كَكُتْلَةٍ رَمادِيَّةٍ واحدَةٍ مِنَ الفَوْضى المُتَشابكَةِ، ترتفِعُ عالِيًا، ثُمَّ تهبِطُ في شَهَقاتٍ عَنيفةٍ غاضِبَةٍ.

هذِهِ هِيَ المَرَّةُ الأولى الّتي يَرى فيها المُحيطَ غاضِبًا.

مَشى (ريو) على طولِ الشّاطِئِ. أَحَسَّ أنَّ هذا يُلائمُهُ. أُمُّهُ لا

تَتَحَسَّنُ، بَلْ تَزدادُ سوءًا، وهذِهِ المَرَّةُ لا يعرفُ حَتّى مَتى سَيعودُ إلى لندن. لا يَعني هذا أنَّهُ يَكرَهُ المَكانَ هُنا. لقَدْ أَحَبَّ المُحيطَ. وأَحَبَّ الحيتانَ. وأَحَبَّ كَونَهُ فَرْدًا في طاقِمِ (سباي هوبر). لكنَّهُ كانَ سَيُحِبُّ كُلَّ هذا أكْثَرَ بِكَثيرٍ لو كانَتْ أُمُّهُ هُنا مَعَهُ.

تكسَّرَتْ مَوجَةٌ عَلى الشّاطِئِ فَتناثَرَ رَذاذُ الماءِ المالحِ عَلى وَجْهِ (ريو). جَعَلَ ذلِكَ عَينَيْهِ تَحْرِقانِه. فَرَكَهُما بِغَضَبٍ. وحينَ نَظَرَ إلى الأعْلى، وتَمَكَّنَ مِنَ الرُّؤْيَةِ مُجَدَّدًا، أدرَكَ أنَّهُ صارَ في الميناءِ. كأنَّ بوصَلَةً مُمَغْنَطَةً جَذَبَتْهُ ناحِيَةَ (سباي هوبر) وكُلِّ ما يُمَثِّلُهُ بِالنِّسْبَةِ لَهُ. فَهُوَ لَيسَ مُجَرَّدَ قاربٍ، بَلْ وَسيلَةٍ مِنْ أجْلِ *الهُروبِ*. مكانٌ يُمْكِنُهُ أنْ يُغلِقَ فيهِ عَينيهِ، وَيتَخَيَّلَ أنَّ كُلَّ شيءٍ في العالَمِ عَلى ما يُرامُ.

اليومُ، وبِفِعْلِ الرِّيحِ، كانَتِ القَوارِبُ تَرْتَطِمُ بِبَعْضِها بَعْضًا، والصَّواري تَهتزُّ وتُصدِرُ قَعْقَعَةً وصَريرًا. كانَ هُناكَ عَددٌ قَليلٌ مِنَ الصَّيّادينَ وَعددٌ أَقَلُّ مِنَ السُّيّاحِ.

لكِنْ هُناكَ، كانَتْ (سباي هوبر)، تتأرْجَحُ في مَرْساها، لكنَّها حاضِرَةٌ بِصَلابَةٍ وَطُمأنينَةٍ. قَطَعَ المَسافَةَ الَّتي تَفْصِلُهُ عَنِ القارِبِ في حَرَكَةٍ ما بينَ الرَّكْضِ وَالهَرْوَلَةِ، قَبْلَ أنْ يَتوقَّفَ بِشَكلٍ مُفاجِئٍ. كانَ بِمقدورِهِ أنْ يَرى ضَوْءًا أصفَرَ دافِئًا بِداخِلِ

مَقصورَةِ القِيادَةِ.

«مَرْحَـــــــبًا!» نادى بِصَوتٍ عالٍ، لكنَّ صَوتَهُ انْجَرَفَ مَعَ الرِّياحِ. **«مرحبًا!»**

كانَ مِنَ المُستحيلِ أنْ يَسمَعَهُ أحَدٌ؛ لِذا قفزَ (ريو) إلى مَتْنِ القاربِ وهوَ يشعُرُ بِبرودَةِ سَطْحِهِ تحتَ قَدمَيهِ العارِيتينِ. كانَ قدْ جاءَ إليهِ مَرّاتٍ عَديدةً خِلالَ الأسبوعينِ الماضيينِ، إلّا أنَّهُ لا يزالُ يَشعرُ بِنَفْسِ الإثارَةِ الصَّغيرةِ في كُلِّ مَرَّةٍ يَخطو فيها على مَتْنِهِ.

«مارينا؟» نادى عاليًا. هذِهِ المَرَّةُ انْفَتَحَ بابُ المَقصورَةِ، وأطَلَّ منهُ رأسُها بِشعرِها الأشقرِ الطّويلِ، أشعَثَ وجامِحًا.

«ريو! كنْتُ عَلى وَشَكِ الذَّهابِ إلى المدرسةِ.» صاحَتْ في حَماسٍ. اتَّسعَتْ عَيناها عِندَما رأتِ التَّعبيرَ المُرتَسِمَ عَلى وجهِهِ. «لكنْ . . . تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ.»

تَبِعَها إلى داخِلِ المَقْصورَةِ. كانَتِ المَقصورَةُ دافِئَةً وَمريحَةً رغمَ الرِّياحِ. ألْقى بِجَسَدِهِ عَلى المقعَدِ.

سَألَها «أينَ بيرش؟»

«ذَهبَ لِيحضِرَ بعضَ الإمداداتِ. عَنْدما يكونُ الطَّقسُ سَيِّئًا هكَذا يستغِلُّ الوَقتَ لِإعادَةِ تَعبِئَةِ مَخزونِ القاربِ مِنَ المُؤَنِ،

وإجراءِ كُلِّ الإِصْلاحاتِ الضَّرورِيَّةِ.»

انْشَغَلَتْ (مارينا) عندَ المَوقِدِ. مَلأَتِ الإِناءَ بِالحَليبِ، وأَعَدَّتِ الشّوكولاتَةَ السّاخِنَةَ. كانَتِ الأَصْواتُ تَبعَثُ في النَّفْسِ الرّاحَةَ والطُّمأنينَةَ. حينَ انْتَهَتْ مِنْ إعدادِ المَشروبِ، جلَسَتْ عَلى المقعَدِ قُبالَةَ (ريو) وناوَلَتْهُ شَرابَ الشّوكولاتَةِ السّاخِنَةِ. «أنتَ تعرِفُ . . . إنْ أردْتَ التَّحَدُّثَ عَنْ أيِّ شيءٍ، فَأنا مُستمِعَةٌ جَيِّدَةٌ،» قالَتْ لَهُ بِهدوءٍ. «أُقْسِمُ لَكَ أمامَ المُحيطِ أنَّني لَنْ أخبِرَ أحَدًا. ولا حَتّى أبي.»

ضَمَّ (ريو) الكوبَ بِيدَيهِ. لَمْ يتحَدَّثْ عَنْ أمِّهِ مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. لَمْ يعرِفْ مِنْ أينَ يَبدَأُ. كانَتِ الكلماتُ عالِقَةً في مكانٍ ما عميقٍ لِلغايَةِ في داخِلِهِ، حَتّى إنَّها صارَتْ مُعقَّدَةً ومُتشابِكَةً.

هَلْ بإمكانِهِ أنْ يَثِقَ (بمارينا)؟ أنْ يَثِقَ بِها حَقًّا؟

هلْ خَذَلَتْهُ مِنْ قَبْلُ؟ لا. لَمْ تفعَلْ هذا وَلا لِمَرَّةٍ واحدةٍ مُنذُ لِقائِهِما، وقدْ عَثَرَتْ على لَوحَةِ (وايت بيك) وأعادَتْها لَهُ. بَلْ إنَّها صَدَّقَتْهُ بِشأنِ سَماعِهِ لِلحيتانِ دونَ أدْنى تَرَدُّدٍ حَقيقيٍّ.

صَمَتَ (ريو). كانَ قلبُهُ يَطْرُقُ بِسرعَةٍ، وَكَفّاهُ مُتَعَرِّقَتانِ. أَخَذَ نَفَسًا عَميقًا مُرتَجِفًا. حينَ صارَ عَلى وَشَكِ الكَلامِ، سَمِعا صَوتَ ارْتِطامٍ مُرتفِعٍ بِالخارِجِ.

«مِنَ الأفْضَلِ أنْ أذهَبَ لِلتَّحَقُّقِ مِنَ الأمْرِ» قالَتْ (مارينا): «رُبَّما سَقطَ شيءٌ ما بِفِعْلِ الرِّياحِ.»

فَجأةً، صارَ (ريو) وحيدًا في المَقصورَةِ، واخْتَفَتْ كُلُّ الكلماتِ الَّتي كانَ عَلى وَشَكِ أنْ يَقولَها. عادَتْ (مارينا) بعدَ وقتٍ قصيرٍ، وأدخَلَتْ مَعَها هَبَّةَ هَواءٍ باردَةً إلى المَقصورَةِ. جلسَتْ في مقعَدِها، وسألَتْهُ: «ما الَّذي كُنّا نتحدَّثُ عنهُ؟»

«كُنّا عَلى وَشَكِ تَحديثِ قاعِدَةِ البَياناتِ.»

«*كُنّا سَنفعَلُ هذا؟*» تَساءلَتْ. لكِنَّها حينَ رأتِ التَّعبيرَ المُتَجَمِّدَ عَلى وجهِهِ، قالَتْ: «بِالطَّبْعِ كُنّا سَنفعلُ هذا.»

أخرجَتِ اللّابتوبَ مِنْ خزانَتِهِ الصَّغيرَةِ، ودخلَتْ إلى موقعِ (happywhale). تَنَهَّدَ (ريو) وقدْ أَحَسَّ بِالامْتِنانِ؛ لأنَّها لَمْ تُلِحَّ عَليهِ. «تَلَقَّينا لِلتَّوِّ مُشاهَداتِ اليومِ السّابِقِ؛ لِكَي نَقومَ بِتحميلِها.»

منذُ أنِ انْضَمَّ (ريو) إلى الطّاقِمِ صارَ أكثَرَ بَراعَةً في التَّمييزِ بينَ أنواعِ الحيتانِ المُختلِفَةِ. إنَّهُمْ بِشَكلٍ أساسِيٍّ يُحصونَ عددَ الحيتانِ الرَّماديَّةِ، لكنَّهُمْ يُدَوِّنونَ مُلاحظاتٍ عَنْ كُلِّ الأنواعِ المختلفَةِ. كانَ الحوتُ الأحدَبُ هُوَ الأسهَلُ في تَمييزِهِ بِبَطْنِهِ البَيضاءِ، وَحُبِّهِ لِصَفْعِ سَطْحِ الماءِ بِزُعْنُفَتِهِ الظَّهريَّةِ. ومعَ ذلكَ فإنَّ بعضَ الحيتانِ مِثْلَ الحوتِ الزُّعنُفيِّ وحوتِ (المينك) تكادُ

تبدو مُتطابِقَةً، والطَّريقةُ الوحيدَةُ لِلتَّمييزِ فيما بينَها هيَ الاخْتلافاتُ الصَّغيرَةُ في أطرافِ ذيولِها.

«عليكَ أنْ تَتَذَكَّرَ، هذا هو العَمودُ الَّذي نضعُ فيهِ مُشاهَداتِ الحيتانِ الفَرديَّةِ الَّتي نعرفُ كَثيرًا عَنها. ذلكَ الحوتُ الأَحْدَبُ هَلْ لاحظْتَ أنَّ هُناكَ بَعضَ الأجْزاءِ مَفقودَةٌ مِنْ ذَيلِهِ؟ تَبدو أَشْبَهَ بِالأصابِعِ، أَلَيْسَ كذلِكَ؟ رُبَّما حدَثَ هذا بِفعلِ مَراوحِ قارِبٍ.» قالَتْ، مُقَطِّبَةً حاجِبَيها في اشْمِئزازٍ.

جَفَلَ (ريو). «هَلْ يَحدُثُ هذا كَثيرًا؟»

أَوْمَأَتْ مُوافِقَةً: «أكثَرُ مِمّا يَعتَقِدُهُ النّاسُ. لِهذا السَّبَبِ لا يقودُ أبي القارِبَ بِسرعَةٍ كَبيرةٍ، ويَحرِصُ على ألّا يقترِبَ مِنْ أيٍّ مِنَ الحيتانِ. لِحُسْنِ الحَظِّ، لَمْ يُصَبْ هذا الحوتُ بِأَذًى شَديدٍ، ومِنْ وِجْهَةِ نَظَرِنا فَهذا يجعَلُ الحيتانَ سَهلَةَ التَّعَقُّبِ.»

نَقَرَتْ عَلى إحْدى صَفَحاتِ المَوقِعِ الَّتي تستعْرِضُ كُلَّ المُشاهداتِ المَعروفَةِ لِلحيتانِ الرَّماديَّةِ الَّتي يُمكِنُ تَمييزُها. رفعَتْ إلى الموقعِ الصُّوَرَ الَّتي الْتَقَطَتْها. كانَتْ على وَشْكِ أَنْ تُغلِقَ اللّابتوبَ عندَما أَوْقَفَها (ريو).

سأَلها: «هَلّا تَحقَّقْنا مِن (وايت بيك) حَتّى نَرى أينَ هِيَ الآنَ؟»

ابْتَسَمَتْ (مارينا). «فِكْرَةٌ جَيِّدَةٌ!»

وأُمُّهُ ضائعَةٌ أكثَرَ مِنْ أيِّ وَقْتٍ مَضى، يُمكِنُهُ عَلى الأقَلِّ أنْ يَتَتَبَّعَ حوتَها. لَمْ يكنْ هذا لَيُغْنيهِ عَنْ إنْقاذِ أمِّهِ. لكنَّهُ شيءٌ يَستطيعُ فِعْلَهُ.

قالَتْ (مارينا): «آخِرُ مُشاهَدَةٍ (لوايت بيك) كانَتْ في لوس أنجلوس - إنَّها هذِهِ النُّقطَةُ الزَّرقاءُ، هُناكَ - لكِنْ كانَ هذا قَبْلَ بِضعَةِ أيّامٍ. (سان دييجو) هيَ المكانُ التّالي الَّذي عادَةً ما نَتوقَّعُ رُؤْيَتَها فيه. غالِبًا ما نَتَلَقّى مُشاهَداتٍ مُؤَكَّدَةً عِنْدما تَمُرُّ الحيتانُ مِنْ هُناكَ.» نَقَرَتْ عَلى عمودٍ جَديدٍ، ثُمَّ كَشَّرَتْ.

«ما الخَطْبُ؟»

«لا توجَدُ مُشاهَداتٌ لَها في سان دييجو.»

«رُبَّما لَمْ يَنتَبِهْ لَها أحَدٌ.»

«أجَلْ، عَلى الأرجَحِ هذا ما حَدَثَ.» نَقَرَتْ عَلى بضعَةِ مَفاتيحَ. «دَعْنا نَتَحَقَّقْ مِنْ (إنسينادا) - إنَّها بَعْدَ حُدودِ المَكسيكِ بِقليلٍ.»

حَبَسَ (ريو) أنفاسَهُ بَينَما (مارينا) تَتَفَحَّصُ البَياناتِ. ثُمَّ قالَتْ: «لا، لا شَيءَ هُناكَ أيضًا.»

«لا شَكَّ أنَّها مَرَّتْ مِنْ هُناكَ دونَ أنْ يَراها أَحَدٌ.» أجابَها

(ريو)، وشيءٌ باردٌ وَرَطْبٌ يَنْزَلِقُ حَتَّى أسفَلِ ظَهْرِهِ كَحَبَّةِ بَرَدٍ.

«رُبَّما.» قالَتْ مارينا، وقدْ بَدَتْ غَيْرَ مُقتنعَةٍ تَمامًا.

«قُلْتِ بِنَفْسِكِ إنَّنا لا نَستطيعُ أنْ نُحْصِيَ كُلَّ حوتٍ.» قالَ (ريو) بِحَسْمٍ. «لَمْ يَرَها أَحَدٌ - هذا هُوَ كُلُّ ما في الأمْرِ.»

«هذا صَحيحٌ لكِنْ . . . لكِنَّ الحيتانَ الَّتي مِثْلُ (وايت بيك) يكونُ دائمًا مِنَ السَّهْلِ جِدًّا رَصْدُها، خاصَّةً أنَّ هُناكَ كَثيرًا مِنْ مُراقِبي الحيتانِ في تلكَ المنطقَةِ.» عَضَّتْ عَلى شَفَتِها: «إنَّهُ فَقَطْ مِنَ الغَريبِ ألّا يَرصُدَها أَحَدٌ مُنذُ مُغادَرَتِها لوس أنجلوس.»

«هَلْ بإمكانِكِ تَفَقُّدُ بَياناتِ البُحيراتِ الضَّحْلَةِ؟» سألَها في عُجالَةٍ. «رُبَّما تكونُ قَدْ وَصَلَتْ إلى هُناكَ.»

أومَأَتْ (مارينا) دونَ اقْتناعٍ. كانَتِ البُحيراتُ في الأساسِ بِرَكًا داخِلِيَّةً ضَحْلَةً وكَبيرَةً لِلغايَةِ؛ لِذا فَمِنَ الأسْهَلِ تَعَقُّبُ الحيتانِ بِداخِلِها.

هَزَّتْ رأسَها. «لا، لَمْ تَصِلْ هُناكَ. الوقْتُ مُبَكِّرٌ لِلغايَةِ عَلى أيِّ حالٍ. لَيسَ مِنَ المُفتَرَضِ أنْ تَصِلَ إلى هُناكَ بَعْدُ.»

«أينَ هِيَ؟» صاحَ (ريو). «لَيْسَ مِنَ المَعقولِ أنَّنا فَقَدْناها بِهذِهِ البَساطَةِ.»

في البدايَةِ، لَمْ يعتقِدْ أنَّ (مارينا) ستُجيبُهُ. عَوَتِ الرِّياحُ

وهَزَّتِ القاربَ. فَرَكَتْ (مارينا) وَجهَها بِتَعَبٍ.

«الأَمْرُ وما فيه يا (ريو) . . .» أدارَتْ وجْهَها لِتنظُرَ إلَيهِ، ثُمَّ أَخَذَتْ نَفَسًا عميقًا. «أحيانًا لا تَنْجَحُ الحيتانُ في إتمامِ الرِّحلَةِ.»

«ما-ما-ماذا تَقصِدينَ؟» بَلَعَ ريقَهُ بِقُوَّةٍ، استَقَرَّ شيءٌ سَميكٌ وَثقيلٌ في قاعِ مَعِدَتِهِ. «لا تنجَحُ في إتمامِ الرِّحلَةِ؟»

«تَحْدُثُ أَشْياءُ سَيِّئَةٌ.» قالَتْ بِهدوءٍ.

«أيُّ نَوعٍ مِنَ الأشياءِ؟»

«مِثْلُ ذلِكَ الحوتِ الأحدَبِ والطَّريقَةِ الَّتي تَأَذّى بِها ذيلُهُ، في بعضِ الأحيانِ . . . في بعضِ الأحيانِ تَحْدُثُ أمورٌ أَسْوَأُ مِنْ هذا.»

«أسوَأُ إلى أيِّ مَدى؟»

«الاصْطِدامُ بِالسُّفُنِ.» تَنَهَّدَتْ. «أوِ الشِّباكُ التّائِهَةُ، إنَّها شِباكُ الصَّيدِ الَّتي فَقَدَها أصْحابُها أوْ تَخَلَّصوا مِنْها، وتَبْقى عائِمَةً في قاعِ المُحيطِ. البلاستيكُ، التَّجارِبُ النَّوَوِيَّةُ، التَّنْقيبُ عَنِ النِّفْطِ تحتَ الأرضِ . . . التَّلَوُّثُ الضَّوضائيُّ».

لقدْ جاءَ (ريو) مِنَ المَدينَةِ؛ لِذا فهوَ يَعرِفُ كُلَّ شَيءٍ عَنِ الضَّوضاءِ. *لكِنَّ البحرَ؟* لا شَكَّ أنَّ قاعَ المحيطِ هُوَ أهدَأُ مَكانٍ عَلى وَجْهِ الأرضِ؟

«كَثيرٌ مِنَ السُّفُنِ تُصْدِرُ نفْسَ الضُجيجِ الّذي تُصْدِرُهُ الحيتانُ، وهذا يُشَوِّشُ إحْساسَها بِالاتِّجاهاتِ، لِهذا يَنْتَهي المَطافُ بِكَثيرٍ مِنَ الحيتانِ عالِقَةً على الشَّواطئِ.»

«مِثْلُ الحوتِ الموجودِ في المُتحَفِ؟» بَلَعَ (ريو) ريقَهُ بِقُوَّةٍ.

«رُبَّما يكونُ هذا هُوَ السَّبَبُ. لا أَحَدَ يَعرِفُ عَلى وَجْهِ اليَقينِ.»

«وماذا عَنْ (وايت بيك)؟»

«رُبَّما تكونُ قَدْ ضَلَّتِ الطَّريقَ . . . رُبَّما أصابَها شيءٌ ما بِالارْتِباكِ أو . . .» ارْتَجَفَ صوتُ (مارينا)، بِطريقَةٍ لَمْ يَسْمَعْها (ريو) مِنْ قَبْلُ. «لكِنْ إنْ لَمْ يَرْصُدْها أَحَدٌ قَريبًا فَعِنْدَها . . .»

أغلقَتِ اللّابتوبَ، وامتلأَتِ المَقصورَةُ بِصَمْتٍ ثَقيلٍ. لَيسَ مِنْ نوعِ الصَّمْتِ الّذي تَشارَكاهُ حينَ اسْتَلْقَيا عَلى مُقَدِّمَةِ القارِبِ، لكِنَّهُ ذلِكَ النَّوعُ المُمتلِئُ بِأشياءَ مَشؤومَةٍ.

«*وايت بيك؟*»

انْسَحَبَ شيءٌ بِقوَّةٍ في أحْشاءِ (ريو)، جَعَلَهُ يرغَبُ فَجأةً بِالبكاءِ. *ليسَ هذا، ليسَ الآنَ*. احتاجَ مِنْ (مارينا) أنْ تُخبِرَهُ بِأنَّ هُناكَ خَطأً وأنَّ (وايت بيك) ستظهَرُ قريبًا، لكنَّها لَمْ تقُلْ أيًّا مِنْ هذينِ الشَّيئينِ. بَدَلًا مِنْ ذلِكَ، رَبَّتَتْ عَلى كَتِفِهِ في ارْتِباكٍ. فعادَ

الأَلَمُ مِثْلَ تسونامي، مُحْكِمًا قَبْضَتَهُ عَلى صَدرِهِ.

«أنا-أنا-أنا يجِبُ أَنْ أذهَبَ.» تَمْتَمَ (ريو)، مُحَرِّرًا نفْسَهُ مِنَ المقعَدِ، ثُمَّ مَشى بخُطُواتٍ مُتعثِّرَةٍ ناحِيَةَ البابِ.

خارِجَ المَقصورَةِ، ألقتِ السَّماءُ بِظِلِّها الكَبيرِ عَلى سطحِ الماءِ، وصَفَعَتْهُ الرِّياحُ عَلى وجهِهِ. تَحَرَّكَ كُلُّ شيءٍ صُعودًا وهُبوطًا، وبالكادِ اسْتطاعَ أنْ يَرى أينَ انْتهى القاربُ، وأينَ بدأَتِ اليابِسَةُ. تَعَثَّرَ في لُفافَةٍ مِنَ الحَبْلِ، وبِساقَينِ مُرْتَجِفَتَينِ قَفَزَ عائدًا إلى أرضٍ صلبَةٍ. حينَها بدأَ المطرُ في الهطولِ. لَيْسَ بِرِفْقٍ، بَلْ عَلى شَكْلِ خناجِرَ ثَلجيَّةٍ حادَّةٍ، تَتَشَظّى وَهيَ ساقِطَةٌ مِنَ السَّماءِ.

«ريو!» قَفَزَتْ (مارينا) مِنَ القارِبِ، وركَضَتْ نَحْوَهُ. الْتَصَقَ شَعرُها الَّذي بَلَّلَهُ المَطَرُ عَلى وَجْهِها. «ما خَطْبُكَ؟»

فكَّرَ في أُمِّهِ. مَجْموعَتُها مِنَ الحَصى الَّتي عَلى شَكْلِ قَلْبٍ، خُصْلَةُ شَعْرِها النُّحاسِيِّ، ثُمَّ الطَّرِيقَةُ الَّتي تَلْمَعُ بِها عَيناها عِنْدما تَعْزِفُ (الكَمانَ).

«مِنَ المُحْتَمَلِ أنَّها بِخيرٍ.» قالَتْ (مارينا). احْتاجَ (ريو) لِثانِيَةٍ كِيْ يُدرِكَ أنَّها تتحَدَّثُ عَنْ (وايت بيك) وليسَ عَنْ أمِّهِ.



الفصلُ الثّامنُ والعشرونَ

هَمْسٌ في الرِّياحِ

طيلَةَ الأيّامِ القَليلةِ التّاليةِ، فَتّشَ (ريو) عَنْ أيِّ مُشاهَداتِ (لوايت بيك)، في قاعدةِ بَياناتِ موقِعِ (happywhale). وألَحَّ عَلى (مارينا) أنْ تُراسِلَ بعضَ مُراقبي الحيتانِ الآخَرينَ الموجودينَ جَنوبَ السّاحِلِ لِلتّأكُّدِ مِنْ أنَّ أحَدَهُمْ قَدْ رَآها، ونَسِيَ رَفْعَ الصُّوَرِ إلى المَوقعِ.

لكِنْ لَمْ يَصِلْهُمْ أيُّ رَدٍّ.

كانَ يعرفُ أنَّ (مارينا) قَلِقَةً، وَتُحاولُ أنْ تُخْفِيَ قَلَقَها عنهُ. لَمْ يَعِ ذلِكَ مِنْ شَيءٍ *قالَتْهُ*، لَمْ تكُنْ بِحاجَةٍ لِأنْ تَقولَ شيئًا. فَبِاستطاعَةِ (ريو) أنْ يَسمَعَ قَلَقَها؛ النَّقراتُ المُتَوتِّرَةُ لِأصابِعِها على الطّاوِلَةِ، طَحْنُ أسْنانِها حينَ تُحَدِّقُ في الكمبيوتر، والطَّريقَةُ الحادَّةُ الَّتي تعاملَتْ بِها مَعَ كُلِّ مَنْ حَولَها، حَتّى مَعَ والِدِها.

«ألا يُمكِنُنا الذَّهابُ والبحثُ عَنْها؟» سألَهُما (ريو) في ظَهيرَةِ أحَدِ الأيّامِ: «إنْ كُنّا نعتقِدُ أنَّها قَدْ ضَلَّتْ الطَّريقَ حَقًّا؟»

هَزَّ (بيرش) رأسَهُ مُعتَرِضًا: «لا نَعرِفُ عَلى وَجْهِ اليَقينِ أنَّها في مَأزَقٍ بَعْدُ. مِنَ المُحتَمَلِ أنَّها سَبحَتْ بَعيدًا عَنِ المَسارِ فَحَسْبُ، وفي هذِهِ الحالَةِ سَتُعيدُ تَعديلَ مَسارِها في الوَقتِ المُناسِبِ.»

«لكِنْ ماذا لَوْ كانَتْ في مأزِقٍ حَقًّا؟» ألَحَّ (ريو): «ماذا لَوْ كانَتْ هُناكَ، وبِحاجَةٍ إلَينا؟»

«لَيسَ مِنَ النّادِرِ أنْ تَتأَخَّرَ الحيتانُ الرَّمادِيَّةُ في بعضِ الأحيانِ عَنِ الوُصولِ إلى البُحيراتِ الضَّحْلَةِ»، عَضَّتْ (مارينا) عَلى شَفَتِها بِتَوَتُّرٍ. «سَتَصِلُ إلَيها قريبًا.»

المُشكلةُ هِيَ أنَّ (ريو) كانَ قَدْ مَلَّ الانْتِظارَ. فمُنْذُ بَلَغَتْهُ

أخبارُ والدَتِهِ الأخيرةُ، اجْتاحَتْهُ كُلُّ المَشاعِرِ القَديمةِ مَرَّةً أُخْرى. وهذِهِ المَرَّةُ، حَتّى المُحيطُ لَنْ يكونَ بِمقدورِهِ أنْ يَجْرِفَها بعيدًا. القيدُ الحَديديُّ الَّذي يُطَوِّقُ صَدرَهُ، الطَّرقاتُ السَّريعَةُ في قَلْبِهِ، الخوفُ المُتواصِلُ مِنْ أنَّها ستزدادُ سوءًا. ثُمَّ ما الَّذي سَيحدُثُ حينَها؟ قالَتْ (فران) إنَّهُ لَيسَ مَسْؤولًا عَنْ جَعْلِ والِدَتِهِ أحْسَنَ، لكِنَّ شُعورًا بَشِعًا بِالذَّنْبِ يَغرِزُ مَخالِبَهُ في أسْفَلِ مَعِدَتِهِ.

لا شَيءَ مِمّا فَعَلَهُ صَنَعَ فارِقًا.

لَمْ يفقِدْ أُمَّهُ فَحَسْبُ، بَلْ فَقَدَ حوتَها أيضًا.

في تِلكَ اللَّيلَةِ، اسْتيقَظَ (ريو) مُنْتَفِضًا. في البدايَةِ ظَنَّ أنَّ صوتَ الطَّرَقاتِ كانَ في حُلُمِهِ، ثُمَّ أدرَكَ بِشكْلٍ مُبهَمٍ أنَّهُ آتٍ مِنَ الخارِجِ. كانَتِ الرِّياحُ تَهُبُّ مِنَ المُحيطِ، وَتضرِبُ ألْواحَ النَّوافِذِ الزُّجاجِيَّةِ كأنَّها تُحاوِلُ أنْ تَجِدَ لِنَفْسِها مَأوًى داخِلَ البيتِ.

دَفَعَ الأغطِيَةَ بَعيدًا، ومَشى حافِيَ القَدَمينِ نَحْوَ النّافذَةِ. وَضَعَ وَجْهَهُ على الزُّجاجِ وَتَنَهَّدَ. ماذا لَوْ كانَتْ (وايت بيك) في مأزَقٍ؟ رُبَّما لا يوجَدُ صائدو حيتانٍ في هذا الجُزْءِ مِنَ العالَمِ،

لكنَّهُ منذُ مَجيئِهِ إلى (أوشن باي) تَعَرَّفَ عَلى العَقَباتِ الكَثيرَةِ الَّتي لا يَزالُ عَلى الحيتانِ أنْ تَتَخَطّاها.

إنْ كانَتْ في مأزَقٍ حَقًّا، فَما الَّذي يُمكِنُ أنْ يفعَلَهُ؟

كانَ قميصُهُ يؤكِّدُ، بِشكْلٍ رَسمِيٍّ، أنَّهُ فَرْدٌ في طاقِمِ (سباي هوبر) لِمُراقبةِ الحيتانِ، لكِنْ ما الَّذي يَعْنيهِ هذا حَقًّا؟ كانوا يُحْصونَ عَدَدَ الحيتانِ. هذا كُلُّ شَيءٍ. لَمْ يَكونوا أبطالًا خارِقينَ يَخرُجونَ في مُهِمّاتٍ خَطيرَةٍ لِإنقاذِ الحيتانِ في كُلِّ مَرَّةٍ يُخْفِقُ فيها حوتٌ بِالظُّهورِ.

لكِنْ هذا لَيسَ أيَّ حوتٍ.

هذه (وايت بيك).

«أُمّي؟» هَمَسَ (ريو): «ماذا يَجِبُ عَلَيَّ أنْ أفْعَلَ؟»

وَضَعَ (ريو) قَدَمَيْهِ عَلى أَثَرِ قَدَمَيها، وأغمَضَ عَينيهِ. حاوَلَ جاهِدًا أنْ يُخَمِّنَ ما يُمكِنُ أنْ تَقولَهُ. لكِنْ كانَ هذا بِلا فائدَةٍ. كانَ المَنزِلُ خَجولًا وكَتومًا، ويحتَجِزُ تَحْتَ سَطْحِهِ كُلَّ شاهِدٍ عَلى وُجودِ أُمِّهِ. نَظَرَ إلى أَثَرِ القَدَمينِ في الأسفَلِ، ورآهُ عَلى حَقيقَتِهِ.

أَثَرٌ قَديمٌ وباهِتٌ لِقدمينِ. لا شَيءَ أكثَرُ. لا شَيءَ أقَلُّ.

انْتَفَضَ كُلُّ غَضَبِ (ريو) بِداخِلِهِ فجأةً.

لَمْ يَكُنْ قادِرًا عَلى التَّحَدُّثِ مَعَها؛ لأنَّها كانَتْ في ذلِكَ المَكانِ! كُلُّ ما كانَ لَديهِ هوَ دَفترٌ مَليءٌ بِرُسوماتِ الحيتانِ. هذا كُلُّ شَيءٍ. خَفَقَ قَلْبُهُ بِسرعَةٍ رُغْمًا عَنهُ. وكُلُّ الأفْكارِ الَّتي أبْقاها مُخَبَّأَةً بِداخِلِهِ انْدَفَعَتْ إلى الخارِجِ. لِماذا لَمْ يَكُنْ بِمَقْدورِها أنْ تَكونَ مِثْلَ باقي الأُمَّهاتِ الأُخْرَياتِ؟ لِماذا لَمْ يَكُنْ بِمَقْدورِها أنْ تكونَ طَبيعيَّةً فَقط؟ لأنَّها، لَوْ كانَتْ طَبيعيَّةً، لَما قامَتْ بِإرْسالِهِ إلى هُنا.

فجأةً، انْفَتَحَتِ النّافذَةُ عَلى مِصْراعَيها. لَمْ يكُنْ (ريو) مُتأكِّدًا إنْ كانَ هذا بِسَبَبِ عَدَمِ إغْلاقِ المِزْلاجِ بِشكْلٍ صحيحٍ، أوْ إنْ كانَ فقط بِفِعْلِ الرّيحِ الَّتي هَبَّتْ، ماسِحَةً سَطْحَ المُحيطِ، ومُحَمَّلَةً بِرَسائِلَ مِنَ البَحرِ البَعيدِ، ثُمَّ عَوَتْ في وَجْهِهِ. لكِنَّها لَمْ تكُنْ رِياحَ البحرِ الطَّبيعيَّةَ الَّتي يَسمَعُ صَوتَها في معظَمِ اللَّيالي. كانَتْ هذِهِ الرِّياحُ مُختلفَةً. في مكانٍ ما، وقَدْ لَفَّتْهُ الرِّياحُ، وهَمَسَتْ شيئًا في أُذُنِهِ، كادَ (ريو) يُقْسِمُ أنَّهُ سَمِعَ صَوتَ أُمِّهِ تُناديهِ لِكي يُنْقِذَها.

أخَذَ نَفَسًا قَصيرًا وحادًّا. إنَّها مُخَيِّلَتُهُ. هذا كُلُّ شَيءٍ. لا يُمكِنُ للرِّياحِ أنْ تتحَدَّثَ. أغلَقَ (ريو) النّافِذَةَ بِعنْفٍ، جَذَبَ السَّتائرَ إلى الأسفَلِ، وعادَ إلى الفِراشِ.

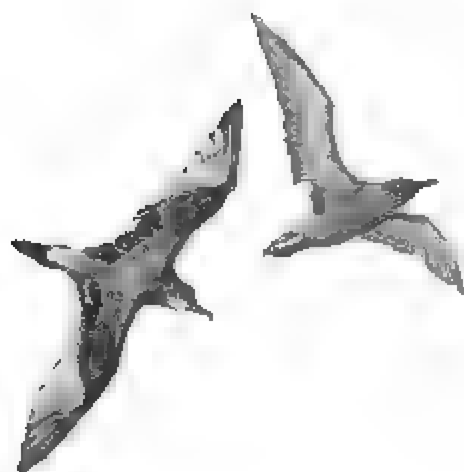


لكنَّ الأوانَ فاتَ. ضَرَبَتِ الرِّياحُ المنزلَ وَعصَفَتْ بِهِ، مُطَرْطِقَةً الشَّبابيكَ، ومُجَلْجِلَةً النَّوافذَ بَينَما تَسَلَّلَ الهَواءُ مُنْدَفِعًا مِنْ بينِها. ظَلَّ (ريو) مُسْتلقِيًّا تحْتَ الأغْطِيَةِ، كانَ يشعُرُ بِأَنَّ المنزلَ يرْتَجُّ، وأَساساتُهُ تَتحَرَّكُ بِطريقةٍ ما.

انْقَلَبَ (ريو) في فراشِهِ عَلى جانِبِهِ. وجَدَ نَفْسَهُ يُحَدِّقُ مُباشَرَةً إلى عينِ (وايت بيك). كانَتْ هِيَ أيضًا تُبَحْلِقُ في (ريو). ولَمْ تَكُنْ تنظُرُ إليهِ فَحَسْبُ، بَلْ تَتَوَسَّلُهُ.

سواءٌ كانَ هذا لِأَنَّ الوَقْتَ تَجاوَزَ مُنْتَصَفَ اللَّيلِ وصارَ (ريو) مُتْعَبًا، أَوْ لِأَنَّ الرِّياحَ كانَتْ قَوِيَّةً وَباسْتِطاعَتِها اخْتِراقُ الجُدْرانِ، أَوْ لِأَنَّ أُمَّهُ كانَتْ تتحَدَّثُ إلَيهِ حَقًّا، لكنَّ (ريو) أَحَسَّ بِأَنَّ الرِّياحَ وَصورَةَ (وايت بيك) قَدْ انْدَمَجَتا وَصارَتا شَيئًا واحِدًا. وهكَذا، لَمْ تَعُدِ الرِّياحُ هِيَ مَنْ تَتَحَدَّثُ إلَيهِ، بَلْ (وايت بيك) نَفْسُها.

وكانَتْ (وايت بيك) تُخبِرُ (ريو) أَنَّ الأوانَ لَمْ يَفُتْ بَعْدُ.



الفصلُ التّاسعُ والعشرونَ

الخُـطّـةُ

«تُريدُ أنْ تَفعَلَ ماذا؟!»

كانا واقِفينِ عِندَ نِهايَةِ الرَّصيفِ البحرِيِّ، وما مِنْ شخْصٍ آخَرَ مَعَهُما، لكنْ (ريو)، رغمَ ذلكَ، أمْسَكَ بِذراعِ (مارينا) وجَذَبَها نَحوَهُ.

«أُريدُ أنْ أذهَبَ للبَحْثِ عَنْ (وايت بيك)» كَرَّرَ كلامَهُ: «لكنّي بِحاجَةٍ إلى مُساعَدَتِكَ.»

ضَيَّقَتْ (مارينا) عَينَيها، وحَدَّقَتْ فيهِ بِحِدَّةٍ. جَعَلَهُ ذلِكَ يرغَبُ في اسْترجاعِ كَلِماتِهِ. لكِنَّهُ تذكَّرَ حينَها شُعورَهُ وهُوَ في الماءِ مَعَ الحوتِ - كيفَ دَفعَتْهُ بِلُطْفٍ نَحوَ القارِبِ، وأعادَتْهُ إلى الأمانِ. نَصَبَ ظَهرَهُ.

«وكيفَ تعتقِدُ أنَّنا سَنعثُرُ عَلَيها؟»

«في قاعِدَةِ البياناتِ، قلْتِ إنَّهُ لَمْ يَرَ أَحَدٌ (وايت بيك) منذُ أنْ مَرَّتْ بجانِبِ لوس أنجلوس.»

«هذا صَحيحٌ، وَبِالتّالي؟»

«هذا يَعني أنَّ لَدينا مساحَةً نبحَثُ فيها عَنْ (وايت بيك) مِنْ لوس أنجلوس حَتّى البُحيراتِ الضَّحلَةِ.»

نظرَتْ إليهِ (مارينا) بِتَمَعُّنٍ، ثُمَّ انْفَجَرَتْ ضَحِكَتُها مُجَلْجِلَةً. لم تكُنْ تلكَ رَدَّةُ الفِعْلِ الَّتي كانَ يَرْجوها. «هلْ تُفَكِّرُ بِشكْلٍ سليمٍ يا (ريو)؟ هَلْ تعرِفُ مَدى **ضَخامَةِ** هذِهِ المنطَقَةِ في الواقِعِ؟ مساحَتُها تُقارِبُ الألفَ ميلٍ! سمعْتُ ما قالَهُ أبي. قَدْ تكونُ (وايت بيك) في أيِّ مَكانٍ!»

«أَتَّفِقُ مَعَكِ أنَّها منطقةٌ كَبيرةٌ،» أجابَها (ريو) عازِمًا عَلى ألّا يُثَبِّطَهُ شيءٌ. «لكِنَّ هذا لا يَعْني أنَّنا لا يَجِبُ أنْ نُحاوِلَ.»

«نحنُ حَتّى لا نَعرِفُ عَلى وَجْهِ اليَقينِ أنَّ (وايت بيك) في

خَطَرٍ،» أجابَتْهُ: «حَتّى لو كانَتْ قَدِ انْحَرَفَتْ عَنْ مَسارِها، فَعلى الأرجَحِ سَتُعيدُ تَوجيهَ نَفْسِها. قالَ أبي إنَّهُ مِنَ الأفْضَلِ أنْ نتركَ الأمورَ للطَّبيعَةِ بَدَلًا مِنَ التَّدَخُّلِ.»

«لكِنْ ماذا لَوْ كانَتْ في خَطَرٍ؟» احْتَجَّ (ريو): «ماذا لَوْ كانَتْ مُصابَةً؟ ماذا لَوْ أنَّ قارِبًا قَدِ ارْتَطَمَ بِها؟»

«أنا أُريدُ أنْ أُساعِدَ، أُريدُ هذا حَقًّا،» دفَعَتْ (مارينا) يَدَيْها خِلالَ شَعْرِها بِغَضَبٍ. «لكِنَّكَ لا تَعرِفُ مَدى خُطورَةِ المُحيطِ

لَنْ تعرِفَ هذا حَتّى تَصيرَ هُناكَ! إنَّهُ لا يُشبِهُ الرِّحلاتِ البَحريَّةَ الَّتي خَرَجْنا فيها حَتّى الآنَ.»

«لا يُمْكِنُنا أنْ نقِفَ مَكتوفي الأيدي!» صاحَ (ريو). «لا يَجِبُ أنْ نَكتَفِيَ فقطْ بِجَداوِلِ البَياناتِ وَمَلْءِ الأعمِدَةِ. إنَّها حَياةٌ حَقيقيَّةٌ!»

«ما الَّذي تَقولُهُ؟»

«ما أُريدُ قَوْلَهُ هُوَ أنَّ الحياةَ الحَقيقيَّةَ في بعضِ الأحْيانِ لا تَسيرُ عَلى النَّحْوِ الَّذي نُريدُهُ، لكِنَّ هذا لا يَعْني أنْ نَستَسلِمَ. بَلْ يَعْني أنْ نَفعَلَ كُلَّ ما بوُسْعِنا لِنُقاتِلَ بِقُوَّةٍ أكْبَرَ.»

لَمْ يَعرِفْ (ريو) مِنْ أينَ أتَتْ تِلكَ الكَلِماتُ. لَقَدْ فاجَأَتْهُ هُوَ أيضًا. فَتَحَ فَمَهُ لِيُعيدَها إلَيهِ، لكِنَّهُ بَعْدَ ذلِكَ قَرَّرَ ألّا يَفْعَلَ.

ضيَّقَتْ (مارينا) عَينَيها. «ماذا عَنْ أبي؟»

«لَقَدْ فَكَّرْتُ في الأمْرِ» قالَ بالِغًا ريقَهُ. «لَنْ نُخْبِرَهُ هُوَ أيضًا.»

«كيفَ يُمكِنُنا اسْتِعادَةُ (وايت بيك) مِنْ دونِ مُساعَدَةِ أبي؟» شَهَقَتْ. «تَقْصِدُ أنَّكَ . . . تُريدُنا أنْ نَسْرِقَ قارِبَهُ؟»

«لَنْ نَسرِقَهُ،» قالَ (ريو): «بَلْ سَنَسْتَعيرَهُ. أنتِ تَعرفينَ كَيفَ تُسَيِّرينَهُ، ألَيسَ كَذلِكَ؟»

«لَقَدْ عِشْتُ عَلى مَتْنِ هذا القارِبِ مُنذُ كُنتُ في الرّابِعَةِ مِنْ عُمري!» أجابَتْ (مارينا) بِحَنَقٍ. «يقولُ أبي إنَّني رُبّانُ سَفينَةٍ أفْضَلُ مِنْ مُعظَمِ أقْرانِهِ.»

«حَسنًا، هذا ما سَتَفعلينَه إذَنْ.»

«الأمْرُ خَطيرٌ لِلغايَةِ!»

«أنا الشَّخصُ الوَحيدُ الَّذي يُمكِنُهُ سَماعُ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ.» قالَ، وقَدْ ثَبَّتَ نَظَرَهُ عَلَيها: «قالَ والِدُكِ إنَّني أمْتَلِكُ أُذُنَ المُحيطِ. ماذا لَوْ كُنْتُ الشَّخْصَ الوَحيدَ القادِرَ عَلى مُساعَدَةِ (وايت بيك)؟ أنْ أسْمَعَها عِنْدَما تكونُ في مأزَقٍ؟»

زَمَّتْ (مارينا) شَفَتَيْها. ذَكَّرَهُ هذا بِجَدَّتِهِ عَنْدَما تكونُ مُسْتغرِقَةً في التَّفكيرِ، ثُمَّ قالَتْ: «أنا أعرِفُ . . . أعرِفُ أنَّها

تَعْني لكَ شَيئًا. هيَ تَعني لي شَيئًا أيضًا. لكِنَّ البَحْثَ عَنْ حوتٍ مَفقودٍ قَدْ يَعْني *أسابيعَ* مِنَ البَحْثِ.»

نَظَرَتْ إلى ساعَتِها بِسُرعَةٍ. أدرَكَ أنَّها عَلى وَشَكِ السَّيْرِ بَعيدًا، وإنْ فَعَلَتْ هذا فَلَنْ يقترِبَ مِنَ العُثورِ عَلى (وايت بيك). مِنَ المُسْتحيلِ أنْ يَسمحَ (ريو) بِحدوثِ هذا.

«لـ-لـ-لكِنَّها لا تَعني شَيئًا لي فقطْ.» قالَ أخيرًا.

«ما الَّذي تَقْصِدُهُ؟»

«قُلْتِ ذاتَ مَرَّةٍ إنَّني . . . إنَّني أستَطيعُ أنْ أُخْبِرَكِ بِأيِّ شيءٍ.» بَلَعَ ريقَهُ بِتَوَتُّرٍ. «هُناكَ سَبَبٌ يَجعَلُني بِحاجَةٍ إلى العُثورِ عَليها، سَبَبٌ قَوِيٌّ لِلغايَةِ.»

«حَسَنًا، يَجِبُ أنْ يَكونَ *أفْضَلَ* سَبَبٍ عَلى الإطْلاقِ.»

أخَذَ (ريو) نَفَسًا عَميقًا حَتّى يَستجمِعَ شَجاعَتَهُ. لأنَّهُ إنْ أرادَ مُساعَدَةَ (مارينا)، فقَدْ حانَ الوقتُ لِأنْ يَكونَ صَريحًا تَمامًا مَعَها.

«أُريدُ أنْ أفعَلَ هذا مِنْ أجْلِ . . . مِنْ أجْلِ أُمّي.»

لَمْ تُجبْهُ، لكِنَّهُ أدرَكَ، مِنْ تَحديقِها الثّابِتِ فيهِ، أنَّها كانَتْ تُصْغي بِحِرْصٍ. «أكْمِلْ.» قالَتْ بِلُطْفٍ.

صَمَتَ (ريو) لِلحظَةٍ. كانَ قلبُهُ يَدُقُّ بِعُنْفٍ. وكَفّاهُ

مُتَعَرِّقَتَيْنِ: «إنّها . . . إنّها لَيستْ عَلى ما يُرامُ.»

انتظَرَ (ريو) لَحْظَةَ الصَّمْتِ المُزعِجَةَ، أو نَظْرَةَ الشَّفقَةِ. لكنَّ (مارينا)، بَدَلًا مِنْ هذا، فَتَّشَتْ في جُيوبِها وأخْرَجَتْ مِنْها مِنْديلًا، وَوَضَعَتْهُ في يَدِهِ. كانَتْ تِلكَ هِيَ اللَّحظَةُ الّتي أدرَكَ فيها (ريو) أنّهُ كانَ يَبْكي، ولَمْ تَكُنْ دُموعُهُ كَبيرَةً وَبَشِعَةً، بلْ كانَتْ ذلكَ النَّوعَ الصّامِتَ مِنَ الدّموعِ الّذي يَنسَكِبُ خِلْسَةً عَلى وَجْهِكَ.

«هَلْ أَستطيعُ أنْ أثِقَ بِكِ؟» سَأَلَها بَعْدَ أنْ نَظَّفَ أنْفَهُ. «أعْني . . . أنْ أَثِقَ بِكِ تَمامًا؟»

«أُقسِمُ لَكَ أمامَ المُحيطِ.» قالَتْ (مارينا).

لَقَدْ خَبَّأَ قِصَّةَ أُمِّهِ بِداخِلِهِ لِوقْتٍ طَويلٍ حَتّى صارَتْ تُؤْلِمُهُ، كانَتْ أيضًا قِصَّةً لَمْ يَحْكِها لِأَيِّ أَحَدٍ مِنْ قَبْلُ، ولَمْ تكُنْ لَديهِ أَيّةُ فِكرَةٍ عَمّا يَجِبُ أنْ يَقولَهُ.

«ابْدَأْ بِبُطْءٍ، وَمِنَ البِدايَةِ.» قالَتْ (مارينا) كأنّها تَقرَأُ أفْكارَهُ.

أخَذَ (ريو) نَفَسًا عَميقًا، وأطلَقَهُ بِبُطْءٍ.

ثُمّ، بِتَرَدُّدٍ، أخْبَرَها عَنِ المَرَّةِ الّتي تَخَلَّفَتْ فيها أُمُّهُ عَنْ حَفْلِ الكريسماس الموسيقيِّ بِمَدرَسَتِهِ، لأنّها أُصيبَتْ بِنوبَةٍ

هَلَعٍ في اللَّحظَةِ الأخيرَةِ. أخْبَرَها عَنِ المَرّاتِ الَّتي عادَ فيها مِنَ المدرسةِ لِيَجِدَ الثّلّاجَةَ فارِغَةً تَمامًا، وأُمَّهُ مُختبِئَةً تَحْتَ أغطِيَةِ الفِراشِ. حَتّى عَنِ المَرَّةِ الَّتي ذَهَبا فيها إلى الشّاطِئِ، وصارَتْ تبْكي أمامَ الجَميعِ. أخبَرَ (مارينا) بأشْياءَ أُخْرى كَثيرةٍ أيضًا، أشْياءَ لَمْ يُخْبِرْها لِأَيِّ أحَدٍ مِنْ قَبْلُ. أشْياءَ كانَ قَدْ أخْفاها لِوقْتٍ طَويلٍ جِدًّا.

حَتّى صارَتْ تَحفِرُ تَحتَ الصُّخورِ نَحْوَ مكانٍ مُظلِمٍ تَكتَنِفُهُ الظِّلالُ. مَكانٍ لَمْ يَكُنْ (ريو) لَيُجازِفَ بِاقْتِحامِهِ خَشْيَةَ الغَرَقِ. ورغمَ ذلِكَ، ومَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ بينِ شَفَتيهِ، كانَ يَشعُرُ أنَّ عِبْئًا ثَقيلًا يَنْزاحُ مِنْ عَلى صَدرِهِ، ويخرُجُ مُرتَفِعًا إلى النّورِ.

طيلَةَ الوقْتَ وهُوَ يتحَدَّثُ، لَمْ يكُنْ قادِرًا عَلى النَّظَرِ إلى (مارينا). كانَ مِنَ الأسهَلِ عَليهِ أنْ يُثَبِّتَ عَينيهِ عَلى نقطَةٍ بَعيدَةٍ في الأفُقِ الضَّبابِيِّ الأزرَقِ. لكِنَّهُ الآنَ نظَرَ بِطَرفِ عَينِهِ سَريعًا إلى وجهِها.

«أوه يا ريو،» تَمْتَمَتْ، ثُمَّ طَوَّقَتْهُ بِذِراعَيها. جفَلَ (ريو). فَلَمْ يَحْتَضِنْهُ أحَدٌ بِهذِهِ الطَّريقَةِ منذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. فاحَتْ مِنْها رائحَةُ مِلْحِ البحرِ والمغامَرَةِ، والأهَمُّ مِنْ كُلِّ ذلِكَ، رائِحَةُ الصَّداقَةِ.

«أرجوكِ؟» توَسَّل لَها. كانَ صوتُهُ قادِمًا مِنْ مَكانٍ عَميقٍ جِدًّا بداخِلِهِ. «يجِبُ عَلَيَّ أنْ أجِدَها.»

فكَّرَتْ (مارينا) لِوَقْتٍ طويلٍ، ثُمَّ أوْمَأَتْ مُوافِقَةً: «سَأُساعِدُكَ.»



الفصلُ الثَّلاثونَ

هُـروبٌ

كانَتِ الخِطَّةُ بَسيطَةً.

عادَةً ما يلعَبُ (بيرش) (البِلياردو) مَساءَ كُلِّ جُمعَةٍ مَعَ بعضِ الأصدقاءِ. بِمُجَرَّدِ أنْ يُغادِرَ (بيرش) القارِبَ سَتَتَّصِلُ (مارينا) (بريو)، ثُمَّ يَنطلِقانِ. لَنْ يَمنَحَهُما هذا كثيرًا مِنَ الوقتِ، لكنَّهُما يأمَلانِ أنْ يكونَ وقتًا كافِيًا.

إلى أنْ يَحينَ أوانُ هذا، نَصَحَتْهُ بِشأنِ قِطَعِ المَلابِسِ الَّتي

يَتَوَجَّبُ عَليهِ أنْ يَجلِبَها مَعَهُ، وبِمُساعَدَتِها تَخَيَّرَ بِحِرْصٍ مِنْ بينِ مُتَعَلَّقاتِهِ. كانَ لَدَيهِما بعضُ المُؤَنِ في القارِبِ، بِما في ذلكَ الخَرائطُ وَالبَوْصَلاتُ، والمِياهُ والطَّعامُ المُجَفَّفُ. وكَثيرٌ مِنَ الأشياءِ الأُخْرى الَّتي لَمْ يسمَعْ بِها (ريو) مِنْ قَبْلُ، لكِنَّها جَعلَتْهُ يُدرِكُ كَمْ كانَ غَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِهذِهِ الرِّحلَةِ.

«ماذا جَلَبْتَ مَعَكَ؟» سألَتْهُ (مارينا).

فتَّشَ (ريو) بينَ مُحتَوياتِ حَقيبةِ سَفَرِهِ. أخرَجَ عَددًا مِنَ القُمْصانِ قَصيرَةِ الأكْمامِ وَالسَّراويلِ القَصيرَةِ. كَشَّرَتْ (مارينا) حينَ رَأَتْها. «سَتَحْتاجُ إلى قَميصٍ بِكُمَّيْنِ طَويلينِ مِنْ أجْلِ القارِبِ، يُمكِنُ أنْ يُصبِحَ الجَوُّ بارِدًا في عُرْضِ البحرِ، خاصَّةً إنْ كُنّا سَنغيبُ لِبِضْعَةِ أيّامٍ. ماذا عَنْ واقي الشَّمْسِ؟ هَلْ لَدَيْكَ هذا؟ عَظيمٌ. سِرْوالٌ مُضادٌّ لِلماءِ؟ لا؟ لا بأسَ، يُمكِنُكَ أنْ تأخُذَ السِّروالَ الإضافِيَّ الَّذي جَلَبْتُهُ مَعي.» ضَيَّقَتْ عَينيها، وتَفَحَّصَتْهُ مِنْ رأسِهِ حَتّى أخْمَصِ قَدَمَيهِ. «نحنُ بِنَفْسِ الحَجْمِ تَقريبًا.»

غَرَضًا تِلْوَ غَرَضٍ، وَضَعَ مُتَعَلَّقاتِهِ في جانِبٍ واحِدٍ.

«والآنَ الطَّعامُ؟ هَلْ جَلَبْتَ شيئًا مَعَكَ؟»

«فَقَطْ هذِهِ.» قالَ (ريو).

«بسكويتُ *الزَّنجبيلِ*؟»

كانَتْ عُبْوَةُ البَسكويتِ ما تَزالُ مُغْلَقَةً، ورغْمَ ذلِكَ انْبَعَثَتْ رائِحَتُها قَوِيَّةً في الغُرفَةِ، جالِبَةً أُمَّهُ بِوُضوحٍ إلَيها. كادَ (ريو) أنْ يَتَوَقَّعَ رُؤْيَتَها بِجانِبِهِ إنْ هُوَ اسْتَدارَ إلى الوَراءِ.

«إنَّهُ المُفَضَّلُ لَدى أُمّي.»

«حَسَنًا إذَنْ، سَنَحْتاجُ إلَيهِ بالتَّأكيدِ.»

كانَتْ (مارينا) قَدْ أعارَتْهُ حَقيبَةَ ظَهْرِها. فَوَضَعَ البَسكويتَ بِحِرْصٍ بِداخِلِها فَوْقَ الأَغْراضِ الأُخْرى. كانَ عَلى وَشَكِ أنْ يُغْلِقَ مَشابِكَ الحَقيبَةِ حينَ وَقَعَتْ عَيناهُ عَلى رَسْمَةِ (وايت بيك). أمْسَكَ بِها. هَدَرَ البحرُ مِنْ وَرائِهِ في اسْتِحسانٍ، فَطَوى الرَّسْمَةَ، وَوضَعَها في أَحَدِ جُيوبِ الحَقيبَةِ.

«دعينا نأخُذْ هذِهِ أيضًا.»

لاحِقًا في ذلكَ المَساءِ، كانَ المنزلُ هادِئًا وساكِنًا لِلغايَةِ، بِاسْتِثْناءِ صَوتِ المُحيطِ وَهُوَ يَتَنَفَّسُ في شَهيقٍ وَزفيرٍ. بَقِيَ (ريو) قابِعًا في غُرفَتِهِ، يَتَفَحَّصُ هاتِفَهُ كُلَّ بِضْعِ دَقائِقَ. لا شَيءَ حَتّى الآنَ. حَتّى وَمَضَتْ رِسالَةٌ أخيرًا:

السّاحِلُ آمِنٌ!

دَفَعَ أَغْطِيَةَ الفِراشِ بَعيدًا، أَخَذَ نَفَسًا عَميقًا، ورَجا اللهَ أنْ يُوَفِّقَهُما. كانا قَدْ تَرَكا حَقيبَةَ الظَّهْرِ بِالقُرْبِ مِنَ البابِ الخَلْفِيِّ، مُخَبَّأَةً في الظِّلالِ إلى جانِبِ المَنْزِلِ. كانَتِ الخُطَّةُ أنْ يَخْرُجَ مِنَ النّافِذَةِ لِيَتَجَنَّبَ المُرورَ عَبْرَ حُجرَةِ المَعيشَةِ حيثُ (فران) تُشاهِدُ الأخْبارَ.

لَمْ يُخبِرْ جَدَّتَهُ عَنْ خُطَّتِهِ لِسَرِقَةِ القارِبِ وإنقاذِ (وايت بيك). ما كانَتْ لِتَقولَ لَهُ شَيئًا عَدا أنَّهُ يُضَيِّعُ وَقتَهُ، ولا شَكَّ أنَّها كانَتْ سَتُحاوِلُ مَنْعَهُ. لكِنَّ (فران) مُخْطِئَةٌ. كانَ هُناكَ شَيءٌ يَستطيعُ أنْ يَفعلَهُ.

حينَ فَتَحَ النّافِذَةَ، انْدَفَعَ هَواءُ البحرِ مُسرِعًا إلى الدّاخِلِ في جُرُعاتٍ سَمينَةٍ جَشِعَةٍ. هُنالِكَ فَرْقٌ بينَ أنْ تَضَعَ خُطَّةً لإنْقاذِ حوتٍ، وَبينَ أنْ تَشْرَعَ في تَنْفيذِها. ارْتَجَفَ (ريو) وهُوَ يُديرُ ظَهْرَهُ ناحِيَةَ غُرْفَةِ نَومِهِ الدّافِئَةِ. مِنْ يَظُنُّ نَفْسَهُ؟

لكِنَّهُ بَعْدَ ذلِكَ فَكَّرَ في (وايت بيك). باسْتِطاعَتِهِ أنْ يَفْعَلَ هذا. عَلَيهِ أنْ يَفْعَلَ هذا. تَسَلَّقَ قاعِدَةَ النّافِذَةِ العَريضَةَ، ثُمَّ مَشى علَيها بِحَذَرٍ حَتّى وَصَلَ إلى حافَّتِها البَعيدَةِ. كُلُّ ما عَليهِ فِعْلُهُ هُوَ أنْ يَنتَقِلَ إلى قاعِدَةِ النّافِذَةِ المُجاوِرَةِ، ثُمَّ يَنزلِقُ عَلى ماسورَةِ الصَّرْفِ الصِّحّيِّ نَحْوَ الأَسْفَلِ.

مَدَّ قَدَمَهُ لِلخارِجِ. لَمْ يَجِدْ شَيئًا سِوى الهَواءِ. لا شَيء. وبَعدَ ذلِكَ . . . لَمَسَتْ أصابِعُ قَدَمِهِ الجانِبَ الآخَرَ أخيرًا.

«لَقَدْ نَجَحْتُ!»

نَزَلَ (ريو) عَلى ماسورَةِ الصَّرْفِ الصِّحّيِّ مُنزلِقًا تارَةً، ومُتَدَحْرِجًا تارَةً أُخْرى. جَرَحَ رُكْبَتَهُ حينَ احْتَكَّتْ بِالسَّطْحِ الخَشَبِيِّ الخَشِنِ، ثُمَّ صَدَمَ كوعَهُ وَآلَمَهُ. لكنَّهُ وَقَفَ عَلى الرِّمالِ أخيرًا، وتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ.

لَمْ تَكُنْ حَقيبَةَ الظَّهْرِ ثَقيلَةً، لكِنَّ الرَّكْضَ عَلى طولِ حافَّةِ الشّاطِئِ في الظَّلامِ كانَ أصْعَبَ بِكَثيرٍ مِمّا تَصَوَّرَ. في كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ تَأْتي مَوْجَةٌ لِتُبَلِّلَهُ، أوْ تَتَعَثَّرُ قَدَمُهُ عَلى الرِّمالِ النّاعِمَةِ، وفي مَرَّةٍ أَوِ اثْنَتَينِ انْثَنى كاحِلُهُ تَمامًا.

بَعْدَ قُرابَةِ عَشْرِ دَقائِقَ، اضْطُرَّ لِأَنْ يَتَوَقَّفَ. كانَ صَدْرُهُ يَعْلو وَيهبِطُ وَرِئَتاهُ عَلى وَشَكِ الانْفِجارِ. بَعْدَها، بَدَأَ يَمْشي بِوَتيرَةٍ أَبْطَأَ، مُتَّجِهًا نَحْوَ الأَضْواءِ المُتَمايِلَةِ المُنْبَعِثَةِ مِنْ صَواري القَوارِبِ. في ظُلْمَةِ اللَّيلِ الحالِكَةِ، لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ سَماعِ شَيءٍ سِوى ارْتِطامِ الأَمْواجِ وَصريرِ الصَّواري المُخيفِ.

كانَ عَلى وَشَكِ أَنْ يَتَوَجَّهَ ناحِيَةَ (*سباي هوبر*) عِنْدَما لَمَحَ هَيئَةً مُعْتِمَةً عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ أمْتارٍ مِنْهُ فَقَطْ.

«مارينا؟» نادى هامِسًا.

جَفَلَتْ، وَتَلَفَّتَتْ حَوْلَها قَبْلَ أَنْ تُلاحِظَ (ريو) وَتُسْرِعَ ناحِيَتَهُ.

«أنتَ هُنا،» هَمَسَتْ: «لَمْ أَكُنْ واثِقَةً مِنْ أنَكَ سَتَتَمَكَّنُ مِنَ المَجيءِ.»

(ريو) أيضًا وَجَدَ صُعوبَةً في تَصديقِ ذلِكَ. لكِنَّهُ صارَ هُنا. وكانَ مُسْتَعِدًّا.

نَظَرَ إلى الكيسِ الوَرَقِيِّ الَّذي كانَتْ تَحْمِلُهُ. «أَحْضَرْتُ المَزيدَ مِنَ الطَّعامِ،» شَرَحَتْ لَهُ: «هلّا . . . هلّا انْطَلَقْنا؟»

بِحَذَرٍ، شَقَّ الاثْنانِ طَريقَهُما ناحِيَةَ الرَّصيفِ البَحرِيِّ، حيثُ كانَتِ (سباي هوبر) راسِيَةً تَحْتَ أَنْظارِ المَنارَةِ.

رَفْرَفَ العَلَمُ المُلَوَّنُ في نَسيمِ البَحرِ. وَبِقَفْزَةٍ صَغيرةٍ صَعِدَتْ (مارينا) عَلى مَتْنِ القارِبِ. ناوَلَها (ريو) حقيبَةَ الظَّهْرِ، ثُمَّ حَذا حَذْوَها.

«لَقَدْ نَجَحْنا.» همَسَتْ وَعَيناها تَلْمَعانِ في الظَّلامِ.

«نَجَحْتُما في ماذا؟»

اشْتَعَلَ الضَّوْءُ. كانَ (بيرش) واقِفًا عَلى ظَهْرِ القارِبِ، يُحَدِّقُ فيهِما.



الفصلُ الحادي وَالثَّلاثونَ

انْكَشَفَ الأَمْرُ

«مارينا؟» سَأَلَ (بيرش) بِصَوْتٍ عَميقٍ كَالرَّعْدِ: «ما الَّذي تَفعَلينَهُ؟»

«أبي!» تَلَعْثَمَتْ (مارينا): «ظَنَنْتُ أَنَّكَ خَرَجْتَ كَعادَتِكَ هذا المَساءَ!»

«لَقَدْ فَعَلْتُ، لكِنّي نَسيتُ مِحْفَظَتي فَعُدْتُ لِآخُذَها،» أجابَها (بيرش). «لكِنَّكِ لَمْ تُجيبي عَنْ سُؤالي بَعْدُ.»

أَلْقَتْ (مارينا) بِذِراعَيْها عَلى جانِبَيْها حينَ لَمْ تَجِدْ ما تَقولُهُ. تَقَدَّمَ (ريو) إلى الأمامِ. «هذا خَطَئي،» قالَ (لبيرش): «أنا . . . أَرَدْتُ أنْ أرى المُحيطَ في اللَّيلِ، و(مارينا) قالَتْ إنَّها سَتَأْخُذُني. سَتَأْخُذُني في مُغامَرَةٍ.»

«مُغامَرَةٍ؟» رَدَّدَ (بيرش) الكَلِمَةَ بِبُطْءٍ، وَقَلَّبَها بِلِسانِهِ كَأَنَّها كَنْزٌ مَفْقودٌ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ. «حَسَنًا، مِنَ الأَفْضَلِ أنْ تَأْتِيا إلى الدّاخِلِ، وَتُخبِراني بِكُلِّ شَيءٍ عَنْ هذِهِ المُغامَرَةِ، وَلا تَنْسَيا أنْ تَجْلِبا حَقائِبَكُما مَعَكُما أيضًا.»

ما إنْ قالَ (بيرش) هذا حَتّى فَتَحَ بابَ المَقصورَةِ. تَبادَلَ (ريو) نَظرَةً سَريعَةً وقلِقَةً مَعَ (مارينا)، ثُمَّ تَبِعا (بيرش) إلى الأَسْفَلِ نحوَ المَقصورَةِ.

بَدَتْ أَجْواءُ الغُرْفَةِ مُختَلِفَةً في غِيابِ ضَوْءِ النَّهارِ السّاطِعِ الَّذي اعْتادَ أنْ يُنيرَها. كانَتْ مَكانًا مُظْلِمًا موحِشًا يَكْتَنِفُهُ الغُموضُ، وَتَحومُ في هَوائِهِ هَمْسَةُ خَطَرٍ خافِتَةٌ.

جَلَسَ الاثْنانِ كَمُذْنِبَيْنِ عَلى المقْعَدِ المُبَطَّنِ.

ما الَّذي يَجِبُ عَلَينا فِعْلُهُ الآنَ؟ حَرَّكَ (ريو) شَفَتَيْهِ بِالكَلِماتِ بَيْنَما (بيرش) يَتَناوَلُ عُلْبَةَ مَسْحوقِ الشّوكولاتَةِ السّاخِنَةِ.

لا أَعْرِفُ! أجابَتْهُ (مارينا) بِشَفَتَيْها أيضًا.

«إنَّ سِرَّ الشّوكولاتَةِ السّاخِنَةِ يكمُنُ دَوْمًا في التَّحْضيرِ،» قالَ (بيرش) وهُوَ يُشْعِلُ عودَ الثِّقابِ، ثُمَّ يُشعِلُ بِهِ المَوقِدَ. «والأَمْرُ ذاتُهُ مَعَ الحَياةِ. يجِبُ أنْ تكونَ مُسْتَعِدًّا لأيِّ شَيءٍ، حَتّى لِما هوَ غيرُ مُتَوَقَّعٍ.» لَمْ يَقُلْ شَيئًا آخَرَ أثْناءَ غَلَيانِ الحَليبِ. وحينَ سَكَبَ المَشروبَ في كوبِهِ، لَفَّتْ رائحَةُ الشّوكولاتَةِ المُتَصاعدَةُ في أرْجاءِ المَقصورَةِ.

شَرِبَ (بيرش) جُرْعَةً مُرْضِيَةً. مَسَحَ شارِبَيْهِ، ثُمَّ نَقَلَ نَظَرَهُ مِنْ (مارينا) إلى (ريو) ثُمَّ إلى ابْنَتِهِ مَرَّةً أُخْرى. «أَخْبِراني إذَنْ عَنْ مُغامَرَتِكُما هذِهِ.»

«كانَتْ هذِهِ فِكْرَتي!» أَعْلَنَتْ (مارينا): «قُلْتُ إنَّ بِاسْتِطاعَتِنا أنْ نَتَظاهَرَ بِأنّنا قُرْصانَيْنِ يَبْحَثانِ عَنْ كَنْزٍ مَفقودٍ!»

«تَقولينَ كَنْزًا مَفْقودًا؟» تَقَوَّسَ طَرَفي فَمِهِ إلى الأعْلى. «إذَنْ . . . لا عَلاقَةَ لِهذا، بِأيِّ شَكْلٍ مِنَ الأشْكالِ، بِحوتٍ مَفقودٍ؟»

هَزَّتْ (مارينا) رَأْسَها مُعارِضَةً بِشِدَّةٍ.

تَنَهَّدَ (ريو). «هذا صَحيحٌ. كُنّا سَنُحاوِلُ العُثورَ عَلَيْها.»

أدارَتْ (مارينا) رَأْسَها نَحْوَهُ، وهِيَ تَحُزُّ عَلى أَسْنانِها. «لا، لَمْ نَكُنْ سَنَفْعَلُ هذا!»

«لا توجَدُ فائدَةٌ مِنَ الكَذِبِ،» قالَ (ريو)، وهُوَ يَشْعُرُ بِالنُّضْجِ فَجْأَةً. «لَيْسَ مِنْ أَجْلِ شَيءٍ كَهذا.»

أَوْمَأَ (بيرش) مُوافِقًا: «أَنْتَ، أَيُّها الشّابُّ، يَعْتَلي كَتِفَيْكَ رَأْسٌ حَكيمٌ.» أَخَذَ رَشْفَةً مِنْ شَرابِهِ. «لكِنْ . . . هُناكَ المَزيدُ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟ أَعْرِفُ أَنَّ ابْنَتي لَدَيْها القُدْرَةُ عَلى الإقْناعِ، لكِنْ حَتَّى هِيَ سَتَحْتاجُ لِأَنْ تَقْطَعَ شَوْطًا كَبيرًا لِكَي تُقْنِعَ شَخْصًا بِالذَّهابِ مَعَها إلى عُرْضِ المُحيطِ وَحْدَهُما.»

«لَمْ تَكُنْ (مارينا) مَنْ أَقْنَعَني،» قالَ (ريو) بِهُدوءٍ: «أَنا مَنْ أَقْنَعَها.»

اعْتَقَدَ (ريو) أَنَّ (بيرش) سَيَتَفاجَأُ مِنْ أَنَّ شَخْصًا مِثْلَهُ يَستطيعُ السَّيطَرَةَ عَلى تَصَرُّفاتِ ابْنَتِهِ (مارينا). لكِنْ بَدَلًا مِنْ هذا، وَضَعَ الرَّجُلُ كوبَهُ بِحِرْصٍ عَلى الطّاوِلَةِ، ثُمَّ انْحَنى إلى الأمامِ: «هَلْ يُصادِفُ أَنَّ لِهذا أَيَّ عَلاقَةٍ بِوالِدَتِكَ؟»

«وا-وا-والِدَتي؟» قالَ (ريو): «كيفَ تَعْرِفُ بِشَأْنِها؟»

«لَقَدْ شَرَحَتْ لي جَدَّتُكَ سَبَبَ مَجيئِكَ إلى هُنا، ومُؤَخَّرًا عَرَفْتُ سَبَبَ بَقائِكَ لِوَقْتٍ أَطْوَلَ.»

فَتَحَ (ريو) فَمَهُ، ثُمَّ أَغْلَقَهُ مَرَّةً أُخْرى. كانَ (بيرش) يَعْرِفُ *طيلَةَ الوَقْتِ؟*

«أَلِهذا دَعَوْتَني لِلانْضِمامِ إلى الطّاقِمِ؟ كُنْتَ تَشعُرُ بِالأَسَفِ عَلَيَّ؟» انْفَجَرَتِ الكَلماتُ خارِجَةً مِنْ فَمِهِ قَبْلَ أنْ يَجِدَ الفُرْصَةَ لإيقافِها.

هذِهِ المَرَّةُ بَدا (بيرش) مُتَفاجِئًا: «لَقَدْ طَلَبْتُ إليكَ الانْضِمامَ؛ لأَنَّكَ إضافَةٌ مُبْهِرَةٌ لِلطّاقِمِ.» قالَ (بيرش)، وَعَيناهُ مُثَبَّتتانِ عَلى (ريو). «لَقَدْ عَلَّمَني المُحيطُ كَثيرًا مِنَ الدُّروسِ، لكِنَّ أَهَمَّ دَرْسٍ هُوَ أنَّ هُناكَ كَثيرًا مِنَ الثَّرَواتِ في داخِلِنا، وَأَنا أَرى هذا فيكَ. أنْتَ يا بُنَيَّ أَكْثَرُ ذَكاءً وَقُوَّةً مِمّا تَعتَقِدُ.»

رُبَّما كانَ (بيرش) يتحَدَّثُ عَنْ قُدرَةِ (ريو) عَلى سَماعِ الحيتانِ، لكِنَّ (ريو) أَحَسَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الشَّيءَ الوَحيدَ الَّذي يَقْصِدُهُ. وَضَعَ (بيرش) يَدَهُ عَلى يَدِ (ريو).

كانَتْ خَشِنَةً وَدافِئَةً وَثابِتَةً. ولَمْ يَرْغَبْ (ريو) في أنْ يَتْرُكَها أَبَدًا.

«أَعْرِفُ أنَّها مُهِمَّةٌ شِبْهُ مُسْتَحيلَةٍ، وَأَنَّنا قَدْ لا نَعْثُرُ عَلَيْها،» قالَتْ (مارينا) مُعيدَةً انْتِباهَهُما إلى المُشْكِلَةِ الرّاهِنَةِ. «لكِنْ . . . لا يَجِبُ أَنْ نَقِفَ مَكتوفِي *الأَيْدي*. إنَّ (ريو) مُحِقٌّ. ماذا لو كانَتْ في مأزَقٍ؟»

أَوْمَأَ (بيرش) مُوافِقًا. «كُنْتُ قَدْ تَواصَلْتُ اليَوْمَ باكِرًا مَعَ

مَجْموعَةٍ مِنْ رِحلاتِ مُراقَبَةِ الحيتانِ الأُخْرى المَوجودَةِ جَنوبَ السّاحِلِ، وَعَلِمْتُ أنَّهُ لَمْ يَرَها أَحَدٌ. بِالطَّبْعِ هُناكَ احْتِمالٌ كَبيرٌ أنْ تَظْهَرَ في غُضونِ يَومَينِ، وتَكونَ بِخيرٍ تَمامًا.»

«لكِنْ ماذا لَوْ لَمْ تَكُنْ بِخَيْرٍ؟ لِأنَّها إنْ كانَتْ ضائعَةً، فَرُبَّما يُمْكِنُني المُساعَدَةُ في العُثورِ عَلَيْها.» تَرَكَ (ريو) الكَلِماتِ تَتَعَلَّقُ في الهَواءِ.

قَبْلَ بِضْعَةِ أسابيعَ فَقَطْ، بَدَتْ لَهُ فِكْرَةُ أنَّهُ قادِرٌ عَلى العُثورِ عَلى حوتٍ رَمادِيٍّ بالِغٍ، فِكْرَةً خَرْقاءَ مُضحِكَةً. لكِنَّ هذا كانَ قَبْلَ أنْ يَلْتَقِيَ (مارينا). قَبْلَ أنْ يَنْضَمَّ إلى طاقِمِ (سباي هوبر). قَبْلَ أنْ يُدرِكَ أنَّهُ أكْثَرُ بِكثيرٍ مِمّا يَعتَقِدُ.

عَضَّ (بيرش) شَفَتَهُ مُتَفَكِّرًا قَبْلَ أنْ يُطْرِقَ رَأْسَهُ أخيرًا.

«أتَعْني أنَّنا نَستطيعُ الذَّهابَ؟» سألَتْ (مارينا) وَعَيناها تَبْرُقانِ.

ضَحِكَ والِدُها: «لَمْ أَقُلْ هذا، هَلْ تَعْتَقِدانِ أنّني سَأَسْمَحُ لَكُما بِأَنْ تَأْخُذا قارِبي، وَتَنْطَلِقا بِهِ عَبْرَ المُحيطِ الهادِئِ وَحْدَكُما؟ سَتَقْتُلُني جَدَّتُكَ يا (ريو). لا، لا يُمْكِنُني السَّماحُ بِذلِكَ.»

غاصَ قَلْبُ (ريو).

«لكِنْ،» قالَ (بيرش): «ما يُمْكِنُني فِعْلُهُ هُوَ أنْ أذْهَبَ مَعَكُما.»



الفصلُ الثّاني وَالثّلاثونَ

خُطّةٌ جَديدَةٌ

«هَلْ سَتَصْحَبُنا أنْتَ؟» سَأَلَهُ (ريو) بِأنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ: «هَلْ سَتُساعِدُنا في العُثورِ عَلى وايت بيك؟»

«أَجَلْ،» أجابَهُ (بيرش). «لكِنْ أوّلًا سَأَتّصِلُ بِجَدّتِكَ.»

قَبْلَ أنْ يَتَمَكّنَ (ريو) مِنَ الاحْتِجاجِ، خَرَجَ (بيرش) مِنَ المَقصورَةِ، وأَغْلَقَ البابَ بِصَرامَةٍ وَراءَهُ. وفي هَمْهَمَةِ المَقْصورَةِ المُغْلَقَةِ بِإِحْكامٍ، فَقَطْ الكَلِماتُ المَكبوتَةُ أحْيانًا

وَجَدَتْ طَريقَها إلَيهِ.

«حَذِرٌ . . .»

«*آمِنٌ تمامًا . . .*»

«*حارِسٌ . . .*»

«مُستَحيلٌ أنْ تُوافِقَ.» تَمْتَمَ (ريو) وهُوَ يَنْظُرُ إلى البابِ.

أَحَسَّ أنَّ مَصيرَ (وايت بيك) مُعَلَّقٌ بِمُكالَمَةٍ هاتِفيَّةٍ واحِدَةٍ. لَمْ تَكُنِ المَقصورَةُ كَبيرَةً، لكِنَّها بَدَتْ وَكَأَنَّها تَنْكَمِشُ أكْثَرَ.

صَمَتَ صَوتُ (بيرش) بَعْدَ ما بَدا أنَّهُ دَهْرٌ مِنَ الزَّمانِ. وبَدَلًا مِنْ أنْ يَعودَ إلى المَقصورَةِ سَمِعاهُ يَقْفِزُ خارِجَ القارِبِ.

«إلى أيْنَ هُوَ ذاهِبٌ؟» هَمَسَ (ريو) في تَوَتُّرٍ.

«لَيْسَ لَدَيَّ أدْنى فِكْرَةٍ.» هَمَسَتْ (مارينا) لَهُ.

انْتَظَرَهُ الاثْنانِ في صَمْتٍ. وَباسْتِثناءِ المُحيطِ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيُّ صَوتٍ آخَرَ عَدا دَقّاتِ قَلْبَيْهِما.

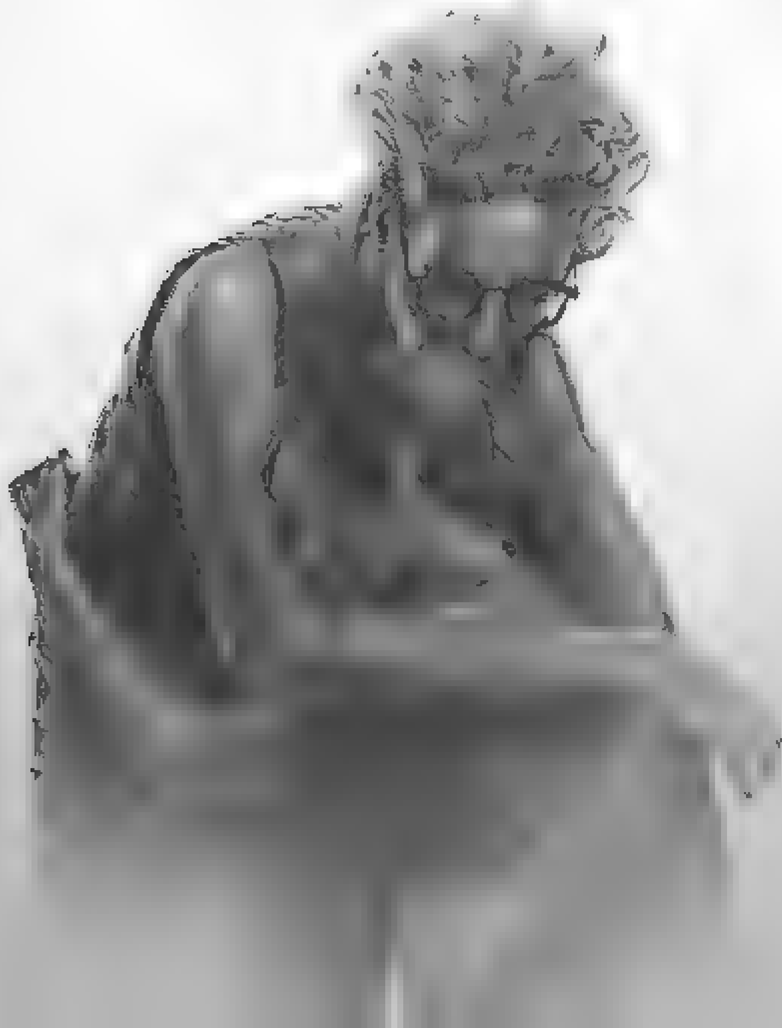
في النِّهايَةِ انْفَتَحَ البابُ بِبُطْءٍ وَبِصَرْصَرَةٍ عالِيَةٍ. ظَهَرَ جَسَدُ (بيرش) أمامَ أنْوارِ الميناءِ الصَّفْراءِ السّاطِعَةِ. لكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمُفْرَدِهِ. فَمِنْ خَلْفِهِ كانَتْ هُناكَ هَيْئَةُ شَخْصٍ آخَرَ، هَيْئَةٌ طَويلَةٌ مَألوفَةٌ تَرْتَدي (الجمبسوت) ونَظّارَةً طِبِّيَّةً.

«فران؟» اسْتَفْهَمَ (ريو) في صَدْمَةٍ.

دَخَلَتْ جَدَّتُهُ إلى المَقصورَةِ، وَتَلَفَّتَتْ حَوْلَها قَبْلَ أنْ يَسْتَقِرَّ نَظَرُها عَلى (ريو). هَبَطَتْ مَعِدَتُهُ. لا شَكَّ أنَّها جاءَتْ لِتَأْخُذَهُ إلى البيتِ؛ لِتَضَعَ نِهايَةً لِلمُغامَرَةِ قَبْلَ حَتّى أنْ تَبْدَأَ.

«لـ لـ لكنْ ما الَّذي تَفْعَلينَهُ هُنا؟»

مَشَتْ ثَلاثَ خُطُواتٍ واسِعَةٍ قَبْلَ أنْ تَضُمَّ (ريو) إلى حِضْنِها: «هَلْ كُنْتَ تَعْتَقِدُ أنَّني سَأَتْرُكُ حَفيدي الوَحيدَ يَنْطَلِقُ عَبْرَ المُحيطِ الجامِحِ مِنْ دوني؟»



تَفاجَأَ (ريو) حينَ سَمِعَ التَّهَدُّجَ في صوتِها. وتَفاجَأَ أَكْثَرَ مِنَ الإحْساسِ المُماثِلِ بِالدِّفْءِ الَّذي غَمَرَ قَلْبَهُ. احْتَضَنَها بِقُوَّةٍ قَبْلَ أَنْ تَتَمَكَّنَ هِيَ مِنَ الابْتِعادِ. لا يَزالُ عَلَيْها أَنْ تَتَعَلَّمَ شَيْئًا أَوْ شَيئَينِ عَنِ العِناقِ.

«ظَنَنْتُ أَنَّكِ تُعانينَ مِنْ دُوارِ البَحْرِ؟»

«هذا صَحيحٌ،» قالَتْ بِوَجْهٍ شاحِبٍ. «لكِنْ هذا لَنْ يَمْنَعَني مِنَ المَجيءِ مَعَكُمْ.»

«أَعْرِفُ جَدَّتَكَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ،» قالَ (بيرش) بِلُطْفٍ: «كانَتْ تُحْصي الحيتانَ قَبْلَ إِنْشاءِ قاعِدَةِ بَياناتِ (happywhale) بِوَقْتٍ طَويلٍ جِدًّا.»

«*حَقًّا*؟!»

«هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّكَ الوَحيدُ الَّذي يَرْغَبُ في حِمايَةِ الحيتانِ؟» أَجابَتْ (ريو) وهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ فوقِ نَظّارَتِها. «أوه لا، إِنَّهُ أَمْرٌ تَتَوارَثُهُ العائِلَةُ.»

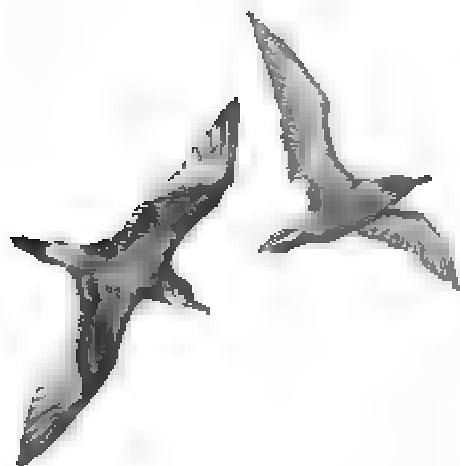
«لكِنْ . . . لكِنْ . . .»

لِماذا لَمْ يَعرِفْ (ريو) أَيَّ شيءٍ عَنْ هذا مِنْ قَبْلُ؟ أَحَسَّ أَنَّهُ يَرى جَدَّتَهُ لِلمَرَّةِ الأولى. لَيْسَ مِنْ خِلالِ مَنْظورِ أَلَمِهِ، لِأَنَّ هذِهِ المَناظيرَ لَيْسَتْ دَقيقَةً أَبَدًا، لكِنَّهُ رَآها كَما هِيَ حَقًّا.

«لَدَيَّ عَدَدٌ لَيْسَ بِقَليلٍ مِنَ المَعارِفِ، مُعْظَمُهُمْ غَيْرُ مُشْتَرِكينَ بِالمَوْقِعِ.» فَرَكَتْ يَدَيْها بِجِدِّيَّةٍ كَما تَفْعَلُ المُعَلِّماتُ. «لِذا، قَبْلَ أَنْ نَتَعَجَّلَ، أَقْتَرِحُ أَنْ نَجْمَعَ مَوارِدَنا. سَأُجْري مُكالَماتٍ سَريعَةً مَعَ بَعْضِ زُمَلائي؛ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُمْ سَيُشارِكونَنا مُهِمَّةَ البَحْثِ. (بيرش) رُبَّما يُمْكِنُكَ أَنْ تُرْسِلَ رِسالَةً إِلى بَعْضِ شَرِكاتِ مُراقَبَةِ الحيتان الأُخْرى في المَنطِقَةِ، وَتُنَبِّهَ بَقِيَّةَ الشَّبَكَةِ بِأَنَّ هُناكَ حوتًا مَفْقودًا؟ (مارينا)، هَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تَفْعَلي ما تَفْعَلونَهُ أَنْتُمْ مَعْشَرَ الشَّبابِ عَلى مَواقِعِ التَّواصُلِ الاجْتِماعِيِّ؟ أَنْ تَصْنَعي بَعْضَ الضَّجيجِ؟ أَلَيْسَ هذا ما تَقولونَهُ؟ فَقَدْ نَتَمَكَّنُ مِنَ التَّواصُلِ مَعَ بَعْضِ القَوارِبِ المارَّةِ، أَوْ حَتّى سُفُنِ الصَّيْدِ.» صَمَتَتِ (فران) لِبُرْهَةٍ، والْتَفَتَتْ إِلى (ريو). «وأَنْتَ أَيُّها الشّابُّ الصَّغيرُ، لَدَيْكَ أَهَمُّ دَوْرٍ عَلى الإِطْلاقِ.»

كانَ (ريو) يَتَساءَلُ عَنِ المُهِمَّةِ الَّتي سَتُكَلِّفُهُ بِها (فران).

«سَتَكونُ أَنْتَ أُذُنَنا.»



الفصلُ الثّالِثُ وَالثّلاثونَ

إسْـراعٌ

قَبْلَ بُزوغِ الفَجْرِ بِقَليلٍ، وَصَلَتْ (سباي هوبر) إلى جُدْرانِ المَرْفَأِ الّتي امْتَدَّ مِنْ وَرائها المُحيطُ العَظيمُ مُكَلَّلًا بِالظَّلامِ. الْتقَتْ عَيْنا (فران) و(ريو). ابْتَسَمَتْ بِتَرَدُّدٍ، وَسَأَلَتْهُ: «مُسْتَعِدٌّ؟»

فَكَّرَ (ريو) في أُمِّه، وَالحوتِ الّذي يُحاوِلُ إنْقاذَهُ، وكَيْفَ أَنَّهُما، بِطَريقَةٍ ما، صارا كِيانًا واحِدًا في عَقْلِهِ.

«أَجَلْ،» قالَ، وهُوَ يَشْعُرُ أنَّ الكَلماتِ تَأتي مِنْ مَكانٍ عَميقٍ في داخِلِهِ: «أنا مُسْتَعِدٌّ.»

سَيَسْتَغْرِقُ الوُصولُ إلى مَنْطِقَةِ البَحْثِ اليَومَ بِطولِهِ تَقْريبًا. لكنْ بَعْدَ ثَلاثينَ دَقيقَةً مِنَ الإبْحارِ، وَبَينَما (ريو) مُسْتَرْخِيًا في المَقصورَةِ، تَوَقَّفَ المُحَرِّكُ فَجْأَةً. *ما الَّذي كانَ يَحْدُثُ؟ لِماذا تَوَقَّفوا؟* أسْرَعَ (ريو) إلى سَطْحِ القارِبِ، فَوَجَدَ (بيرش) و(مارينا) جالِسَيْنِ عَلى طَرَفِ القارِبِ، وَقَدْ تَدَلَّتْ أقْدامُهُما حافِيَةً مِنْ عَلى حافَّتِهِ.

لَمْ يَتَحَدَّثْ (بيرش)، لكِنَّهُ أفْسَحَ مَجالًا مِنْ أجْلِ (ريو) حَتّى يَجْلِسَ إلى جانِبِهِ. جَلَسَ (ريو) وجَعَلَ قَدَمَيْهِ تَتَدَلَّيانِ أيضًا، ثُمَّ فَرَكَ عَيْنَيْهِ. بَدَتِ (سباي هوبر)، في ضَوْءِ الصَّباحِ الضَّبابِيِّ، ضَئيلَةً لِلغايَةِ، وَكانَتْ مِساحَةٌ شاسِعَةٌ مِنَ الماءِ تَمْتَدُّ مِنْ حَوْلِهِمْ في كُلِّ اتِّجاهٍ، دونَ أيِّ أَثَرٍ لِليابِسَةِ.

كانَ عَلى وَشَكِ التَّحَدُّثِ حينَ لاحَظَ الأَبُ وابْنَتُهُ، وَقَدْ ضَمَّ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما يَدَيْهِ عَلى نَحْوٍ أشْبَهَ بِالصَّلاةِ.

تَمْتَمَ (بيرش): «أصْدِقاءَنا الأعِزّاءَ في المُحيطِ وَكائناتِهِ الَّتي تَسْكُنُ في الأعْماقِ، نَطْلُبُ إلَيكُمْ أنْ تَحْموناَ وَتُرْشِدونا إلى وُجْهَتِنا بِأمانٍ. في المُقابِلِ نَعِدُكُمْ بِأنْ نَعْتَنِيَ بِكُمْ وَأنْ

نُكْرِمَكُمْ، وَأَنْ نُسْبِغَ عَلَيْكُمُ الاحْتِرامَ في كُلِّ الأَوْقاتِ.»

أَبْقى (بيرش) عَيْنيهِ مُغْمَضتَيْنِ، ثُمَّ غَرَفَ بَعْضَ مِياهِ المُحيطِ بِيَدَيْهِ، وَغَسَلَ بِها وَجْهَهُ. حَذَتْ (مارينا) حَذْوَهُ، في طَقْسٍ بَدا أَنَّها قَدْ أَدَّتْهُ مِئاتِ المَرّاتِ مِنْ قَبْلُ. وهكَذا مَدَّ (ريو) يَدَيْهِ إلى الماءِ، وفَعَلَ الشَّيءَ ذاتَهُ. أَحَسَّ بِالماءِ بارِدًا وحادًّا عَلى وَجْهِهِ، لكِنَّهُ، في الوَقْتِ نَفْسِهِ، أزالَ أيَّ أَثَرٍ أَخيرٍ لِلنَّوْمِ. تَنَبَّهَتْ حَواسُّهُ عَلى الفورِ، وَصارَ مُسْتَعِدًّا لِليَوْمِ الطَّويلِ الَّذي يَنْتَظِرُهُمْ.

«ما هذا الَّذي كُنْتُما تَفْعَلانِهِ؟» سَأَلَهُما (ريو).

وَضَّحَ (بيرش): «إِنَّهُ شَيءٌ أَفْعَلُهُ في كُلِّ مَرَّةٍ أَخْرُجُ فيها في رِحْلَةٍ طَويلَةٍ. إِنَّهُ تَقليدٌ بَحرِيٌّ قَديمٌ تَوارَثَتْهُ الأَجْيالُ. يَعْتَقِدُ البَشَرُ عادَةً أَنَّهُمْ أَقْوى المَخْلوقاتِ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ، ونَحْنُ كَذلِكَ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ. لكِنَّ المُحيطَ كانَ مَوجودًا قَبْلَ أَنْ نُولَدَ بِوَقْتٍ طَويلٍ، وَسَيَبْقى بَعْدَ أَنْ نَرْحَلَ لِوَقْتٍ طَويلٍ. مِنَ الجَيِّدِ أَنْ نَتَذَكَّرَ هذا دائِمًا.»

أَخْرَجَتْ (مارينا) خَريطَةً، وَفَرَدَتْها عَلى سَطْحِ القارِبِ. «إِذَنْ نَحْنُ هُنا،» قالَتْ وَهِيَ تَنْقُرُ بِإِصْبَعِها عَلى نُقْطَةٍ غَيْرِ واضِحَةٍ في مَكانٍ ما جَنوبَ ساحِلِ (أوشن باي). «سَنَتْبَعُ

المَسارَ الّذي مِنَ المُفْتَرَضِ أنَّ (وايت بيك) قَدْ سَلَكَتْهُ وَهِيَ في طَريقِها إلى البُحَيراتِ الضَّحْلَةِ. وأفْضَلُ مَكانٍ نَبْدَأُ مِنْهُ هُوَ هذا المَكانُ.» أشارَتْ إلى إحْداثِيّاتٍ عَلى بُعْدِ شِبْرٍ واحِدٍ مِنَ النُّقْطَةِ الّتي هُمْ فيها عَلى الخَريطَةِ.

«بِفَضْلِ اتِّصالاتِ جَدَّتِكَ، بَعْضُ المُراقِبينَ الّذين يَعيشونَ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الحُدودِ يُمَشِّطونَ المَنْطِقَةَ. هُناكَ أيضًا بَعْضُ القَوارِبِ الّتي تُفَتِّشُ المَنطِقَةَ المُحيطَةَ بِسانْ دييجو. وهذا يَعْني أنَّ مَنْطِقَةَ البَحْثِ الخاصَّةَ بِنا تَمْتَدُّ مِنْ لوس أنجلوس حَتّى سان دييجو.»

«إنْ أَرَدْنا الوُصولَ إلى هُناكَ قَبْلَ حُلولِ اللَّيْلِ،» قالَ (بيرش). «فَعَلَيْنا أنْ نُسْرِعَ»



الفصلُ الرّابِعُ وَالثّلاثونَ

لا مُشاهَداتٍ

خِلالَ ما تَبَقّى مِنَ اليَومِ، أَبْحَرَ القارِبُ بِشَكْلٍ ثابِتٍ. تَوَقّفوا فقطْ مِنْ أجْلِ تَناوُلِ الغَداءِ. كانَ عِبارَةً عَنْ شَطائِرِ جُبْنَةٍ قَديمَةٍ، وَجُرْعاتِ (كوكاكولا) كَبيرَةٍ راوِيَةً لِلظَّمَأ.

كانَ الجَوُّ حارًّا عَلى ظَهْرِ القارِبِ، لكِنَّ (ريو) و(مارينا) بَقِيا في المُقَدِّمَةِ طيلَةَ الوَقْتِ. جَلَسَتْ (مارينا) مُتَرَبِّعَةَ السّاقَيْنِ مَعَ دَفْتَرِ مُلاحَظاتِها، بَيْنَما أبْقى (ريو) أُذُنَيْهِ وَعَيْنَيْهِ في انْتِباهٍ

تامٌّ مَعَ الأُفُقِ. بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، كانَ يَتَفَقَّدُ جَدَّتَهُ الَّتي بَقِيَتْ مُعْظَمَ الوَقْتِ أسْفَلَ ظَهْرِ القارِبِ، حيثُ دُوارُ البَحْرِ لَيْسَ بِذلِكَ السّوءِ كَما قالَتْ. تَرَكَهُمْ (بيرش) جَميعًا في سَلامٍ، مُكْتَفِيًا بِالاسْتِمْتاعِ بِقَهْوَتِهِ، وإحْساسِهِ بِدَفَّةِ القارِبِ تَحْتَ يَدَيْهِ وهُوَ يُبْحِرُ (بسباي هوبر) عَكْسَ اتِّجاهِ الرِّياحِ. وكانَتْ هذِهِ الرِّياحُ المُعاكِسَةُ هِيَ ما جَعَلَ تَقَدُّمَهُمْ أَبْطَأَ بِكَثيرٍ مِمّا يَجِبُ.

«لَنْ نَصِلَ إلى هُناكَ أبَدًا بِمُعَدَّلِ السُّرْعَةِ هذِهِ!» قالَ (ريو) في سَخَطٍ.

مِنْ وقْتٍ لآخَرَ، كانوا يُجْرونَ اتِّصالاتٍ لاسِلْكِيَّةً مَعَ بَعْضِ القَوارِبِ الأخْرى المُشارِكَةِ في البَحْثِ. في كُلِّ مَرَّةٍ يُطَقْطِقُ فيها اللّاسِلْكِيُّ تَنْطَلِقُ شَرارَةُ آمالِ (ريو) في أنَّهُ اتِّصالٌ مِنْ شَخْصٍ يُؤَكِّدُ لَهُمْ فيهِ أنَّهُ رَأى (وايت بيك). لكِنْ في كُلِّ مَرَّةٍ تَكونُ الإجابَةُ هيَ ذاتُها:

لا يوجَدُ أيُّ حيتانٍ عَلى مَرْمى البَصَرِ.

لَوْلا الضَّوْضاءُ المُتَقَطِّعَةُ لِجهازِ اللّاسِلْكِيِّ، لَظَنّوا أنَّهُمْ آخِرُ بَشَرٍ عَلى وَجْهِ الأرْضِ. كانَ الصَّوْتُ الآخَرُ الوَحيدُ هُوَ صَوْتُ (سباي هوبر) وهِيَ تَشُقُّ طَريقَها عَبْرَ الماءِ. مَرَّتْ ساعاتٌ دونَ أنْ يَنْطِقَ أحَدٌ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ، وَبِطريقَةٍ ما شَعَروا بِأنَّ هذا وَضْعٌ

طَبيعِيٌّ تَمامًا.

شاهَدوا سَفينَةَ صَيْدٍ اعْتِيادِيَّةً مَرَّةً أَوْ مَرَّتَينِ، وبَعْدَ الغَداءِ مُباشَرَةً مَرَّتْ باخِرَةٌ سِياحِيَّةٌ ضَخْمَةٌ في البَعيدِ. بَدَتْ كَبِنايَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ شُقَقٍ سَكَنِيَّةٍ طافِيَةٍ عَلى سَطْحِ الماءِ. كانَ بِاسْتِطاعَةِ (ريو) أَنْ يُمَيِّزَ كُلَّ شُرْفَةٍ عَلى حِدَةٍ، وثَلاثَةَ أَقْماعٍ ضَخْمَةٍ، وَزُحْليقَةً مائِيَّةً بِلاستيكِيَّةً حَلَزونِيَّةً عَلى ظَهْرِ الباخِرَةِ. حَتّى مِنْ عَلى هذِهِ المَسافَةِ البَعيدَةِ، كانَتِ الأَمْواجُ النّاتِجَةُ عَنْ مُحَرِّكاتِ الباخِرَةِ تُؤَرْجِحُ (سباي هوبر) مَرَّةً إلى الأَعْلى وَمَرَّةً إلى الأَسْفَلِ.

(فران) الَّتي كانَتْ قَدْ صَعِدَتْ إلى سَطْحِ القارِبِ مِنْ أَجْلِ بَعْضِ الهَواءِ النَّقِيِّ هَزَّتْ رَأْسَها في اسْتِياءٍ، وقالَتْ: «أَشْياءُ فَظيعَةٌ.»

حَدَّقَتْ (مارينا) في الباخِرَةِ بِتَعبيرٍ قَلِقٍ عَلى وَجْهِها: «انْظُروا إلى حَجْمِها، لا عَجَبَ أَنَّ كَثيرًا مِنَ الحيتانِ تُقْتَلُ كُلَّ عامٍ بِسَبَبِ الاصْطِدامِ بِالسُّفُنِ.»

أَحَسَّ (ريو) أَنَّ المِنْظارَ الَّذي يُمْسِكُ بِهِ في يَدِهِ قَدْ صارَ فَجْأَةً بارِدًا وزَلِقًا. قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ إلى هذا المَكانِ، لَمْ يَتَوَقَّفْ يَومًا لِيُفَكِّرَ في المَخاطِرِ الكَثيرَةِ الَّتي تُواجِهُها الحيتانُ في حَياتِها

اليَومِيَّةِ. إنَّها أعْظَمُ المَخْلوقاتِ وَأضْخَمُها عَلى وَجْهِ الأرْضِ، ومِنْ حَقِّها أنْ يَكونَ المُحيطُ لَها - مِنْ أجْلِ أنْ تَجوبَ وتَسْبَحَ وَتَعيشَ فيهِ بِحُرِّيَّةٍ. لكِنْ بِطَريقَةٍ ما صارَتِ البِحارُ، كَكُلِّ شَيءٍ آخَرَ في هذِهِ الأرْضِ، مُلْكًا لِلبَشَرِ.

راقَبَ الباخِرَةَ لِوقْتٍ طَويلٍ وَهِيَ تَتَلاشى في البَعيدِ، مُتَّجِهَةً نَحْوَ جَنوبِ كاليفورنيا والمكسيك، حَتّى صارَتْ في النِّهايَةِ نُقْطَةً لا تَزيدُ عَنْ حَجْمِ إبْهامِهِ، ثُمَّ اخْتَفَتْ تَمامًا.

تَحَرَّكَتْ (سباي هوبر) جَنوبًا بَيْنَما الشَّمْسُ تَنْعَطِفُ عَبْرَ الأُفُقِ مِثْلَ عَقارِبَ في ساعَةِ حائِطٍ. كانَ الغُروبُ الشَّهيرُ لِلشَّمْسِ في المَحيطِ الهادئِ بِكُلِّ عَظَمَتِهِ البَهِيَّةِ. أطْفَأَ (بيرش) المُحَرِّكَ، وَجَلَسَ الأرْبَعَةُ في صَمْتٍ عَلى ظَهْرِ القارِبِ، واكْتَفَوْا بِتَأَمُّلِ السَّماءِ.

«حانَ وقْتُ التَّوَقُّفِ،» قالَ (بيرش). «غَدًا يَبْدَأُ البَحْثُ.»



الفصلُ الخامِسُ وَالثَّلاثونَ

عـاصِفَةٌ بَـحرِيَّةٌ

في تِلْكَ اللَّيلَةِ، كانَ (ريو) مُتَوَتِّرًا جِدًّا، ولَمْ يَسْتَطِعِ النَّوْمَ. تَسَلَّلَ إلى ظَهْرِ القارِبِ، وَقَدْ حَرَصَ عَلى ألّا يُزعِجَ أحَدًا. قالَ (بيرش) إنَّهُمْ صاروا قَريبينَ جِدًّا مِنْ مَنطِقَةِ البَحْثَ. هَلْ يَعْني هذا أنَّ (وايت بيك) قَريبَةٌ مِنْهُمْ؟

كانَ الظَّلامُ حالِكًا، ولَمْ يَتَمكَّنْ مِنْ رُؤْيَةِ أيِّ شَيءٍ، لكِنَّهُ أصْغى السَّمْعَ إلى أبْعَدِ نُقْطَةٍ في اسْتِطاعَتِهِ، آمِلًا، رُغْمَ كُلِّ

التَّحَدِّياتِ، أنْ يَلْتَقِطَ أضْعَفَ نِداءٍ (لوايت بيك)، وأنْ تَظْهَرَ فَجْأَةً عَلى سَطْحِ البَحْرِ بِجانِبِ القارِبِ، وأنْ يَراها مِنْ جَديدٍ، وَيَتأَكَّدَ مِنْ أنَّها بِأمانٍ.

لكِنَّهُ، رغْمَ تَركيزِهِ الشَّديدِ، لَمْ يَسْمَعْ سِوى تلاطُمِ الأمْواجِ. أَطْلَقَ (ريو) تنْهيدَةً. غَدًا يومٌ جَديدٌ. غَدًا سيَعْثُرونَ عَليها.

لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالنُّعاسِ، فَاسْتَلْقى على المَقْعَدِ في مُقَدِّمَةِ القارِبِ، وجَعَلَ وَجْهَهُ إلى السَّماءِ. في غِيابِ أيِّ تَلَوُّثٍ ضَوئِيٍّ، تَلألأَتِ السَّماءُ بِالنُّجومِ، وانْعَكَسَتْ عَلى سَطْحِ البَحْرِ كَقُصاصاتِ وَرَقٍ مُلَوَّنَةٍ بَرّاقَةٍ. حَدَّقَ عالِيًا وشَعَرَ أنَّهُ يُحَدِّقُ إلى قَلْبِ الكَونِ النّابِضِ.

«إنَّها جَميلَةٌ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟» هَمَسَتْ (مارينا). وَضَعَتْ إصْبَعَها عَلى فَمِها في إشارَةٍ مِنْها إلى ضَرورَةِ أَنْ يَبْقى صامِتًا. اسْتَلْقَتْ عَلى المَقْعَدِ المُقابِلِ كَما فَعَلَ هُوَ، وَوَجْهُها مُلْتَفِتٌ إلى الأعْلى ناحِيَةَ السَّماءِ.

لَمْ يَتَحَدَّثْ أيٌّ مِنْهُما لِوَقْتٍ طَويلٍ جِدًّا، حَتّى سَمِعَها تَتَنَهَّدُ وَتَسْتَديرُ ناحِيَتَهُ. في الظُّلْمَةِ لَمْ يَكُنْ (ريو) قادِرًا على رُؤْيَةِ أيِّ شَيءٍ سِوى لَمَعانِ شَعْرِها وَبَريقِ أسْنانِها.

«هَلْ تَعْرِفُ أنَّكَ تُشْبِهُ، إلى حَدٍّ كَبيرٍ، حوتًا رَمادِيًّا؟» قالَتْ

بِهدوءٍ: «لَيْسَ مِنْ حيثُ الشَّكْلُ بِالطَّبْعِ، فَأنا لَمْ أَرَ أيَّ مَحارِ (بَرنَقيلٍ) عَلى جِسْمِكَ بَعْدُ. لكِنَّ الحيتانَ لا تَتَوَقَّفُ عَنِ السِّباحَةِ رُغْمَ كُلِّ الأشْياءِ الفَظيعَةِ الَّتي تَضْطَرُّ لِمُواجَهَتِها مِنْ أجْلِ البَقاءِ عَلى قَيدِ الحَياةِ. وهذا يُشْبِهُكَ كَثيرًا.»

لَمْ يَتَوَقَّفْ (ريو) يَومًا لِيُقارِنَ نَفْسَهُ بِأيِّ مَخْلوقٍ، ناهيكَ بِأضْخَمِ مَخْلوقٍ عَلى هذا الكَوكَبِ. لكِنَّهُ، في الوَقْتِ نَفْسِهِ، كانَ يَعرِفُ أنَّ (مارينا) مُحِقَّةٌ. لَقَدْ واجَهَ في سَنواتِ عُمْرِهِ الإحْدى عَشْرَةَ أكْثَرَ مِمّا يُواجِهُهُ مُعْظَمُ أقْرانِهِ.

شَيءٌ ما بَعيدٌ جِدًّا دَمْدَمَ بِصَوْتٍ عالٍ كأنَّما لِيُوافِقَهُما الرَّأْيَ.

«عاصِفَةٌ بَحْرِيَّةٌ.» قالَتْ (مارينا): «عَلى الأرْجَحِ عَلى بُعْدِ أمْيالٍ مِنّا، لكِنَّ صَدى الرَّعْدِ يَتَرَدَّدُ فَوقَ سَطْحِ البَحْرِ.»

لَمْ يَكُنْ (ريو) قادِرًا عَلى رُؤيَةِ أيِّ شَيءٍ. لكِنَّهُ كانَ قادِرًا عَلى الإحْساسِ بِالعاصِفَةِ. شَعَرَ بِالهَواءِ مَشْحونًا وَثَقيلًا كَما لَوْ أنَّ هُناكَ تَيّارًا خَفِيًّا يُكَهْرِبُ كُلَّ شيءٍ - بِما في ذلِكَ (ريو) نَفْسُهُ. انْتَصَبَتِ الشُّعَيراتُ عَلى ذِراعَيْهِ، وَأَحَسَّ بِفَكَّيْهِ مَشْدودَيْنِ.

حَتّى اللَّحظَةِ، كانَ المُحيطُ وَدودًا، لَمْ يُظْهِرْ إلّا أفْضَلَ جَوانِبِهِ وأكْثَرَها جَمالًا. لكِنَّ هذا كانَ تَذْكيرًا بِأنَّهُ لَيْسَ دَوْمًا

بِمِثْلِ هذا اللُّطْفِ. هَلِ المُحيطُ غاضِبٌ مِنْهُمْ؟ لأَنَّهُمْ يُثيرونَ هذِهِ الفَوْضى فيهِ؟

أَطْلَقَ نَفَسًا طَويلًا وبَطيئًا. ارْتَجَفَ حينَ ضَرَبَتِ القارِبَ مَوْجَةٌ شارِدَةٌ، وَرَشَّتْهُما بِالماءِ. تَبَلَّلَتْ (مارينا) تَمامًا، لكِنَّها لَمْ تَتَحَرَّكْ مُبْتَعِدَةً، وَكَذلِكَ لَمْ يَفْعَلْ (ريو).

«أنا خائفٌ.» اعْتَرَفَ لَها.

نَظَرَتْ (مارينا) نَحْوَهُ، وأَدْرَكَ أَنَّها فَهِمَتْ أَنَّهُ لا يَتَحَدَّثُ عَنِ العاصِفَةِ فَحَسْبُ. كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ مَخاوِفِهِ الأُخْرى بِشَأْنِ (وايت بيك)، والأَهَمُّ مِنْها، مَخاوِفُهُ بِشَأْنِ أُمِّهِ.

«أنا خائفةٌ أيضًا،» أجابَتْهُ: «لَيْسَ فَقط مِنْ قُدْرَتِنا عَلى إِنْقاذِ (وايت بيك)، بَلْ مِنْ قُدْرَتِنا عَلى إِنْقاذِ كُلِّ هذا حَقًّا.» حَرَّكَتْ يَدَها في إِشارَةٍ مِنها إلى المُحيطِ. «يَبْدو ضَخْمًا للغايَةِ أحْيانًا.»

«يَجِبُ ألّا تَتَخَلّي عَنِ الأَمَلِ أبدًا،» هَمَسَ (ريو)، وهوَ لا يُفَكِّرُ في أُمِّهِ فَقط. «خُصوصًا حينَ تكونُ هُنالِكَ فُرْصَةٌ.»

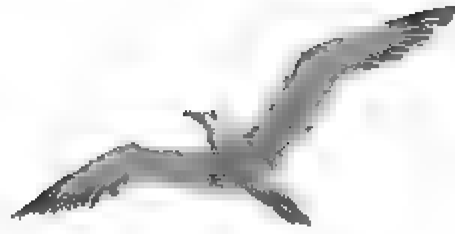
خَيَّمَ الصَّمْتُ. لَمْ يَتَخَلَّلْهُ شَيءٌ سِوى المَوجاتِ. مَوْجاتٍ شَرِسَةٍ تَنْبِضُ وَتَضْرِبُ.

«يَقولُ أبي إنَّ أفْضَلَ شَيءٍ نَفْعَلُهُ عِنْدَما نَكونُ خائفينَ هُوَ أنْ نَنْظُرَ إلى الأسْفَلِ، نَحْوَ المُحيطِ. اتَّضَحَ أنَّ المُحيطَ مِرْآةٌ لِكُلِّ

شَيءٍ يُمْكِنُ أنْ نَصيرَ عَليهِ. في أوَّلِ مَرَّةٍ فَعَلْتُ فيها ذلِك، كُلُّ ما أمْكَنني رُؤْيَتُهُ كانَ انْعِكاسَ صورَتي.» صَمَتَتْ قَليلًا. «لكِنّي أعْتَقِدُ أنَّ ذلِكَ هُوَ المَغْزى.»

ورُغْمَ أنَّ الظَّلامَ كانَ حالِكًا، فإنَّ (ريو) أطَلَّ مِنْ عَلى حافَّةِ القارِبِ عَلى أيِّ حالٍ. وفي ضَوءِ القَمَرِ المُكْتَمِلِ رَأى نَفْسَهُ مُنْعَكِسَةً على سَطْحِ البَحْرِ. رأى نُسْخَةً أَكْبَرَ، وَأَجْرَأَ مِنَ الفَتى الَّذي كانَ عَليهِ ذاتَ يَومٍ.

كأنَّ المُحيطَ قَدْ تَسَلَّلَ إلى داخِلِ جَسَدِهِ، وَمَنَحَهُ كُلَّ طاقَتِهِ وقُوَّتِهِ مِنْ أجْلِ المُغامَرَةِ المُقْبِلَةِ. وبَينَما اشْتَدَّتِ العاصِفَةُ في المَدى البَعيدِ، وتَحَوَّلَتِ السَّماءُ مِنَ الأَسْوَدِ، إلى الأزْرَقِ، إلى البَنَفْسَجِيِّ، حَتّى شَقَّها البَرْقُ، ارْتَعَدَ جَسَدُهُ؛ لِأنَّ (ريو) لَمْ يَأْتِ إلى هُنا لِلبَحْثِ عَنْ حوتٍ مَفقودٍ فَحَسْبُ، بَلْ خَرَجَ لِيَبْحَثَ عَنِ الشَّخْصِ الَّذي يُمْكِنُ أنْ يَصيرَهُ.



الفصلُ السّادِسُ وَالثّلاثونَ

مَنْطِقَةُ البَحْثِ

ما إنْ بَزَغَتْ أنْوارُ الفَجْرِ الأولى في صَباحِ اليَومِ التّالي، حَتّى قَفَزَ (ريو) مِنْ فِراشِهِ، ورَكَضَ نَحْوَ ظَهْرِ القارِبِ. إنَّهُ اليومُ المُنْتَظَرُ. حَتّى الهَواءُ بَدا مُخْتَلِفًا، كأنَّ العاصِفَةَ قَدْ خَلَّفَتْ وَراءَها مَذاقًا فيهِ. لَمْ يَكُنْ شَيئًا واضِحًا. فَقَطْ شُعورٌ طَفيفٌ بِأَنَّ شَيئًا في الجَوِّ قَدْ تَغَيّرَ.

كانَ (بيرش) قَدِ اسْتَيْقَظَ قَبْلَهُ، وَحَرَّكَ (سباي هوبر) بِرِفْقٍ

ناحِيَةَ الجَنوبِ قَبْلَ أنْ يوقِفَ المُحَرِّكَ. «ها نحنُ ذا،» قالَ. «قَدْ وَصَلْنا.»

لَمْ يَكُنْ (ريو) يَعْرِفُ ما يَجِبُ أنْ يَتَوَقَّعَهُ عِنْدَما يَصِلونَ إلى مَنْطِقَةِ البَحْثِ. لكِنَّهُ حينَ تَلَفَّتَ مِنْ حولِهِ لَمْ يَبْدُ لَهُ المَكانُ مُخْتَلِفًا عَنِ المكانِ الَّذي كانوا فيهِ سابِقًا. مُجَرَّدُ مِساحَةٍ كَبيرَةٍ وشاسِعَةٍ مِنَ المِياهِ الصّافِيَةِ الَّتي يُمكِنُ أنْ تُخْفِيَ تَحْتَها أيَّ شيءٍ. إنْ كانَتْ (وايت بيك) هُنا فَقَدْ تكونُ في أيِّ مَكانٍ.

لكنَّ أقَلَّ ما يُمْكِنُهُمْ عَمَلُهُ هَوَ أنْ يُحاوِلوا العُثورَ عَلَيها.

وَضَعَ الأربعَةُ أنْفُسَهُمْ في نِقاطٍ مُتَفَرِّقَةٍ عَلى القارِبِ: (ريو) و(مارينا) في مُقَدِّمَةِ القارِبِ، (بيرش) أمامَ الدَّفَّةِ عَلى الجانِبِ الأيمَنِ، أمّا (فران) فَأَصَرَّتْ أنْ تَقِفَ لِلمُراقَبَةِ عَلى الجانِبِ الأيْسَرِ.

«قدْ لا أكَونُ ذاتَ نَفْعٍ كَبيرٍ، لكِنَّ هذا يَظَلُّ أفْضَلَ مِنْ ألّا أفْعَلَ شَيئًا.» قالَتِ (فران): «سَنقومُ كُلُّنا بِالبَحْثِ البَصَرِيِّ. لكِنْ أنْتَ يا (ريو) عَلَيْكَ أنْ تُبْقِيَ أُذُنَيْكَ مُصْغِيَتَيْنِ أيْضًا، وأنْ تُخْبِرَنا بِمُجَرَّدِ سَماعِ أيِّ شَيءٍ.»

أَوْمَأَ (ريو) مُوافِقًا. جَفَّ فَمُهُ فَجْأَةً، وَشَعَرَ بِالعَطَشِ. هُناكَ فارِقٌ بَينَ أنْ تُحاوِلَ تَحديدَ مَوقِعِ حيتانٍ وأنْتَ تَعْرِفُ سَلَفًا أنَّها

قَرِيبَةٌ مِنْكَ، وأَنْ تكونَ في قَلْبِ المُحيطِ بِلا أيِّ يابِسَةٍ عَلى مَرْمى البَصَرِ.

طيلَةَ الصّباحِ اسْتَمَرَّ (بيرش) في تَحريكِ القارِبِ بِبُطْءٍ جيئَةً وَذَهابًا عَبْرَ مَنْطِقَةِ البَحْثِ، بَينَما أبْقى الجَميعُ أعْيُنَهُمْ مُتَيَقِّظَةً بِحِرْصٍ عَلى المِياهِ.

«هَلْ يُمْكِنُكَ سَماعُ أيِّ شَيءٍ؟» سَأَلَتْهُ (مارينا) وهِيَ تَمْسَحُ جَبينَها بِيَدِها.

هَزَّ (ريو) رأسَهُ. كانَ قَدْ أَجْهَدَ أُذُنَيهِ طيلَةَ الصَّباحِ، لكِنَّهُ رُغْمَ ذلِكَ لَمْ يَسْمَعْ وَلا حَتّى حوتًا واحِدًا. «لا يَزالُ أمامَنا اليَومُ بِطولِهِ،» قالَ مُتَفائِلًا. «سَتَظْهَرُ عاجِلًا أو آجِلًا.»

والشَّمْسُ تَعْلو إلى ذُرْوَتِها، أصْغى السَّمْعَ بِقُوَّةٍ أكْبَرَ مِنْ أيِّ وَقْتٍ مَضى في حَياتِهِ كُلِّها. لَيْسَ فَقَطْ مِنْ أجْلِ (وايت بيك)، بَلْ مِنْ أَجْلِ أيِّ حوتٍ قَدْ يَكونُ عالِقًا هُناك. لكِنْ دونَ جَدْوى. بَقِيَ المُحيطُ هادِئًا بِشَكْلٍ مُحْبِطٍ.

عِنْدَما أَخَذَ الآخَرونَ اسْتِراحَةً قَصيرَةً لِتَناوُلِ وَجْبَةِ غَداءٍ، ظَلَّ (ريو) في مَوْضِعِهِ عِنْدَ مُقَدِّمَةِ القارِبِ. «لا أُريدُ أَنْ تَفوتَني رُؤْيَتُها أو سَماعُها،» قالَ بِيَأْسٍ، رافِضًا بِإشارَةٍ مِنْ يَدِهِ الطَّعامَ الَّذي قُدِّمَ لَهُ. «عَلَيَّ أنْ أَبْقى مُنْتَبِهًا.»

لكِنْ، وَبَيْنَما اليومُ يَنْقَضي، و(ريو) يُحاوِلُ الإصْغاءَ بِشِدَّةٍ بَحْثًا عَنْ أَثَرٍ (لوايت بيك)، صارَ كُلُّ شَيءٍ آخَرَ مِنْ حَوْلِهِ أَعْلى صَوتًا، بِشَكْلٍ مُثيرٍ لِلغَضَبِ: صُراخُ طُيورِ النَّوْرَسِ وزَعيقُها، صَوتُ ارْتِطامِ الأَمْواجِ بِهَيْكَلِ القارِبِ، وَحَتّى صَوْتُ أَنْفاسِهِ وَهِيَ تُصَرْصِرُ وَتُخَشْخِشُ في صَدْرِهِ.

ورُغْمَ هذا لَمْ يَتَحَرَّكْ (ريو) مِنْ مَوْضِعِهِ. ولا حَتّى حينَ صارَ الجَوُّ، حارًّا وثَقيلًا بَعْدَ الظَّهيرَةِ، ولا حَتّى حينَ تَمَوَّجَ سَطْحُ المُحيطِ وَتَلَأْلَأَ في سَديمٍ ضَبابِيٍّ رَقيقٍ، ولا حَتّى حينَ أَصابَهُ عَطَشٌ شَديدٌ، وظَنَّ أَنَّ لِسانَهُ قَدْ يَلْتَصِقُ بِسَقْفِ فَمِهِ.

في ذلِكَ الوَقْتِ، كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ بَدَأَتْ تَغوصُ أَكْثَرَ في السَّماءِ، وتُريحُ خَدَّها بِرِفْقٍ فَوقَ سَطْحِ الماءِ. شَعَرَ (ريو) بِوَجَعٍ في أَطْرافِهِ، وَحُرْقَةٍ في عَينَيْهِ، وَأَلَمٍ في أُذُنَيْهِ. لكِنْ عَليهِ أَنْ يَفْعَلَ هذا. عَليهِ أَنْ يَجِدَ (وايت بيك).

إِلّا أَنَّ كُلَّ هذا كانَ بِلا فائدةٍ. فكُلَّما اجْتَهَدَ في الإصْغاءِ قَلَّ ما سَمِعَهُ. لا شَيءَ سِوى أَفْكارِهِ المَحْمومَةِ تُغْرِقُ كُلَّ شيءٍ آخَرَ.

«(ريو)!» نادَتْهُ (فران). «هذا لَنْ يُجْدِيَ نَفْعًا، نَحْتاجُ إلى خُطَّةِ عَمَلٍ جَديدَةٍ.»

أَلْقى (ريو) نَظْرَةً طَويلَةً وأَخيرَةً عَلى المُحيطِ السّاكِنِ، ثُمَّ

انْضَمَّ إلى الآخَرينِ عَلى مَضَضٍ. كانوا واقِفينَ في صَمْتٍ حَزينٍ. لَمْ يَقُلْ أَحَدُهُمْ شَيئًا، ولَمْ يَكونوا بِحاجَةٍ إلى هذا. كانَ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَشْعُرَ بِخَيبَةِ أَمَلِهِمْ. لَقَدْ جَرَّهُمْ إلى عُرْضِ المُحيطِ لِلعُثورِ عَلى (وايت بيك)، لكِنَّهُ فَشِلَ.

لَقَدْ خَذَلَ (وايت بيك).

والأَهَمُّ مِنْ هذا كُلِّهِ أَنَّهُ خَذَلَ أُمَّهُ.

«لَقَدْ بَذَلْتَ قُصارى جُهْدِكَ،» قالَتْ (مارينا) كأنَّها تَقْرأُ أفْكارَهُ. رَبَّتَتْ عَلى ذِراعِهِ لِتُطَمْئِنَهُ. «رُبَّما هِيَ لَيْسَتْ هُنا.»

«لَمْ يَرَها أَحَدٌ في أيٍّ مِنْ مَناطِقِ البَحْثِ الأُخْرى أيضًا،» قالَ (بيرش)، ثُمَّ أَلْقى نَظْرَةً قَلِقَةً عَلى العَلَمِ الَّذي كانَ يُرَفْرِفُ بِقُوَّةٍ في الهَواءِ. «الرِّياحُ تَزْدادُ قُوَّةً.»

كَشَّرَتْ (مارينا)، وتَبادَلَ الأَبُ وابْنَتُهُ نَظْرَةً لا يُمْكِنُ سَبْرُ أَغْوارِها. نَظْرَةً لَمْ يَعْرِفْ (ريو) كَيْفَ يُفَسِّرُها، نَظْرَةً لَمْ تُعْجِبْهُ بِالتَّأكيدِ.

«عَلَيْنا أَنْ نُواصِلَ المُحاوَلَةَ،» قالَ (ريو) مُتَوَسِّلًا.

وهكَذا، رُغْمَ الأَمْواجِ المُضْطَرِبَةِ بِشَكْلٍ مُتَزايِدٍ، واصَلَ الأَرْبَعَةُ عَمَلِيَّةَ البَحْثِ. الآنَ، لَمْ يَعُدْ (ريو) قادِرًا عَلى تَذَكُّرِ وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ فيهِ عَلى مَتْنِ القارِبِ. لَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى تَذَكُّرِ

شَكْلِ اليابِسَةِ. أوْ عَدَمِ وُجودِ مَذاقِ البحرِ عَلى شَفَتيهِ، أو الرّائحَةِ الّتي تُغَلِّفُ جِلْدَهُ. لَقَدْ تَرَكَ نَفْسَهُ القَديمَةَ وَراءَهُ عَلى الشّاطِئِ، وفي مَكانِها، ظَهَرَ شَخْصٌ آخَرُ. كأنّما تَسَلَّلَ إلى داخِلِ جِلْدٍ جَديدٍ أكْثَرَ صَلابَةً وَمَصنوعٍ مِنَ البَحرِ نَفْسِهِ.

لكنْ حَتّى بِعَزيمَتِهِ الجَديدَةِ، ظَلَّتِ المِياهُ خاوِيَةً عَلى نَحْوٍ مُحْبِطٍ. لَمْ تَرَ أيٌّ مِنْ قَوارِبِ البَحْثِ الأُخْرى (وايت بيك).

أينَ هِيَ؟

بَعْدَ ساعَةٍ أُخْرى مِنَ المُراقَبَةِ، ساعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ خِلالَها شَيءٌ سِوى دولفينٍ وَدودٍ، وسِرْبٍ مِنَ الأسْماكِ المُلَوَّنَةِ، وطَقْسٍ يَزْدادُ سوءًا، أَوْقَفَ (بيرش) القارِبَ. بَدَأَ الضَّوْءُ في التَّلاشي، وفي الغَسَقِ القاتِمِ، صارَ لِكُلِّ شَيءٍ حَتّى هُمْ إحْساسٌ مُبْهَمٌ بِأَمْرٍ عاجِلٍ.

أَصَرَّتِ (فران) أنْ يَأْكُلَ (ريو)، لكِنَّهُ مَضَغَ شَطيرَتَهُ كأنَّها مَصنوعَةٌ مِنَ الوَرَقِ المُقَوّى. أمّا (مارينا) فَراحَتْ تُصَفّي حُنْجُرَتَها بِاسْتِمرارٍ، بَينَما (بيرش) أَخَذَ يَنْقُرُ بِأَصابِعِهِ عَلى الدَّفَّةِ قَبْلَ أنْ يَخْتَفِيَ أخيرًا تَحْتَ سَطْحِ القارِبِ.

بَلَعَ (ريو) ريقَهُ. «ما الّذي يَحْدُثُ؟»

عَضَّتْ (مارينا) عَلى شَفَتَيْها وهِيَ تَتَخَيَّرُ كَلِماتِها بِحِرْصٍ: «قالَ أبي . . . سَيكونُ عَلَينا العَودَةُ قَريبًا، خُصوصًا إنِ ازْدادَ الطَّقْسُ سوءًا.»

«لا يُمْكِنُنا فِعْلُ هذا!» صاحَ (ريو). «لَيْسَ حَتّى نَجِدَ (وايت بيك). أنا أعْرِفُ أنَّها هُنا في مَكانٍ ما!»

«لكِنَّنا . . . لكِنَّنا لَمْ نَعْثُرْ عَلَيْها حَتّى الآنَ، ثُمَّ انْظُرْ!» قالَتْ (مارينا) وأشارَتْ بِيَدِها إلى السُّحُبِ الرَّمادِيَّةِ المُتَجَمِّعَةِ في السَّماءِ والمِياهِ المُضْطَرِبَةِ بِشَكْلٍ يُنْذِرُ بِالخَطَرِ.

«لا يُمْكِنُنا أنْ نَسْتَسْلِمَ! لَيْسَ الآنَ! لَيْسَ بَعْدَ أنْ قَطَعْنا هذا الشَّوطَ!»

«لا يُمْكِنُنا أنْ نُواصِلَ البَحْثَ لِلأَبَدِ يا (ريو)،» أجابَتْهُ (مارينا) بِرِفْقٍ. «خاصَّةً وأنَّهُ لا يوجَدُ أيُّ شَيءٍ هُناكَ.»

حَدَّقَ بِغَضَبٍ إلَيها. طَحَنَ بِيَدِهِ ما تَبَقّى مِنْ شَطيرَتِهِ، ثُمَّ ألْقى بِها في البَحْرِ، لِتَبْتَلِعَها الأعْماقُ المُظْلِمَةُ كُلُّها.

خَرَجَ (بيرش) مِنَ المَقْصورَةِ. «سَنعودُ أدْراجَنا، مِنَ الخَطَرِ أنْ نُواصِلَ البَحْثَ.»

أرادَ (ريو) أنْ يَحْتَجَّ، لكِنْ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، كانَ غَضَبُهُ قَدْ تَجَمَّعَ وَزُمَّ بِإحْكامٍ داخِلَ حَلْقِهِ، حَتّى إنَّهُ لَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى

التَّنَفُّسِ، ولَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى الكَلامِ. غَرَزَ الذُّعْرُ الجامِحُ مَخالِبَهُ في أَعْماقِهِ.

رَبَّتَ (بيرش) عَلى كَتِفِهِ. «لَقَدْ حاوَلْنا يا (ريو). بَذَلْنا قُصارى جُهْدِنا. وأحْيانًا يَكونُ هذا هُوَ الشَّيءُ الأَهَمُّ.»

كانَتِ الكَلِماتُ شَبيهَةً جِدًّا بِالأشياءِ الَّتي كانَتْ أُمُّهُ تَقولُها، حَتّى إنَّ (ريو) كادَ يَراها واقِفَةً إلى جِوارِ (بيرش).

«ساعَةٌ أُخْرى؟» قالَ مُتَوَسِّلًا. «أَرْجوكَ، ساعَةٌ واحِدَةٌ أُخْرى فَقَط؟»

«لَسْتُ واثِقًا أَنَّ هُناكَ جَدْوى مِنْ هذا،» أجابَهُ (بيرش): «لا أَعْتَقِدُ أنَّنا سَنَعْثُرُ عَلَيْها، لَيْسَ الآنَ بَينَما الرُّؤْيَةُ ضَعيفَةٌ لِلغايَةِ.»

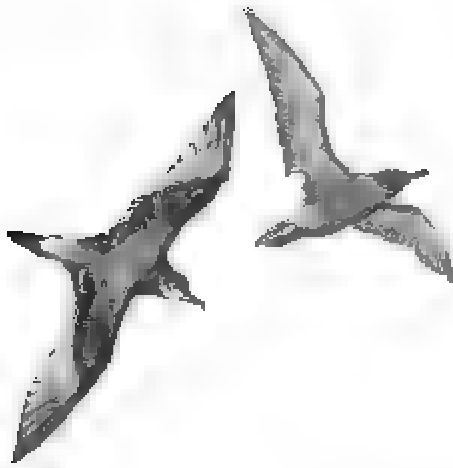
أَحَسَّ (ريو) بِالتَّعَبِ حَتّى النُّخاعِ. تَعَبٌ لَيْسَ في الجَسَدِ فَحَسْبُ، بَلْ في القَلْبِ وَالرّوحِ. تَعَبٌ شَديدٌ جَعَلَ الاسْتِسْلامَ مُغْرِيًا. شَعَرَ بِعَيْنَيْهِ ثَقيلَتَينَ، لكِنَّهُ حينَ أَغْمَضَهُما لَمْ يَكُنْ ما رَآهُ نَوْمًا مُظْلِمًا مُريحًا. كانَ أَعْذَبَ وأطْيَبَ وَجْهٍ رَأَتْهُ عَيناهُ عَلى الإطْلاقِ. الوَجْهُ الَّذي كانَ يَحْرُسُهُ طيلَةَ وُجودِهِ في (أوشن باي). الوَجْهُ الَّذي أَبْقاهُ آمِنًا في الماءِ. لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ حوتٍ. كانت (وايت بيك).

«دَعوني أحاوِلْ! » قالَ (ريو) في يأْسٍ: «أَرْجوكُمْ دَعوني

أحاوِلُ العُثورَ عَلَيها!»

«كيفَ؟» سَأَلَتْهُ (مارينا) في حَيْرَةٍ. «إنَّها بَعيدَةٌ لِلغايَةِ حَتّى تَسْمَعَها، وإلّا لَكُنْتَ قَدْ سَمِعْتَها مُنْذُ زَمَنٍ. ما الَّذي تَغَيَّرَ؟»

حينَها، جاءَتِ الإجابَةُ، كأَنَّهُ كانَ يَعرِفُها طيلَةَ الوَقْتِ. «لأنَّني لَمْ أكُنْ أُصْغي بِقَلْبي.»



الفصلُ السّابِعُ وَالثّلاثونَ

إصْغاءٌ

أغمَضَ (ريو) عَيْنَيْهِ، وَأَخَذَ يُصْغي.

في البِدايَةِ، لَمْ يَسمَعْ أيَّ شَيءٍ سِوى نَبَضاتِ قَلْبِهِ المُتَتالِيَةِ بِداخِلِ صَدْرِهِ. لَمْ يُلاحِظْ مِنْ قَبْلُ كَمْ هِيَ سَريعَةٌ. تَضْرِبُ وَتَقْفِزُ في هذا الاتِّجاهِ وَذاكَ. كانَتْ عَيناهُ مُغْمَضَتَينِ، لكِنَّهُ كانَ لا يَزالُ قادِرًا عَلى الإحساسِ بِنَظَراتِ (مارينا) و(بيرش) المُصَوَّبَةِ نَحْوَهُ. تَمايَلَ جَسَدُهُ يَمينًا وَيَسارًا في إحْراجٍ.

أَخَذَ نَفَسًا عَميقًا لِيَتمالَكَ نَفْسَهُ، وأصْغى بِقُوَّةٍ أكْبَرَ.

سَمِعَ الأشْياءَ المُعْتادَةَ؛ صَريرَ القارِبِ وأَنينَهُ، ضَرَباتِ الأمْواجِ، وخَفَقاتِ العَلَمِ.

وهكَذا، غاصَ في العُمْقِ أكْثَرَ. إلى مَكانٍ حيثُ توجَدُ أشْياءُ لَمْ يَتَوَقَّفِ البَشَرُ يومًا كي يُصْغوا إلَيها. أشْياءُ نَسَوْا كَيفَ يُصْغونَ إلَيها.

لَمْ يَسمَعْ صَريرَ (سباي هوبر) وأَنينَها فَحَسْبُ، بَلْ كُلَّ لَوْحٍ خَشَبيٍّ مِنْ ألْواحِ هَيْكَلِ القارِبِ المُصَمَّمَةِ بِاليَدِ، أشْجارَ البَلّوطِ العِملاقَةَ الَّتي جاءَتْ مِنْها، حَتّى التُّرْبَةَ الخِصْبَةَ الغَنِيَّةَ الَّتي خَرَجَتْ مِنْها.

سَمِعَ السَّماءَ هَمَساتِ السُّحُبِ حينَ تُهَرْوِلُ بَعيدًا وعالِيًا، والصَّمْتَ المُقَدَّسَ لِلفَضاءِ الأزْرَقِ مِنْ فَوْقِها.

سَمِعَ الرِّياحَ تُداعِبُ وَجْهَهُ، تَهْمِسُ بِرَسائِلَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ.

سَمِعَ البَحْرَ - لَيْسَ فَقَطْ حينَ يَلْتَفُّ حَوْلَ القارِبِ، بَلْ حينَ يَتَنَفَّسُ شَهيقًا وزَفيرًا كأنَّهُ رِئَةُ الأرضِ.

سَمِعَ داخِلَ البحرِ - الأسْماكَ الفِضِّيَّةَ اللّامِعَةَ، الدَّلافينَ، السَّلاحِفَ، أسْماكَ القِرْشِ. سَمِعَ صَوتَ كُلِّ واحِدَةٍ مِنها:



فُضولِيَّةٍ، وَودودَةٍ، وغالِبًا خائِفَةٍ.

سَمِعَ الكائناتِ الحَيَّةَ في قاعِ المُحيطِ - حيثُ المَخلوقاتُ الغامِضَةُ تُصْدِرُ أصْواتًا لَمْ تَسمَعْها أُذُنُ بَشَرٍ مِنْ قَبْلُ.

مَدَّ (ريو) نَفْسَهُ إلى أبْعَدِ مَكانٍ استَطاعَ الوُصولَ إلَيهِ. إلى مَكانٍ صارَ فيهِ قَلْبُهُ مَفْتوحًا ومُمتَنًّا وَحَيًّا كَما لَمْ يكُنْ مِنْ قَبْلُ.

مَدَّ نَفْسَهُ أكْثَرَ، حَتّى لَمْ يَعُدْ هُناكَ شَيءٌ عَداهُ، والقارِبُ، وَروحُ الأرضِ.

حينَها أدرَكَ (ريو) شَيئًا مُذْهِلًا.

لَمْ يَكُنِ المُحيطُ مُجَرَّدَ كُتْلَةٍ مائيَّةٍ - شَيءٌ يَربِطُ كُتَلَ اليابِسَةِ كُلِّها بِبَعْضِها بَعضًا. كانَ المُحيطُ أعْظَمَ مِنْ هذا بِكَثيرٍ. كانَ المُحيطُ يَتَنَفَّسُ كَما يَتَنَفَّسُ (ريو). ويَغْضَبُ كَما يَغْضَبُ (ريو). وأحْيانًا كانَ يَحْزَنُ كَما يَحْزَنُ (ريو).

لَمْ يَكُنِ المُحيطُ شَيئًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ. كانَ جُزْءًا مِنْهُ.

وحينَها سَمِعَ شَيئًا آخَرَ - شَيئًا غَريبًا وجَميلًا ولَهُ صَدًى.

صوتَ الحوتِ الَّذي لا لَبْسَ فيهِ.

انْفَتَحَتْ عَينا (ريو) على اتِّساعِهِما، ولِدَهشَتِهِ لَمْ يَتَغَيَّرِ العالَمُ الخارِجِيُّ ولَوْ قَليلًا. لكِنْ، في داخِلِ صَدْرِهِ، كانَ قَلْبُهُ

يَدُقُّ ويَزْأَرُ ويَنْبِضُ بِالحَياةِ.

«في هذا الاتِّجاهِ!» أشارَ نَحْوَ الأُفُقِ البَعيدِ. «وايت بيك في هذا الاتِّجاهِ!»

دونَ أنْ يَتَرَدْدَ وَلا لَحْظَةً واحِدَةً، أَشْعَلَ (بيرش) المُحَرِّكَ، وانْطَلَقَ بِالقارِبِ مُسْرِعًا عَبْرَ الماءِ. أبْحَروا لِأَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ دَقائِقَ، مُرْتَطِمينَ بِالأمواجِ تارَةً، ومُخْتَرِقينَ لَها تارَةً أُخْرى، والرِّياحُ تَصْفَعُ وُجوهَهُمْ.

«هُناكَ!» صاحَتْ (مارينا) أخيرًا. «يُمْكِنُني أنْ أرى شيئًا!»

أشارَتْ بِشَكْلٍ مَحْمومٍ إلى نُقْطَةٍ بَعيدَةٍ عَلى الجانِبِ الأيمَنِ مِنَ القارِبِ. ضَيَّقَ (ريو) عَيْنَيْهِ وحَدَّقَ، لكِنَّهُ لَمْ يَرَ شَيئًا، ورُوَيْدًا رُوَيْدًا اتَّضَحَ أمامَهُ شَكْلٌ رَمادِيٌّ.

حوتٌ.



الفصلُ الثّامِنُ والثَّلاثونَ

في مَـــأْزَقٍ

«قَدْ لا تكونُ وايت بيك،» قالَ (بيرش) بِحَذَرٍ: «دَعونا نَقتَرِبُ أكثَرَ.»

حَرَّكَ (بيرش) القارِبَ بِلُطْفٍ إلى الأمامِ، وقَدْ قَطَّبَ جَبينَهُ في قَلَقٍ. كانَ الحوتُ على بُعْدِ مِئَةِ مِترٍ تَقريبًا.

لَمْ يَستَطِعْ (ريو) أنْ يَرى شيئًا بِاسْتِثناءِ الماءِ المُنْدَفِعِ بِقُوَّةٍ عالِيًا نَحْوَ السَّماءِ بينَ حينٍ وآخَرَ. ورغْمَ هذا، تَسَلَّلَ إلى داخِلِ

جَسَدِهِ إحْساسٌ فَظيعٌ. تَشَبَّثَتْ أصابِعُهُ بِسُتْرَةِ النَّجاةِ، وراقَبَ بِتَوَتُّرٍ.

«هُناكَ خَطْبٌ ما.» وَضَعَتْ (مارينا) مِنْظارَها عَلى وَجْهِها وَكَشَّرَتْ: «انْظُرْ.»

«الحوتُ عالِقٌ في شَبَكَةِ صَيدٍ.» قالَ (بيرش) ثُمَّ نَظَرَ إلى السُّحُبِ الآخِذَةِ بِالاسْوِدادِ: «سَيكونُ عَلَينا أنْ نَتَوَخّى الحَذَرَ.»

«يا اللهُ! يا لَلمِسكينِ!» هَتَفَتْ (مارينا). وهِيَ تَضَعُ يَدَها عَلى فَمِها.

فَهُناكَ، في قَلْبِ المُحيطِ الهادِئِ، كانَ أفْظَعُ مَنْظَرٍ رآهُ (ريو) عَلى الإطْلاقِ.

كانَ الحوتُ مُسْتَلْقِيًا جُزْئيًا عَلى جانِبِهِ، بَينَما الْتَفَّتْ حَوْلَهُ أمْتارٌ مِنْ حِبالٍ زَرْقاءَ سَميكَةٍ، قَيَّدَتْهُ بِإحْكامٍ حَتّى لَمْ يَعُدْ قادِرًا عَلى الحَرَكَةِ. الأَسْوَأُ مِنْ هذا كُلِّهِ، أنَّ بِرَكًا مِنَ الدِّماءِ تَجَمَّعَتْ حَوْلَ جَسَدِهِ.

انْطَفَأَتْ مُحَرِّكاتُ القارِبِ، وراحَ يَقْتَرِبُ بِرِفْقٍ مِنْ مَكانِ الحوتِ، حَتّى صاروا الآنَ عَلى بُعْدِ أمْتارٍ قَليلَةٍ مِنْهُ. حينَ شَعَرَ الحوتُ بِاقْتِرابِهِمْ، رَفَعَ أنْفَهُ.

أنْفَهُ *الأبيَض*.

«(ريو)! لَقَدْ عَثَرْتَ عَلَيها!» صاحَتْ (مارينا): «إنَّها وايت بيك!»

بَينَما حَدَّقَ (ريو) إلى وَجْهِها، أدرَكَ أنَّهُ لَنْ يَنْسى هذا المَشْهَدَ أبَدًا مَهْما عاش مِنْ سِنينَ عَلى هذِهِ الأرضِ.

كانَتْ مائلَةً قليلًا عَلى جانِبِها الأيْسَرِ، وكانَتْ عَيْنُها الظّاهِرَةُ عَلى السَّطْحِ تَنْظُرُ مُباشَرَةً إلَيهِ. كانَتْ عَيْنٌ بِحَجْمِ كُرَةِ التِّنِسِ تُحَدِّقُ إلى أعْمَقِ جُزْءٍ فيهِ.

«ما هذا؟» تَساءَلَ (ريو). «ما هذا الشَّيءُ الّذي عَلِقَتْ فيهِ؟»

«حِبالٌ مِنَ الفولاذِ الأزرَقِ،» قالَ (بيرش)، وَصارَ يَلْعَنُ بِصَمْتٍ: «إنَّها شَديدَةُ الضَّرَرِ، هِيَ حِبالٌ صِناعِيَّةٌ سَميكَةٌ يَستَخدِمُها الصَّيّادونَ لِإنْزالِ مَصايِدِ السُّلْطعونِ وجَرادِ البَحرِ إلى قاعِ البحرِ. لكنَّها تَقْتُلُ الحيتانَ إنْ عَلِقَتْ فيها وهُوَ ما يَحْدُثُ في أغْلَبِ الأحْيانِ. تُقَيِّدُهُمْ تِلكَ الحِبالُ، وكُلَّما حاوَلوا الهَرَبَ مِنها عَلِقوا فيها أكْثَر.»

«لكنْ ألا يُمْكِنُنا أنْ نُخَلِّصَها مِنها؟» قالَ (ريو) مُتَوَسِّلًا:

راحَتْ (وايت بيك) تَضْرِبُ بِزُعْنُفَتِها عَلى سَطْحِ الماءِ كَما لَوْ أنَّها سَمِعَتْهُمْ. قَرَّبَ (بيرش) القارِبَ بِبُطْءٍ حَتّى لَمْ يَعُدْ يَفْصِلُ بَينَهُمْ وبَيْنَها إلّا مَسافَةُ ذِراعٍ. كانَتْ ثَلاثَةُ أضْعافِ حَجْمِ القارِبِ،

كانَتْ قَرِيبَةً لِلغايَةِ حَتّى إنَّ (ريو) كانَ قادِرًا عَلى سَماعِ صَوْتِ أنْفاسِها، سَرِيعَةً وضَعيفَةً ومُجْهَدَةً. ارْتَعَدَ قَلْبُهُ ونَظَرَ بَعيدًا. كانَ هُناكَ شَيءٌ شَديدُ الخُطورَةِ حِيالَ مَخْلوقٍ بِهذا الحَجْمِ حينَ يَكونُ عَلى هذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الألَمِ.

«أنتِ ضَعيفَةٌ لِلغايَةِ، أَلَيْسَ كَذلِكَ يا فَتاةُ؟» قالَ (بيرش) بِرِفْقٍ حينَ غاصَتْ زُعْنُفَةُ (وايت بيك) بِبُطْءٍ تَحتَ الماءِ. «هَلْ سَتَسْمَحينَ لَنا بِمُساعَدَتِكِ؟»

«يا لَلمِسكينَةِ، كَيفَ بِحَقِّ السَّماءِ سَمَحْنا لِعالَمِنا أنْ يَصِلَ إلى هذا الوَضْعِ؟»

في غَمْرَةِ مَشاعِرِهِ نَسِيَ (ريو) وُجودَ جَدَّتِهِ تَمامًا. كانَتْ وَجْنَتاها فاقِعَتَي الاحْمِرارِ، وكانَتْ تنظُرُ إلى الحوتِ وَتعبيرٌ غاضِبٌ عَلى وَجْهِها.

«نحنُ مَنْ فَعَلَ بِها هذا.»

مالَتْ (مارينا) بِجِذْعِها مِنْ عَلى حافَّةِ القارِبِ، وَمَدَّتْ يَدَها حتّى كادَتْ تَلْمِسُ (وايت بيك). «لا بَأْسَ، نحنُ هُنا لِمُساعَدَتِك.»

«نحنُ بِحاجَةٍ لِلدَّعْمِ» قالَتِ (فران)، فارِدَةً كَتِفَيها: «سَأُرْسِلُ نِداءً عَبْرَ اللّاسِلْكِيِّ لِأرى إنْ كانَتْ هُناكَ قَوارِبُ أُخْرى في المَنْطِقَةِ المُجاوِرَةِ. كَمْ لَدَينا مِنْ وَقْتٍ يا (بيرش)؟»

هَزَّ (بيرش) رَأْسَهُ: «لَيْسَ كَثيرًا، ساعَةً عَلى الأَكْثَرِ.»

«سَأَطْلُبُ إِلَيهِم أَنْ يَتَعَجَّلوا.»

بَينَما اخْتَفَتِ (فران) تحتَ سَطْحِ القارِبِ لِإجراءِ المُكالَماتِ اللّازِمَةِ، راحَتْ (مارينا) تُهَدْهِدُ وتَهْمِسُ (لوايت بيك). كانَ صَوْتُها مَبْحوحًا ومُتَهَدِّجًا.

«لا بَأْسَ عَليكِ، نحنُ هُنا الآنَ،» تَمْتَمَتْ. «نحنُ هُنا لإنْقاذِكِ.»

هَيَّأَ (ريو) نَفْسَهُ مِنْ أجْلِ أنْ يُلْقِيَ نَظْرَةً أُخْرى. كانَ مُعْظَمُ جَسَدِ (وايت بيك) تحتَ سَطْحِ الماءِ، لكِنَّ جانِبَها الأَيْسَرَ ونِصْفَ وَجْهِها كانا فَوْقَ الماءِ. حينَ نَظَرَ عَنْ قُرْبٍ، أدرَكَ أَنَّ الحِبالَ قَدْ سَلَخَتْ جِلْدَها في أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ. «أَلا يُمْكِنُها أَنْ تَتَحَرَّرَ؟»

هَزَّتْ (مارينا) رأسَها: «انْظُرْ كَيفَ هِيَ عالِقَةٌ بِشَكْلٍ مُحْكَمٍ؟ كُلَّما حاوَلَتْ تَحريرَ نَفْسِها، ازدادَ إِحْكامُ الحَبلِ عَلَيها، إنَّها ضَعيفَةٌ لِلغايَةِ، وَبالكادِ تَستَطيعُ أَنْ تُبْقِيَ نَفْسَها فَوقَ الماءِ. سَتَغْرَقُ ما لَمْ نُساعِدْها.»

صَعِدَتِ (فران) إلى ظَهْرِ القارِبِ في تِلكَ اللَّحظَةِ. نَظَرَتْ إلى السُّحُبِ الرَّمادِيَّةِ المُتَجَمِّعَةِ بِعينٍ قَلِقَةٍ: «لَقَدْ أَرْسَلْتُ رِسالَةَ اسْتِغاثَةٍ لاسِلْكِيَّةً، لكِنْ لَيسَ لَدَيَّ أَدْنى فِكْرَةٍ كَمْ مِنَ الوَقْتِ سَيَسْتَغْرِقُ وُصولُ أَقْرَبِ قارِبٍ إلى هُنا. آمَلُ أَلّا يكونَ طَويلًا.»

فَتحَ (بيرش) مَخْزَنَ ظَهْرِ القارِبِ الصَّغيرِ، وأخرَجَ قِناعَ غَطْسٍ وكَشّافًا مُضادًّا لِلماءِ. «في الوَقتِ الرّاهِنِ، سَأُلْقي نَظرَةً فَقَطْ. فَلْتُمْسِكي الدَّفَّةَ بِثَباتٍ يا (مارينا). أَبْقي المُحَرِّكَ في وَضْعِ الاسْتِعدادِ، ولا تَدَعي القارِبَ يَقترِبُ أكْثَرَ مِنَ اللّازِمِ. مَفْهومٌ؟»

ومِنْ دونِ أنْ يَقولَ كَلِمَةً أُخْرى، انْزَلَقَ إلى الماءِ، وغاصَ لِوَقْتٍ طَويلٍ قَبْلَ أنْ يَعودَ إلى السَّطْحِ، وَيَنْزِعَ غِطاءَ الفَمِ. «الأَمْرُ أَسْوَأُ مِمّا كُنْتُ أخْشى. هُناكَ قُرابَةُ خَمْسِ مَصايِدَ جَرادِ بَحْرٍ عالِقَةٌ بِها، وَبالإضافَةِ إلى هذا، هُناكَ شَبَكَةُ صَيدٍ مَعقودَةٌ حَولَ ذَيلِها.»

«شَبَكَةٌ تائهَةٌ.» تَمْتَمَتْ (مارينا).

سَحَبَ (بيرش) نَفْسَهُ خارِجَ الماءِ، وعادَ إلى ظَهْرِ القارِبِ. ثُمَّ هَزَّ رأسَهُ بِاسْتِنْكارٍ: «لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أنَّ القَوارِبَ الأُخْرى سَتَصِلُ إلى هُنا في الوَقْتِ المُناسِبِ.»

«عَلَينا أنْ نُحَرِّرَها،» قالَ (ريو) بِحَنَقٍ: «لا يُمْكِنُنا أنْ نَجلِسَ ونَنْتَظِرَ فَقطْ دونَ أنْ نَفعَلَ شَيئًا!»

«أَتَّفِقُ مَعَكَ،» أجابَهُ (بيرش): «لكِنَّها ضَعيفَةٌ لِلغايَةِ. ولَنْ يكونَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيَّ أنْ أُحَرِّرَها بِمُفْرَدي.»

قالَتْ (مارينا): «لكِنَّكَ لَسْتَ بِمُفْرَدِكَ، نحنُ هُنا جَميعًا مَعَكَ.»

«(مارينا).» أجابَها (بيرش) بِصوتٍ مُنْخَفِضٍ: «لَنْ يَغوصَ أحَدٌ في الماءِ سِوايَ. إنَّها جَريحَةٌ ومَفجوعَةٌ، وهذا يَجعَلُ أيَّ حَيوانٍ جامِحٍ خَطيرًا لِلغايَةِ. ضَرْبَةٌ واحِدَةٌ مِنْ زُعْنُفَتِها أوْ ذَيلِها سَتَجْعَلُكِ تُصابينَ بِأَذًى شَديدٍ.»

«لكِنَّها بِحاجَةٍ إلَينا،» بَلَعَتْ (مارينا) ريقَها، وابْتَلَعَتْ مَعَهُ دُموعَها: «لا يُمْكِنُني الجُلوسُ هُنا والاكْتِفاءُ *بِالمُراقَبَةِ*.»

«ولا أنا!» قالَ (ريو) بانْفِعالٍ.

«ولا أنا،» قالَتِ (فران) بِأفْضَلِ نَبْرَةِ صَوتِ مُعَلِّمَةٍ لَدَيها: «لكنَّ (بيرش) مُحِقٌّ – لا يُمْكِنُنا جَميعًا أنْ نَغوصَ في الماءِ. ومَعَ ذلِكَ، هذا لا يَعْني أنَّنا لا نَسْتَطيعُ المُساعَدَةَ. سَأذهَبُ إلى اللّاسِلْكِيِّ مَرَّةً أُخْرى، وأُلِحُّ على كُلِّ القَوارِبِ القَريبَةِ مِنا أنْ تَأْتِيَ لِمُساعَدَتِنا. سَأَصْرُخُ إنْ تَطَلَّبَ الأَمْرُ ذلِكَ.» صَمَتَتْ لِبُرْهَةٍ، ثُمَّ نَقَلَتْ نَظَرَها إلى (ريو): «لِوَقْتٍ طَويلٍ لَمْ أَفْعَلْ شَيئًا، وقَدْ لُمْتُ نَفْسي عَلى هذا كَثيرًا، قَدْ حانَ الوَقْتُ لِكَي أفْعَلَ شَيئًا مُفيدًا.»

حَدَّقَ (ريو) إلى جَدَّتِهِ، وَتَيّارٌ خَفِيٌّ مِنَ الكَلِماتِ غَيْرِ المَنْطوقَةِ تَدَفَّقَ بَيْنَهُما. عَرَفَ الآخَرانِ أنَّ عَلَيهِما الالْتِزامَ بِالصَّمْتِ، وأنَّ ما يَحدُثُ، أيًّا كانَ، يَخُصُّ الجَدَّةَ وَحَفيدَها.

جَلسَتِ (فران) عَلى رُكْبَتَيْها، وأمْسَكَتْ بِكَتِفَيْهِ. كانَ هُناكَ تَعبيرٌ صَريحٌ عَلى وَجْهِها لَمْ يَرَهُ (ريو) مِنْ قَبْلُ، وكانَ مِنَ المُخيفِ رُؤْيَتُهُ.

«(ريو) . . . أَخْشى أنَّني قَدْ خَذَلْتُكَ طيلَةَ حَياتِك. لَيسَ أنتَ فَقَطْ، بَلْ والِدَتُكَ أيضًا. أنا لَسْتُ مُتَأَكِّدَةً إنْ كُنْتَ سَتَجِدُ في قَلبِكَ قُدْرَةً عَلى مُسامَحَتي. لكنّي لَنْ أَخْذِلَكَ الآنَ.» صَمَتَتْ لِتَأْخُذَ نَفَسًا عَميقًا. «سَنفْعَلُ كُلَّ شَيءٍ بِوُسْعِنا لإنْقاذِ حوتِكَ. أُقْسِمُ لَكَ. وهذا لَيْسَ أيَّ قَسَمٍ. إنَّهُ قَسَمٌ أمامَ المُحيطِ.»

ثُمَّ تَغَضَّنَ وَجْهُها، وهِيَ تَجذِبُ (ريو) إلَيها، وكانَ أكْبَرَ وأعمَقَ عِناقٍ عَلى الإطْلاقِ. عِنْدَما افْتَرَقا أخيرًا، كانَ هُناكَ هُدوءٌ وسَكينَةٌ يُغَلِّفُها.

«ما الَّذي تُريدينَ مِنّي فِعْلَهُ؟» سَأَلَها (ريو).

«أنتَ، أيُّها الشّابُّ، سَتُبْقي وايت بيك عَلى قَيدِ الحَياةِ.»



الفصلُ التّاسِعُ والثّلاثونَ

إنْـقاذٌ

قالَ (بيرش) بِشَكْلٍ واضِحٍ أنَّهُ غَيْرُ مَسْموحٍ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ بالغَوصِ في الماءِ. أحَسَّ (ريو) بِالارْتِياحِ. فَتَحْتَ السَّماءِ المُكْفَهِرَّةِ، كانَ البحرُ أقرَبَ لِلسَّوادِ، وأكثَرَ عُمْقًا مِنْ أيِّ شَيءٍ عَرَفهُ.

«(مارينا)، فَلْتَبْقي عَلى جانِبِ القارِبِ، وتُمَرِّري لي القَواطِعَ حينَ أَطْلُبُها. (ريو)، مُهِمَّتُكَ هِيَ أَنْ تَتأَكَّدَ مِنْ أنَّ (سباي هوبر) لَنْ تَتَحَرَّكَ وتقتَرِبَ مِنْ (وايت بيك) أكْثَرَ. إنِ اقْتَرَبَ

القارِبُ فَعلَيكَ أنْ تُحَرِّكَهُ إلى الوَراءِ. هكَذا، هَلْ ترى؟ وإلى الأمامِ مِنْ هُنا.»

أَوْمَأَ (ريو) مُوافِقًا، آمِلًا ألّا يُلاحِظَ (بيرش) ارْتِجافَ يَدَيهِ.

«فران سَتَتَوَلّى أَمْرَ اللّاسِلْكِيِّ وَسَتُخْبِرُنا عِنْدَما تَقتَرِبُ القَوارِبُ الأُخْرى. فهذِهِ مُهِمَّةٌ لا يُمْكِنُنا أنْ نُنْجِزَها وَحْدَنا.»

فَتَحَ (بيرش) صُنْدوقًا، وأخْرَجَ قَواطِعَ وسِكّينًا ومُعِدّاتٍ أُخْرى. مَرَّرَ القَواطِعَ إلى (مارينا). «سَأَقْطَعُ الحِبالَ العالِقَةَ حَوْلَ جَسَدِها أوّلًا. ثُمَّ سَأَصْعَدُ إلى السَّطْحِ، وبَعْدَها يُمْكِنُكِ أنْ تُمَرِّري لِيَ السِّكّينَ لِكَي أتَمَكَّنَ مِنْ إزالَةِ بَعضِ مَصايِدِ جَرادِ البَحْرِ. آمَلُ، حينَ أنْتَهي مِنْ هذا، أنْ تكونَ القَوارِبُ الأُخْرى قَدْ وَصَلَتْ، وأنْ نَتَمَكَّنَ مِنْ تَحريرِ الشَّبَكَةِ المَعْقودَةِ حَولَ ذَيلِها. هَلْ أنتُمْ مُسْتَعِدّونَ؟»

نَظَرَ (بيرش) إلَيهِم جَميعًا، واحِدًا تِلْوَ الآخرِ. أشارَ لهُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُمْ بِإبْهامٍ مُصوَّبٍ نَحوَ الأعْلى، ودونَ أنْ يُضَيِّعَ ثانِيَةً أُخْرى، اخْتَفى تحتَ الماءِ.

ابْتِداءً مِنْ تِلكَ اللَّحظَةِ، تَحَوَّلَ كُلُّ شَيءٍ إلى غُرفَةِ عَمَلِيّاتٍ: يَصعَدُ (بيرش) إلى سَطْحِ الماءِ، يُمْلي عَلى (مارينا) تَعْليماتِهِ بِشَأْنِ ما يَحْتاجُهُ، فَتُناوِلُهُ بِمَهارَةٍ الأداةَ الصَّحيحَةَ.

كانَ (ريو) عَلى وَعْيٍ بِما يَقومُ بِهِ كُلٌّ مِنْ (بيرش) و(مارينا)، حَتّى جَدَّتُهُ الَّتي كانَتْ أَسْفَلَ ظَهْرِ القارِبِ تَقْرأُ التَّعْليماتِ وَالإِحْداثِيّاتِ بِصَوْتٍ عالٍ لِلقَوارِبِ القَريبَةِ، إلّا أنَّ تَركيزَهُ كانَ ثابِتًا بِصَرامَةٍ عَلى (وايت بيك).

مِنْ تِلْكَ المَسافَةِ القَريبَةِ، كانَ بِمَقْدورِهِ أنْ يَرى كُلَّ مَحارِ البَرنَقيلِ عَلى جانِبِ وَجْهِها، جِلْدَها الرَّماديَّ السَّميكَ، وَعَيْنَها الوَحيدَةَ الظّاهِرَةَ لَهُ وهِيَ تُحَدِّقُ فيهِ دونَ أنْ تَرْمِشَ. عَيْنها المَليئَةَ بِالحُزْنِ والأَلَمِ وخَيبَةِ الأَمَلِ.

«أنا آسِفٌ يا وايت بيك،» هَمَسَ (ريو): «أنا آسِفٌ عَلى كُلِّ شَيءٍ.»

صَعِدَ (بيرش) إلى سَطْحِ الماءِ، لاهِثًا وطالِبًا لِلهَواءِ: «إنَّها عالِقَةٌ بِإِحْكامٍ! هَلْ هُناكَ أيُّ إشارَةٍ مِنَ القَوارِبِ الأُخْرى بَعْدُ؟»

هَزَّ (ريو) رأسَهُ نافِيًا. ثُمَّ راقَبَ (بيرش) وهُوَ يَخْتَفي مِنْ جَديدٍ تَحْتَ سَطْحِ الماءِ. لَمْ يَكُنْ مُتأَكِّدًا كَمْ مِنَ الوَقْتِ مَضى وهُمْ عَلى هذِهِ الحالِ. يَخْتَفي (بيرش) ثُمَّ يَظْهَرُ مِنْ جَديدٍ، ثُمَّ يَخْتَفي ثُمَّ يَظْهَرُ، مَرّاتٍ عَديدَةً حَتّى أضاعَ حِسْبَتَها. لكِنَّ (ريو)، طيلَةَ ذلِكَ الوقْتِ، أبْقى القارِبَ ثابِتًا، وأبْقى عَينَيْهِ مُحَدِّقَةً في عَينِ (وايت بيك).

بِهذِهِ الطَّريقَةِ لاحَظَ أنَّ عَيْنَها قَدْ تَغَيَّرَتْ. في البِدايَةِ، ظَنَّ أنَّ السَّبَبَ هُوَ السُّحُبُ والطَّريقَةُ الَّتي جَعَلَتْ بِها المياهَ مُظْلِمَةً، لِتَبدوَ رَمادِيَّةً ومَعدَنِيَّةَ اللَّونِ. لكِنَّها لَمْ تكُنِ السُّحُبَ.

«*وايت بيك؟*» هَمَسَ (ريو).

بَدَتِ العَينُ وكأنَّها تنظُرُ إلَيه، لكنَّها لَمْ تَعُدْ مُنْتَبِهَةً، بَلْ مُعْتِمَةً وشارِدَةً وساكِنَةً.

«**وايت بيك؟**» صاحَ (ريو). «**وايت بيك!**»

شيءٌ خانِقٌ وصَلْبٌ الْتَفَّ داخِلَ صَدرِهِ، وقَبَضَ عَلى قلبِهِ بِيَدٍ بارِدَةٍ كَالثَّلجِ.

«إنَّنا نفقِدُها!» صَرَخَ يائِسًا، في اللَّحظَةِ الَّتي ظَهَرَ فيها أخيرًا قارِبٌ في الأُفُقِ. سَفينَةٌ صَغيرَةٌ بِحَجْمِ (*سباي هوبر*) تَقريبًا مَكتوبٌ عَلى هيكَلِها: **فَريقُ الإنْقاذِ البَحْرِيّ**.

«حَمْدًا للهِ،» قالَتِ (فران) حينَ ظَهَرَتْ عَلى سَطْحِ القارِبِ: «ما كانَ (بيرش) لِيَقْدِرَ عَلى فِعْلِ أكْثَرَ مِن هذا بِمُفْرَدِهِ.»

توقَّفَ القارِبُ إلى جانِبِ (وايت بيك). عَلى مَتْنِهِ اثْنانِ مِنَ الغَوّاصينَ، يَرتَدِيانِ مُعِدّاتِ الغَطْسِ الاحْتِرافِيَّة.

«فَعَلْتُ كُلَّ ما هُوَ بِاسْتِطاعَتي،» صاحَ (بيرش): «لكِنَّ الَّذيلَ عالِقٌ تَمامًا.»

بَينما قَفَزَ الغَوّاصانِ في الماءِ وانْضَمّا إلى (بيرش)، ألْقى (ريو) نَظْرَةً مَذْعورَةً أُخْرى ناحِيَةَ (وايت بيك). كانَتْ عَيْنُها تُغْمِضُ. يَنْزَلِقُ الجَفْنُ لِيُغْلِقَ عَيْنَها بِبُطْءٍ في وَجْهِ العالَمِ.

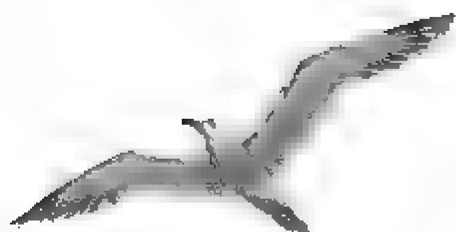
تَنْغلِقُ. تَنْغلِقُ. تَنْغلِقُ.

«لا!»

لا يُمْكِنُهُ أنْ يَخْسَرَها! لا يُمْكِنُهُ ذلِكَ!

سَرى شَيءٌ في عُروقِهِ مِثْلُ الرَّعْدِ. أمامَهُ، اسْتَلْقَتْ (وايت بيك) ساكِنَةً، أنْفاسُها بَطيئَةٌ لِلغايَةِ، حَتّى إنَّهُ لَمْ يَكُنْ واثِقًا إنْ كانَتْ ما تَزالُ في هذا العالَمِ، أمْ صارَتْ في العالَمِ الآخَرِ.

وفي هذِهِ اللَّحظَةِ، عَرَفَ (ريو) بالضَّبطِ ما يَجِبُ عَليهِ أنْ يفعَلَهُ لِكي يُنْقِذَ حَياتَها.



الفصلُ الأرْبَعونَ

إنْـقاذُ وايت بيك

لَمْ يُبالِ (ريو) بِمَدى عُمْقِ الماءِ، لَمْ يُبالِ بِالخَطَرِ. تَرَكَ الدَّفَّةَ. مَشى ثَلاثَ خُطُواتٍ إلى حافَّةِ القارِبِ. ودونَ أنْ يَتَوَقَّفَ لَحْظَةً لِلتَّفكيرِ، قَفَزَ في الماءِ.

غاصَ جَسَدُهُ كُلُّهُ تَحْتَ الأَمْواجِ. كانَ الماءُ مُظْلِمًا وعَميقًا وبِلا قَرارٍ. ولِلَحْظَةٍ ثَقيلَةٍ خُيِّلَ إلَيهِ أنَّهُ لَنْ يَجِدَ طَريقَهُ إلى

السَّطْحِ مَرَّةً أُخْرى، لكِنْ في النِّهايَةِ، حَمَلَتْهُ سُتْرَةُ النَّجاةِ إلى أَعْلى، حيثُ الهَواءُ، وحيثُ راحَ يَبْصُقُ ويَسْعُلُ.

كانَ يَعِي بِشَكْلٍ باهِتٍ أَنَّ (بيرش) قَدْ صَعِدَ عائدًا إلى (سباي هوبر) وأَمَرَ (مارينا) أَنْ تُمْسِكَ بالدَّفَّةِ، وتُثَبِّتَ القارِبَ. في الخَلْفِيَّةِ كانَتْ جَدَّتُهُ تَصْرُخُ، رُغْمَ أَنَّ الكَلِماتِ بَدَتْ مُشَوَّشَةً ومُبْهَمَةً.

أخرَجَ (بيرش) العَصا الَّتي اسْتَخْدَمَها في المَرَّةِ السّابِقَةِ لانْتِشالِ (ريو) مِنَ الماءِ.

«أَمْسِكْ بِهذِهِ!» صَرَخَ (بيرش): «خَطَرٌ كَبيرٌ أَنْ تَكونَ هُناكَ!»

«لا!» صاحَ (ريو): «أَنا باقٍ هنا!»

أدارَ ظَهْرَهُ لِلقارِبِ، وصارَ الآنَ أمامَ (وايت بيك) وجْهًا لِوَجْهٍ.

«مَرْحَبًا وايت بيك.» تمْتَمَ لَها.

وبِدافِعٍ غَريزِيٍّ مَحْضٍ، طَوَّقَ أَنْفَها بِذِراعَيْهِ، ثُمَّ أراحَ وَجْهَهُ عَلى وَجْهِها حَتّى تَقابَلَتْ عَيناهُ مَعَ عَيْنِها.

مِنْ تَحْتِ أنامِلِهِ كانَ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَشْعُرَ بِحَياتِها تَنْحَسِرُ بَعيدًا عَنْها نَفَسًا تِلْوَ الآخَرِ.

«لا تَموتي!» هَمَسَ لها: «أرجوكِ لا تَموتي!»

لَمْ تَعُدْ هُناك مَسافَةٌ فاصِلَةٌ بَينَهُما الآنَ. أسْفَلَ خَدِّهِ، صارَ بِإمكانِهِ أنْ يَتَحَسَّسَ البُقْعَةَ النّاعِمَةَ مِنْ جِلْدِها الّتي لَمْ يَلْتَصِقْ بِها مَحارُ البَرْنَقيلِ، وأنْ يَشُمَّ رائحَةَ الزَّيتِ المالِحِ في أنْفاسِها، وأنْ يَسمَعَ خَفَقانَ قَلْبِها الخافِتَ. تَباطَأَ خَفَقانُ قَلْبِ (ريو)، وتَناغَمَ مَعَ خَفَقانِ قَلْبِها. وهكَذا تَبَدَّلَ جُزْءٌ مِنْهُ، ولَمْ يَعُدْ فَتًى، صارَ حوتًا.

«كنْتُ خائفًا جِدًّا،» قالَ لَها بِهُدوءٍ: «خائفًا مِنْ وَضْعِ أُمّي، مِنْ هذِهِ الحَياةِ، مِنْ كُلِّ شَيءٍ. لكِنَّني بَعْدَ ذلِكَ عَثَرْتُ عَلَيكِ. وكنْتِ تُبْقينَني بِأَمانٍ، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ كنْتِ تَحْمينَني طيلَةَ هذا الوَقْتِ. الآنَ جاءَ دَوْري لِكَي أُبْقيكِ بِأمانٍ.»

ضَمَّها بِقُوَّةٍ. «أَعْرِفُ أنّني لا أسْتَطيعُ أنْ أجْعَلَ أُمّي تَتَحَسَّنُ، أعْتَقِدُ أنّني كُنْتُ أعْرِفُ هذا طيلَةَ الوقْتِ، لكِنْ كانَ عَلَيَّ أنْ *أُحاوِلَ*. كانَ عَلَيَّ أنْ أفْعَلَ شيئًا ما. أنْتِ تَفْهَمينَ هذا، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ تَفْهَمينَ أنّني لا أسْتَطيعُ أنْ أقِفَ مَكتوفَ اليَدينِ؟»

لَمْ تَتَحَرَّكْ (وايت بيك). لكِنْ، بِطَريقَةٍ ما، في أعْماقِ (ريو)، كانَ واثِقًا أنَّها كانَتْ تُصْغي إلَيهِ. «وايت بيك؟ أعْرِفُ أنَّكِ تَستَطيعينَ سَماعي. تَمامًا مِثْلَما يُمْكِنُني سَماعُكِ. لا أعْرِفُ

كَيفَ أسْتَطيعُ ذلِك، لكنَّها أعْظَمُ هَدِيَّةٍ يُمْكِنُ أنْ يُهْدِيَها لي أيُّ شَخْصٍ.» تَمْتَمَ (ريو) مُحْكِمًا قَبْضَتَهُ حَوْلَ أنْفِها: «قَدْ لا أكونُ قادِرًا عَلى جَعْلِ أُمّي تَتَحَسَّنُ، لكِنْ يُمْكِنُني أنْ أفْعَلَ شيئًا مِنْ أجلِكِ. لَيسَ مِنْ أجلِكِ فَحَسْبُ، بَلْ مِنْ أجْلِ كُلِّ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ. هُناكَ مَعارِكُ لا يُمْكِنُ لِلمَرْءِ أنْ يَخوضَها. لكِنْ هُناكَ مَعارِكُ أُخْرى . . . هُناكَ مَعارِكُ أُخْرى بِاسْتِطاعَتِنا جَميعًا أنْ نُحاوِلَ فِعْلَ شَيءٍ حِيالَها.»

رَفَعَ خَدَّهُ بَعيدًا مِنْ عَلى جِلْدِها، وابْتَلَعَ الكُتْلَةَ الَّتي في حَلْقِهِ.

«أنْتِ أكْثَرُ مَخْلوقٍ مُدْهِشٍ عَلى وَجْهِ هذِهِ الأرضِ،» قالَ لَها: «أنا فَقَطْ آسِفٌ جِدًّا؛ لأنَّنا لَمْ نَعْتَنِ بِكِ بِشَكْلٍ أفْضَلَ، لكِنّي أُقْسِمُ لَكِ، أنَّنا سَنفعَلُ كُلَّ ما بِوُسْعِنا لإنْقاذِكِ.»

«ما الَّذي يَحْدُثُ؟»

لَمْ يُلاحِظْ (مارينا) وهِيَ تَميلُ بِجِذْعِها مِنْ عَلى جانِبِ القارِبِ، وقَدْ بَدَتْ شاحِبَةً وقَلِقَةً، وصارَ وَجْهُها مُبْتَلًّا بِفِعْلِ البحرِ، أو بِفِعْلِ شَيءٍ آخَرَ. «هَلْ ماتَتْ؟»

هَزَّ (ريو) رأسَهُ نَفْيًا، وثَبَّتَ انْتِباهَهُ مَرَّةً أُخْرى عَلى الحوتِ. ضَمَّتْ يَداهُ وَجْهَها بِحَنانٍ، بِقَدْرِ ما اسْتطاعَتْ يَداهُ أنْ تَفْعَلَ.

«أُحِبُّكِ،» هَمَسَ لَها: «تمامًا كَما أَحَبَّتْكِ أُمّي. أُحِبُّكِ قَبْلَ حَتّى أنْ أَلْتَقِيَ بِكِ، وسَأَظَلُّ أُحِبُّكِ. ولَسْتُ أنا وَحْدي مَنْ يُحِبُّكِ. جَميعُنا نُحِبُّكِ . . . لَذا أَرْجوكِ . . . أَرْجوكِ لا تَرْحَلي عَنّا. لَيْسَ الآنَ.»

لِوَقْتٍ طَويلٍ، لَمْ يَتَحَرَّكْ أيُّ شَيءٍ، ولا حَتّى السُّحُبُ في السَّماءِ.

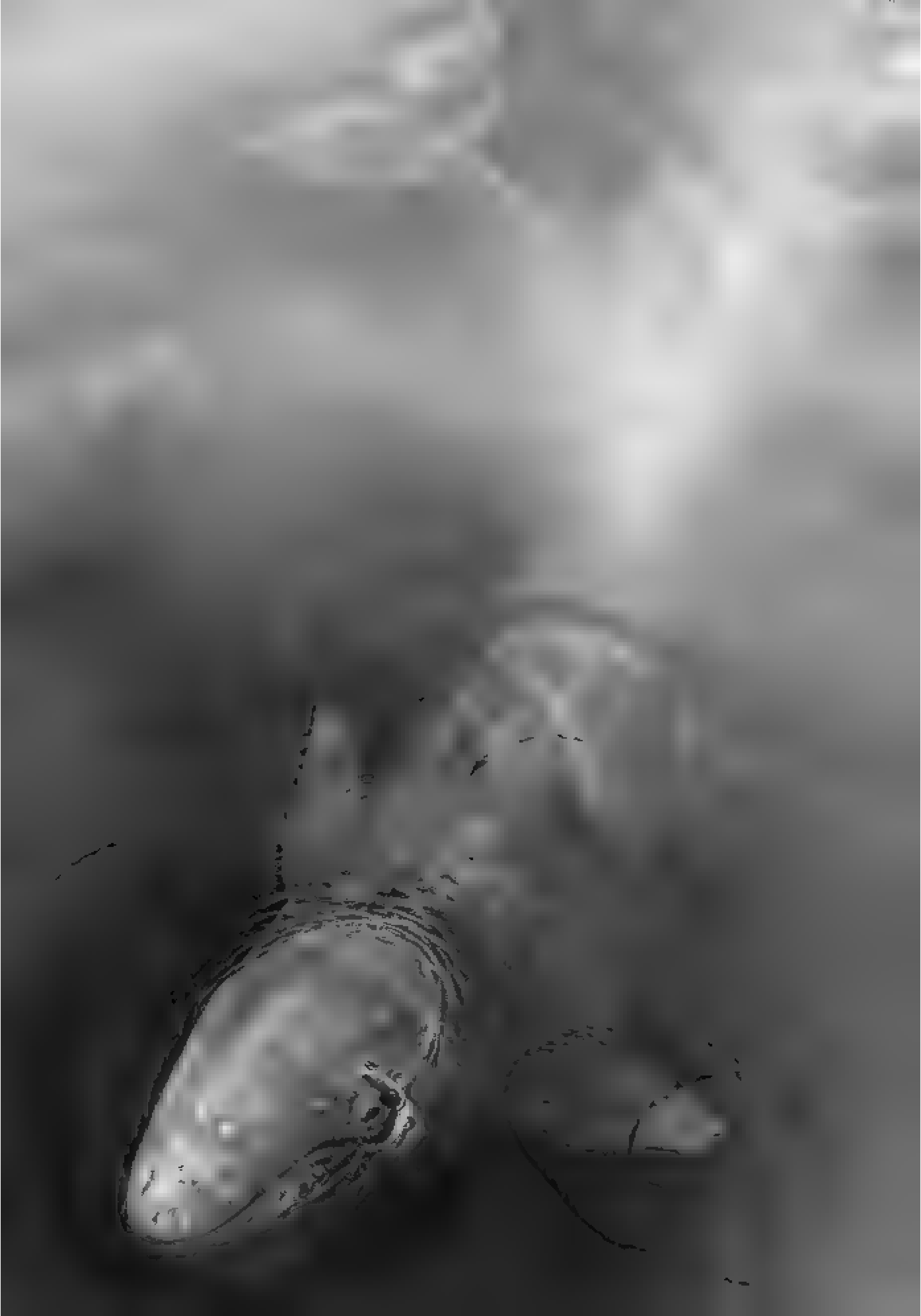
لكِنْ، بَعْدَ ذلِكَ، رَمَشَ جَفْنُ (وايت بيك) وتَحَرَّكَ، وانْفَتَحَتْ عَيْنُها بِبُطْءٍ قَدْرًا ضَئيلًا لِلغايَةِ. شَعَرَ (ريو) بِشيءٍ يَسْري بَيْنَهُما، مِثْلَ الكَهرباءِ. شَيءٍ عَميقٍ ومُرْتَجِفٍ. كأنَّ صَدْمَةً كَهْرَبائِيَّةً قَدْ أعادَتْها إلى الحَياةِ.

انْفَتَحَتْ عَيْنُها عَلى اتِّساعِها، لَمْ تَعُدْ باهِتَةً، بَلْ مُنْتَعِشَةً.

مُنْتَعِشَةً بِالذَّكاءِ وَالطِّيبَةِ والعاطِفَةِ، وكُلِّ الأشياءِ الَّتي رَآها فيها مِنْ قَبْلُ لكِنْ في هذِهِ المَرَّةِ كانَتْ مُنْتَعِشَةً بِالحَياةِ أيضًا.

نَظَرَتْ إلَيهِ (وايت بيك) لِأَطْوَلِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ، ونَظَرَ إلَيها أيْضًا، وهُوَ يَعْرِفُ أنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُناكَ فارِقٌ بَينَهُما. تمامًا مِثْلَما لا يوجَدُ فارِقٌ بينَ أيِّ إنْسانٍ وأيِّ كائِنٍ آخَرَ.

ليسَ في الجَوهَرِ.



وبَينَما هوَ يَحتضِنُ وَجْهَها، انْدَفَعَ الغَوّاصانِ خارِجَينِ مِنَ الماءِ، وَهُما يَصْرُخانِ بِانْتِصارٍ: «لَقَدْ حَرَّرْنا ذَيْلَها!»

«إنَّها تَتَحَرَّكُ! اخْرُجْ مِنَ المُحيطِ! » مَدَّ (بيرش) بِالعَصا نَحْوَ (ريو). «الآنَ!»

«لا!» قالَ (ريو) بِحَزْمٍ. «أنا باقٍ مَعَها.»

هزَّ (بيرش) رأسَهُ في اسْتِنكارٍ. لكِنَّ (ريو) كانَ يَعرِفُ أنَّ (وايت بيك) لَنْ تُؤْذِيَهُ.

ارْتَجَفَتْ (وايت بيك)، وبعْدَها وكَزَتْ (ريو) برِفْقٍ بِطَرَفِ أنْفِها.

«إنَّها تُخْبِرُكَ بِشيءٍ ما!» صاحَتْ (مارينا).

وَكَزَتْهُ (وايت بيك) مَرَّةً أُخْرى. مَدَّ (ريو) كِلْتا يَدَيهِ، وَلَفَّ جَسَدَهُ حَوْلَها، أراحَ خَدَّهُ عَلى سَطْحِ وَجْهِها النّاعِمِ، حَتّى صارَتْ عَيْنُهُ في مُسْتَوى عَيْنِها. كانَ بِاسْتِطاعَةِ (ريو)، وهوَ يَنظُرُ في عَيْنِها، أنْ يَرى مُباشَرَةً إلى داخِلِها، وأنْ يَصِلَ حَتّى أعْمَقِ مَكانٍ في روحِها، وما وراءَها. كانَتْ أجْمَلَ روحٍ رَآها عَلى الإطْلاقِ.

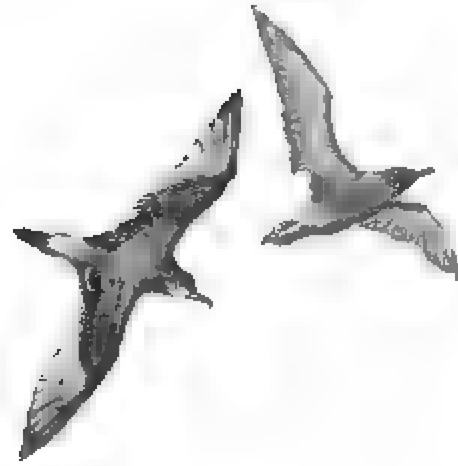
«أنْتِ تَقولينَ لي شُكْرًا، ألَيْسَ كَذلِكَ؟ لأنَّنا حَرَّرْناكِ؟» هَمَسَ لها: «لكِنَّكِ لسْتِ بِحاجَةٍ إلى هذا. أنتِ مَنْ حَرَّرَني، ولَيْسَ العَكْسُ.»

تَحَرَّكَتْ (وايت بيك) بِرِقَّةٍ مَعَ كَلِماتِهِ: «لَنْ أَنْساكِ أَبَدًا.»

قَبَّل (ريو) أَنْفَها. «لَنْ أَنْساكِ ما دُمْتُ حَيًّا.»

حينَ قالَ هذا، انْدَفَعَتْ نافورَةُ ماءٍ هائلَةٌ مِنْ فَتْحَةِ تَنَفُّسِها، وتَشَكَّلَ، بِفِعْلِ الزَّيتِ الَّذي في أَنْفاسِها، أَكبَرُ وأَبْهى وأَجمَلُ قَوسِ قُزَحَ عَلى هيئَةِ قَلْبٍ.

انْسَحَبَتْ عَنهُ (وايت بيك) مُبْتَعِدَةً بِبُطْءٍ. وبِنَظْرَةٍ طَويلَةٍ أَخيرَةٍ، سَبَحَتْ نَحْوَ البَعيدِ.



الفصلُ الواحِدُ والأَرْبَعونَ

قَسَمُ المُحيطِ

بَقِيَتْ (سباي هوبر) في المَنْطِقَةِ لِقُرابَةِ نِصْفِ ساعَةٍ أُخْرى، وهِيَ الفَتْرَةُ الكافِيَةُ لِكَي يُساعِدَ الطَّاقِمُ سَفينَةَ (فريقُ الإنْقاذِ البَحْريّ) عَلى إزالَةِ الفولاذِ الأزرَقِ، والمَصايِدِ، والشِّباكِ مِنَ المياهِ حَتّى لا تَعْلَقَ فيها أيُّ حَيواناتٍ بَحرِيَّةٍ أُخْرى.

اتَّضَحَ أنَّهُ شَيءٌ يَفعَلونَهُ كَثيرًا - تَحريرُ الحيتانِ، والدَّلافينِ، وخَنازيرِ البحرِ، والسَّلاحِفِ الَّتي تَعْلَقُ بِاسْتِمرارٍ في الشِّباكِ

التّائِهَةِ أوْ مُخَلَّفاتِ الصَّيدِ. يَجوبونَ المُحيطَ لِيَتَمَكَّنوا مِنْ إزالَةِ المُخَلَّفاتِ الضَّخْمَةِ أوْ قِطَعِ البلاسْتيكِ المُهمَلَةِ، الَّتي يُمكِنُ أنْ تكونَ قاتِلَةً لِلحَيَواناتِ في بيئَتِها الطَّبيعِيَّةِ.

بَعْدَ أنْ تَمَّتْ إزالَةُ كُلِّ شَيءٍ، شَكَرَ الغَوّاصانِ جَميعَ المَوجودينَ عَلى مَتْنِ (سباي هوبر)، قَبْلَ أنْ يَتَلَقَّيا مُكالَمَةً أُخْرى بِشَأْنِ دولفينٍ عالِقٍ في بَعْضِ الشِّباكِ عَلى مَسافَةِ عِشرينَ ميلًا جَنوبًا بِمُحاذاةِ السّاحِلِ. انْطَلَقا بِسُرْعَةٍ، وفَجأَةً لَمْ يَعُدْ هُناكَ سِوى أَرْبَعَتِهِمْ عَلى مَتْنِ القارِبِ.

«حَسَنًا» قالَتِ (فران)، وَالغَثَيانُ واضِحٌ عَلَيها: «يَبْدو أنَّ ثُلاثَتَكُمْ قانِعونَ تَمامًا بِالبَقاءِ هُنا، لكِنّي بِالتَّأكيدِ أتَحَرَّقُ شَوْقًا لِلعَودَةِ إلى الشّاطِئِ، هَلّا ذَهَبْنا؟»

انْطَلَقَتِ (سباي هوبر) بِسُرعَةٍ كَبيرَةٍ. ومَعَ وُجودِ الرِّياحِ مِنْ وَرائها كانَتْ تَقْفِزُ فَوقَ الأمْواجِ، وبِحُلولِ الصَّباحِ التّالي كانوا قَدْ عادوا إلى (أوشن باي). سَيَّرَ (بيرش) القارِبَ بِرِفْقٍ عَبْرَ المَرْفَأِ قَبْلَ أنْ يوقِفَهُ إلى جانِبِ الرَّصيفِ. وبَعدَ صَمْتِ المُحيطِ، كانَ صَخَبُ رَصيفِ الميناءِ وَضَجيجُهُ يَصُمّانِ الآذانَ.

بَدَلًا مِنْ أنْ يَتَرَجَّلوا مِنْ عَلى مَتْنِ القارِبِ عَلى الفَورِ، جَلَسَ أَرْبَعَتُهُمْ في صَمْتٍ عَلى ظَهْرِ القارِبِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهم

غارِقٌ في أفْكارِهِ الخاصَّةِ. ألْقى (ريو) نَظْرَةً طَويلَةً ومُشْتاقَةً إلى البَحرِ، بَدا لَهُ كَأَنَّ المُحيطَ يَسْعى إلَيهِ لِيَمنَحَهُ تَحِيَّتَهُ الأخيرَةَ.

«هَلْ سَتَكونُ بِخيرٍ؟» تَساءَلَ أخيرًا.

«سَتَشْعُرُ بِالألَمِ لِفَتْرَةٍ مِنَ الوَقتِ، لكِنَّنا نَرجو أنْ تَتَعافى سَريعًا، وأنْ تَجِدَ طَريقَها جَنوبًا نَحْوَ البُحيراتِ الضَّحْلَةِ، حيثُ يُمْكِنُها أنْ تكونَ بِأمانٍ.» الْتَفَتَ (بيرش) إلَيهِ: «لَقَدْ فَعَلْتَ شيئًا شُجاعًا لِلغايَةِ هُناكَ، تَصَرُّفٌ غَبِيٌّ، وَخَطيرٌ - لكِنَّهُ أيضًا شُجاعٌ لِلغايَةِ.»

«بِحَقِّكَ يا أبي! ما فَعَلَهُ (ريو) كانَ خارِقًا!» قالَتْ (مارينا) بِتَعَجُّبٍ، وهِيَ تُدَوِّرُ عَينَيْها: «لَقَدْ أنْقَذَ حَياةَ حوتٍ!»

«هذا هُوَ حَفيدي.» قالَتِ (فران) بِفَخْرٍ، وطَوَّقَتْهُ بِذِراعِها.

«لكِنْ، كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تموتَ، أَلَيْسَ كَذلِكَ؟» قالَ (ريو) وهُوَ يَميلُ نَحْوَ حِضْنِ جَدَّتِهِ: «لَوْ لَمْ نَعْثُرْ عَلَيْها وَنُحَرِّرها.»

أَوْمَأَ (بيرش) مُوافِقًا: «لَمْ يَكُنْ لَدَيْها سِوى بِضْعِ دَقائِقَ قَبْلَ أنْ نَصِلَ إلَيها. كانَ الخُروجُ لِلبَحْثِ عَنها هُوَ القَرارُ الصَّحيحُ يا (ريو). ما يُؤْسِفُني حَقًّا هُوَ أنَّني اسْتَغْرَقْتُ وَقتًا

طَويلًا لِكي أتَّفِقَ مَعَكَ.»

رَفَعَ (ريو) كَتِفَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ (بيرش) هُوَ وحْدَهُ مَنْ يَفْعَلُ هذا. كانَ هُناكَ كَثيرٌ مِنَ الرّاشِدينَ، في جَميعِ أنْحاءِ العالَمِ، الَّذينَ يَنتَظِرونَ اللَّحظَةَ المُناسِبَةَ لِفعْلِ شَيءٍ ما. كَثيرٌ مِنَ النّاسِ الَّذينَ يَتحَرْكونَ بَعْدَ فَواتِ الأوانِ. عَلى الأقَلِّ، كانَ (بيرش) يُحاوِلُ أنْ يَصنَعَ فارِقًا، جَنبًا إلى جَنْبٍ مَعَ بَقِيَّةِ مُراقبي الحيتانِ. وأحيانًا تَكونُ المُحاوَلَةُ هِيَ كُلُّ ما بِوُسْعِكَ فِعْلُهُ.

لَمْ يَكُنْ (ريو) قادِرًا عَلى جَعْلِ أُمِّهِ تَتَحَسَّنُ. مَهْما فَعَلَ، فَلَنْ يَكونُ ذلِكَ كافِيًا. لَقَدْ أدْرَكَ هذا الآنَ. لكِنَّهُ، وقَدْ تَخَلَّصَ أخيرًا مِنَ الشَّبَكَةِ الَّتي كانَتْ تُحيطُ بِقَلْبِهِ، رُبَّما صارَ بِمَقْدورِهِ أنْ يَفْعَلَ شَيئًا آخرَ. شَيئًا بِنَفْسِ الأهَمِّيَّةِ إنْ لَمْ يَكُنْ أكْثَرَ. وهذِهِ المَرَّةَ لَنْ يَكونَ وَحْدَهُ.

«لكِنَّها لَيسَتِ الحوتَ الوَحيدَ الَّذي يُواجِهُ المَتاعِبَ، ألَيسَ كَذلِكَ؟» قالَ (ريو): «إنَّها لَيسَتِ الحوتَ الوَحيدَ الَّذي يَحتاجُ إلى إنْقاذٍ. هُناكَ المِئاتُ، والآلافُ الَّذينَ يُقْتَلونَ كُلَّ يَومٍ عَلى يَدِ البَشَرِ.»

«ما الَّذي تُحاوِلُ قَولَهُ؟» سَألَتْهُ (مارينا) بِعَينينِ مُتَّسِعَتَينِ.

«ما أُريدُ أنْ أقولَهُ،» أجابَها (ريو) وهُوَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ إلى الأُفُقِ الأزرَقِ العَظيمِ: «هُوَ أنَّهُ لا يَزالُ هُناكَ مُحيطٌ كامِلٌ لإنْقاذِهِ. ونحنُ فَقطْ بَدَأْنا لِلتَّوِّ.»

الخاتِمَةُ

وُصولٌ

كانَتْ صالَةُ الوُصولِ مُزدَحِمَةً وصاخِبَةً، كَما تَكونُ المَطاراتُ عادَةً. لكِنَّ (ريو) بِالكادِ لاحَظَ الضَّوضاءَ. وَقَفَ إلى جانِبِ جَدَّتِهِ، وَعَيناهُ مُثَبَّتَتانِ عَلى لَوْحَةِ الإعْلاناتِ.

«ما الَّذي تَقولُهُ الآنَ؟» سَأَلَتْهُ جَدَّتُهُ في نَفادِ صَبْرٍ: «لَقَدْ تَرَكْتُ نَظّارَتي في السَّيّارَةِ.»

«لا تَزالُ كَما هِيَ . . . لا . . . لِلتَّوِّ تَغَيَّرَتْ! لَقَدْ هَبَطَتْ!»

قالَها بِحَماسٍ شَديدٍ حَتّى خُيِّلَ إلَيهِ أنَّ قَلْبَهُ سَينفَجِرُ خارِجًا مِنْ صَدرِهِ. «إنَّها هُنا!»

ضَمَّتْهُ جَدَّتُهُ بِقُوَّةٍ. طيلَةَ الشَّهرينِ الماضِيينِ، مُنْذُ إنْقاذِ (وايت بيك)، تَحَسَّنَتْ كَثيرًا في العِناقِ. لَيسَ العِناقُ فَحَسْبُ، بَلْ في الحَديثِ والإصْغاءِ وكُلِّ الأشْياءِ الَّتي كانَتْ جُزْءًا مِنْ كَوْنِها جَدَّةً. لَقَدْ جَعَلَ هذا عَمَلِيَّةَ الالْتِحاقِ بِالمَدرسةِ المَحَلِّيَّةِ أسْهَلَ بِكثيرٍ. هذا بالإضافَةِ إلى كَوْنِهِ في نَفْسِ الفَصْلِ الدِّراسِيِّ مَعَ (مارينا).

بَعْدَ نِقاشٍ طَويلٍ، تَمَّ الاتِّفاقُ عَلى أنْ يَبْقى (ريو) في كاليفورنيا بِصِفَةٍ دائمَةٍ، وعِنْدَما تَتَحَسَّنُ والِدَتُهُ بِما يَكْفي، فإنَّها سَتَأتي إلى هُنا لِلعَيْشِ مَعَهُما. فَهُناكَ (أوركسترا) في لوس أنجلوس إنْ كانَتْ تَرغَبُ في الانْضِمامِ إلَيها، وإنْ لَمْ تَرغَبْ بِذلِكَ فَستكونُ مُحاطَةً بِعائلَتِها في مَكانٍ يَجعَلُ قَلْبَها يَبتَسِمُ.

بَعْدَ أنْ حُسِمَ القَرارُ، قَضى (ريو) وَجَدَّتُهُ عُطْلَةَ نِهايَةِ الأسبوعِ كُلَّها في تَجديدِ غُرفَةِ نَومِها القَديمَةِ، ولَمْ تَتَذَمَّرْ حَتّى عِندَما سَكَبَ الطِّلاءَ، دونَ قَصْدٍ، على ألْواحِ الأرضِيَّةِ الخَشَبِيَّةِ. بَدَلًا مِنْ هذا، ضَحِكَتْ فَقط، حَتّى اهْتَزَّ بَطْنُها. لَقَدْ ضَحِكَتْ

كَثيرًا في تلكَ الأيّامِ. وكانَ صَوتُ ضَحِكَتِها واحِدًا مِنْ أجمَلِ الأصواتِ الَّتي سَمِعَها (ريو). هُوَ وصَوتُ الحيتانِ الرَّمادِيَّةِ.

حينَ عَرَفَ (ريو) أنَّ (أوشن باي) صارَتْ وَطَنَهُ الجَديدَ، شَعَرَ كَما لَوْ أنَّ آخِرَ الأغْلالِ قَدْ سَقَطَتْ عَنهُ، وأنَّ بِاستِطاعَتِهِ أنْ يَبدَأَ في العَيشِ مِنْ جَديدٍ. لَيسَتِ الحَياةُ القَديمَةُ نَفْسُها. بَلْ حَياةٌ جَديدَةٌ.

كانَتِ الأيّامُ مَليئَةً بِالحِصَصِ الدِّراسِيَّةِ، وَالمُثَلَّجاتِ، والأنْشِطَةِ، وبِكُلِّ الأشْياءِ المُعتادَةِ الَّتي يَفْعَلُها أيُّ فَتًى في الحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِهِ. لكِنّها كانَتْ مَليئَةً بِالمُغامراتِ أيضًا: رِحلاتٌ بَحرِيَّةٌ عَلى مَتْنِ (*سباي* هوبر)، وهِيَ تَشُقُّ طَريقَها مُتَقافِزَةً فَوقَ المُحيطِ. رِحلاتٌ بَحرِيَّةٌ لَيسَ بِهَدَفِ مُراقَبَةِ الحيتانِ فَقط، أو لِإحْصاءِ عَدَدِها فَقط، بَلْ *لإنقاذِها* أيضًا.

حوتًا تِلْوَ حوتٍ.

وبَينَما (ريو) يُراوِحُ ما بينَ قَدَمَيهِ في نَفادِ صَبْرٍ، رَنَّ هاتِفَهُ بِإشعارٍ مِنْ قاعِدَةِ بَياناتِ (Happywhale.) لَقَدْ ساعَدَتْهُ (مارينا) عَلى ضَبْطِهِ، بِحيثُ يُشْعِرُهُ المَوقِعُ في كُلِّ مَرَّةٍ يَتِمُّ فيها رَفْعُ مُشاهَدَةٍ أو صورَةٍ (لوايت بيك).

فَتَحَ (ريو) هاتِفَهُ، ثُمَّ شَهَقَ. «جَدَّتي! انْظُري!»

نَظَرَتْ إلى الهاتِفِ عَنْ كَثَبٍ. «هَلْ هذه . . .؟»



عَلى شاشَةِ الهاتِفِ كانَتْ صورَةٌ (لوايت بيك) في البُحيراتِ الضَّحْلَةِ. بَدَتْ سَليمَةً وَمُعافاةً وسَعيدَةً. لكِنَّ هذا لَمْ يَكُنْ كُلَّ شَيءٍ. فَإلى جانِبِها كانَ يَسبَحُ حوتٌ رَمادِيٌّ صَغيرٌ. أُمٌّ وَطِفْلُها مَعًا.

«أَلَيسَ هذا مَشْهدٌ رائِعٌ؟» تَمْتَمَتِ الجَدَّةُ: «لَقَدْ نَجَحَتْ.»

في تِلكَ اللَّحظَةِ لَمْ يَبتَسِمْ قَلْبُ (ريو) فَحَسْبُ، بَلْ تَشَقْلَبَ راقِصًا مِنَ السَّعادَةِ. فَهُناكَ امْرَأَةٌ يَعرِفُها جَيِّدًا كانَتْ تَمْشي بِتَرَدُّدٍ عَبْرَ بَوّابَةِ الوَصولِ. امْرَأَةٌ تَرْتَدي وِشاحًا حَريرِيًّا بِأَلْوانِ الطّاووسِ، وتَحْمِلُ حَقيبَةَ (كَمانٍ) في يَدِها اليُسْرى. امْرِأَةٌ تَتَفَحَّصُ الحَشْدَ باهْتِمامٍ قَبْلَ أَنْ تَحُطَّ عَيْنَيها عَليهِ.

«**أُمّي!**»

حينها رَكَضَ (ريو) إلى الأمامِ، مُلَوِّحًا بِذِراعَيهِ كَما تَدورُ العَجَلاتُ، قَبْلَ أنْ يُلْقِيَ بِنَفْسِهِ أخيرًا بينَ ذِراعَي أُمِّهِ.



كلمة المؤلِّفةِ

لطالما سحرني شيء ما في الحيتان. ربما منذ أن كنت في أوائل العشرينيات من عمري، وذهبت إلى باخا بالمكسيك مع صديقتي المقربة، ورأيت أول حوت رمادي في حياتي. كانت مجرد لمحة خاطفة لذيل وزفير طويل.

بعد سنوات، وقبيل وباء كورونا مباشرة، عدت إلى باخا، وهذه المرة بصحبة زوجي، ولهدف محدد هو مشاهدة الحيتان الرمادية من أجل هذا الكتاب. سافرنا إلى البحيرات الضحلة المحمية وقضينا أربعة أيام على متن زورق صغير، تغيرت حياتي بعدها إلى الأبد. لا شك أننا رأينا مئات من الحيتان الرمادية. حيتان تختلس النظر من تحت الماء، وقفزات استطلاعية من على بُعد أمتار من القارب، وأفضل مشهد على الإطلاق كان قلوبًا بألوان قوس قزح معلقة في

أنفاسها. رأينا الذكور والإناث والصغار، بعضها يظل بالقرب من القارب لوقت طويل، وقد بدا أنها مفتونة بنا مثلما نحن مفتونون بها. كان هناك لحظة سأظل أذكرها إلى الأبد، وهي مشهد أنثى حوت رمادية تحدق فيّ من تحت الماء. نظرتها مثبتة على نظرتي. إن لم تكن قد رأيت حوتًا في الطبيعة من قبل فآمل أن أكون قد قبضت من أجلكم على بعض من جمالها وروعتها.

تُعرف الحيتان الرمادية حقيقةً بأنها «ودود»، وشيء حيال هذا لامسني بعمق. لقد وصلت الحيتان الرمادية إلى شفا الانقراض مرتين بفعل الصيد الجائر، ورغم ذلك ما تزال تشعر بالفضول الشديد تجاه البشر، وعادة ما تبدو وكأنها تريد اللعب معنا.

لسوء الحظ واحدة من الحقائق الحزينة التي تعلمتها في رحلتي هي مقدار المتاعب التي تتعرض لها الحيتان الرمادية. فمثل الكثير من المخلوقات البحرية، فإنها تعاني تحت وطأة ارتفاع درجة حرارة المحيط، والتلوث البلاستيكي، والصيد الجائر، واستخراج النفط والغاز الطبيعي في البحر، والاصطدام بالسفن، وكل الطرق الأخرى التي يبدو بها أن البشر عازمون

على تدمير العالم الطبيعي. هناك في الواقع مفارقة حقيقية في هذا الأمر، لأن الحيتان الرمادية هي واحدة من أفضل المخلوقات التي تساعد على نجاة الأرض، وربما سمعت أنه يُشار إليها باسم «الأشجار العائمة». وفقًا لصندوق النقد الدولي International Monetary Fund يُمكن للحيتان أن تجمع وتخزن الكربون بما يعادل آلاف الأشجار. لذا، فمن مصلحتنا حقًّا أن نبذل قصارى جهدنا لحمايتها.

بينما كان عليَّ أن أحظى بشيء من الحرية الإبداعية في هذه القصة، خصوصًا في توقيت هجرة الحيتان الرمادية، إلا أن قاعدة بيانات Happywhale المذكورة في رواية الحوت المفقود موجودة حقًّا، وآلاف الأشخاص العاديين، مثلي ومثلك، يسجلون مشاهداتهم بالفعل. لاحقًا يستخدم هذه البيانات العلماء، علماء الأحياء البحرية، في رصد آثار تغير المناخ وتأثير الإنسان على المحيط. كما يقول بيرش، مع المعرفة تأتي القوة للتغير.

إن كنت لا تعيش بالقرب من المحيط فالخبر السار هو أن الحيتان ليست الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تحصيه. هناك برامج مماثلة عديدة، حيث يُمكنك أن تحصي الطيور أو

الفراشات أو النحل أو الخفافيش أو الحشرات - حتى الفطر! أينما تعيش في العالم، سواء كنت في مدينة أو ريف أو إلى جانب البحر، فما زال بمقدورك أن تكون بطلًا خارقًا لهذا الكوكب. يمكنك أن تتحقق من البرامج المحلية المتاحة لك وأن تشترك فيها. هذا شيء قد ترغب في فعله مع عائلتك أو أصدقائك أو زملائك في الفصل. وأقسم لك قسم محيط أنك، تمامًا مثل مارينا وريو، ستجد أن مراقبة الحياة البرية وكونك عالمًا هاويًا أمر ممتع حقًا، ومجزٍ أيضًا!

في الحقيقة، إن قضاء وقت في الطبيعة يعد واحدًا من أكبر المباهج التي أعرفها. كُتب هذا الكتاب أثناء وباء كورونا، وقد جعلني ذلك أُدرك قيمة العالم الخارجي وكل ما يقدمه لنا. وبالنسبة لي، فإن أفضل مكان في العالم بأسره هو المحيط. لطالما كانت له مكانة كبيرة للغاية في قلبي، وهو أول مكان أذهب إليه كلما شعرت أنني بحاجة لتجديد نشاطي.

أتمنى لو أنني عرفت هذا عندما كنت أصغر سنًا. عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري أُصيب أحد أفراد عائلتي بانهيار نفسي حاد. ما زلت أتذكر بوضوح كيف كنت خائفة

من هذا التحول المفاجئ للأحداث. في تلك الأيام، كنت أجد دائمًا الدعم والرعاية من حولي، لكنني، رغم ذلك، لم أُدرك كيف بمقدور قضاء وقت في الطبيعة أن يخفف من قلقي.

وهكذا، في رواية الحوت المفقود حاولت أن أتخيل وضعًا بحيث، على عكس ما حدث معي، لا يجد ريو فيه شخصًا ليحميه من أسوأ الظروف، وتكون كل المسؤوليات والأعباء الثقيلة واقعة على كتفيه الصغيرين. لكن لحسن الحظ، يجد ارتباطًا بالمحيط ويُدرك أن الوجود في الطبيعة هو واحد من أفضل الأدوية الشافية على الإطلاق. وعلى الرغم من أنه قد لا يكون قادرًا على إنقاذ والدته، فإنه بطريقة ما ينتهي به المطاف وقد أنقذ نفسه.

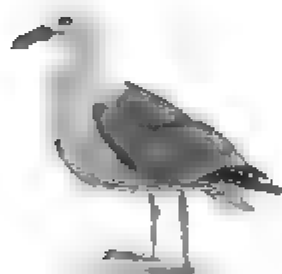
ليس سرًا أن قضاء وقت في الطبيعة سيحسن من صحتنا وعافيتنا، حتى لو قضينا دقائق قليلة بالخارج كل يوم. لكن إليك هذا الشيء المثير للاهتمام حقًّا - كلما زاد حبنا وتقديرنا لشيء ما زادت احتمالية أن نبذل قصارى جهدنا لحمايته.

وملحوظة أخيرة، أعرف أن إنقاذ العالم يبدو أحيانًا عبئًا ثقيلًا على أكتاف الصغار. أثناء زياراتي للمدارس ألتقي بأطفال رائعين، مثلك، يهتمون بعمق، لكنهم في بعض الأحيان

يشعرون بالخوف تجاه ما يحدث لكوكبنا. لكني آمل أن تريك قصة ريو قوة ما يُمكنك فعله، وأنه باتحاد قوانا مع أشخاص آخرين، يفكرون مثلنا، سنتمكن من أن نصنع فارقًا، ليس فقط في العالم المحيط بنا، بل في عوالمنا الداخلية أيضًا.

مع حبي، وأمل على شكل قلب.

هانا x



مصادرُ وقراءات أخرى

إليك بعض المصادر التي استعنت بها في بحثي، وقد تجدها أنت أيضًا مثيرة للاهتمام.

Happywhale database: موقع Happywhale الحقيقي مختلف بعض الشيء عن النسخة الموجودة في الرواية، لكن الهدف يظل كما هو تمامًا. بتشجيع الناس على أن يصيروا علماء هواة من المواطنين، وأن يرفعوا مشاهداتهم للحيتان، يُمكننا أن نخلق عالمًا تكون فيه المحيطات مفهومة بشكل أفضل، والأهم من هذا، محمية بشكل أفضل.

www.happywhale.com/home

مسار هجرة الحيتان الرمادية: هذه الخريطة التفاعلية المتجددة، تتضمن جميع نقاط المراقبة المحتلفة المتناثرة

على طول ساحل المحيط الهادئ، وتُظهر مسار هجرة الحوت الرمادي في رحلته من البحيرات الضحلة وإليها. تقع بلدة (أوشن باي) في مكان ما بين استراحة التوقف السادسة والسابعة.

www.journeynorth.org/tm/gwhaleMigrationRoute_Map.html

الصندوق العالمي للطبيعة FWW: يُمكنك أن تقرأ المزيد عن الحيتان الرمادية هنا، ويمكنك حتى أن تشاهد فيديو عن أحد الحيتان في البحيرات الضحلة في المكسيك.

www.worldwildlife.org/species/gray whale

موقع المؤلفة هانا جولد: إن كنت تريد مشاهدة بعض الصور ومقاطع الفيديو من رحلتي لمراقبة الحيتان فقد شاركت القليل منها على موقعي من أجلك، من فضلك اغفر لي كل الصراخ المتحمس!

www.hannahgold.world

كتاب «المشاهدات: رحلات الحيتان الرمادية الغامضة»، تأليف بريندا بيترسون وليندا هوجن: هذا الكتاب عبارة عن توثيق مكتوب بشكل جميل لتاريخ الحيتان الرمادية وبيئتها الطبيعية، ومن هذا الكتاب حصلت على اسم وايت بيك، وفكرة أن يكون ريو قادرًا على سماع الحيتان الرمادية. لقد اشتريته أثناء إقامتي في المكسيك، وأُريد أن أوثق امتناني له وأنه ألهمني لبعض الأجزاء المحورية في قصتي.

مصادر الصحة النفسية: وفقًا لـ Mental Health First Aid England فإن واحدًا من كل أربعة أشخاص يُعاني مشكلات نفسية مثل أم ريو. قد تكون بعض هذه المشكلات شديدة للغاية، وقد تحتاج إلى علاج مستمر أو حتى البقاء في المستشفى. لكن بعض المشكلات الأخرى تكون أكثر اعتدالًا وستبدو غير مرئية بالنسبة لأي شخص آخر.

إن كان هذا ينطبق عليك أو على شخص قريب منك فأول شيء يجب أن تعرفه هو أنك لست وحدك. إنه من الطبيعي أن

تشعر في بعض الأحيان بالإرهاق أو الحزن أو الخوف أو القلق. هذه كلها مشاعر إنسانية طبيعية تمامًا. لكن إن صارت هذه المشاعر فوق قدرتك على التحمل، فإن مجرد الحديث عنها مع أشخاص يبالون بأمرك سيصنع فارقًا كبيرًا.

شكرٌ وعرفان

كتابة هذه الرواية، ومعظمها كان في وقت حظر وباء كورونا، رحلة اكتشاف حقيقية. وأحيانًا مثل وايت بيك، كنت أجد نفسي ضائعة تمامًا. مثل الحيوانات البرية، لا تريد الكتب دائمًا أن تفعل ما تأمرها به.

لذا، أقدم جزيل الشكر للمحررتين الرائعتين هاريت ويلسون وإريكا سوسمان لمساعدتي في العثور على طريقي بأمان إلى البحيرات الضحلة، ولإيمانهما بجوهر هذا الكتاب، ولتحويل *الحوت المفقود* إلى شيء أنا فخورة به كثيرًا. أنتما حقًا أطيب وأفضل وأكرم النساء، وأنا ممتنة للغاية لأنكما في فريقي.

إن أي كتاب لا يكون مجهودًا فرديًا، ولا يمكنني أن أعبر عن امتناني بشكل كافٍ لكل فريق HarperCollins Children's Books في المملكة المتحدة، لكل شيء فعلتموه من أجل دُبّي، وكل ما تفعلونه الآن من أجل حوتي. لقد جعلتم كتبي جميلة

للغاية، حتى إنها أحيانًا ما تجعلني أحبس أنفاسي. شكرًا لكل من آن جانين مورتاج، نِك ليك، ڤال برايثوايت، أليكس كوان، جو آنا باركينسون، كارلا آلونزي، فيكتوريا بودل، كريستي برادبري، جيرالداين ستراود، إيلوراين جرانت، كيت كلارك، هانا مارشال، جاسميت فايف، ديبورا ويلتون، نيكول لينهارت ريتش، جين تايت، ماري أوريوردان، سارا هول، لاوري جيسمانز، سامانثا ستيوارت. وإلى لوسي روجرز لأنها قفزت من على متن هذه السفينة وأبحرت معها إلى مياه جديدة. وبالمثل شكر ضخم بحجم الحوت إلى كل الفريق في HarperKids في الولايات المتحدة، لكل ما تبذلونه من جهد على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي.

علي أن أقدم مزيدًا من الشكر الخاص إلى وكيلتي الإعلامية تينا موريس، التي تتحمل أسئلتي المتواصلة وتعمل بشكل خارق من وراء الستار لتخرج بأفكار مبهرة. أنتِ حقًّا عملة نادرة، وهذا يمنحني ذريعة لتوجيه تحية كبيرة إلى ريبلي.

ليڤي بينفولد Levi Pinfold لا يمتلك عبقرية مطلقة فحسب، بل لديه أيضًا براعة في تصميم أغلفة تُبهر الناس حرفيًا.

رسوماتك ارتقت بكلماتي إلى شيء فريد وجميل، وأنا فخورة بشكل منقطع النظير لوضع اسمك على الغلاف الأمامي.

أنا مبهورة بوكيلة أعمالي المذهلة كلير ويلسون، فهي ليست فقط موهوبة بشكل استثنائي فيما تفعله (كل هذه الأشياء الغامضة التي يفعلها الوكلاء!) لكنها أيضًا، ذات قلب دافئ وشخصية طيبة. أنتِ دومًا بقربي عندما أحتاج إليكِ وهذا يعني لي الكثير. شكرًا أيضًا إلى مساعدتها صفاء الوهابي.

مع نشر رواية *الدب الأخير* فإن هذا يمنحني أيضًا فرصة لتقديم الشكر لجميع مدوني الكتب الرائعين وأمناء المكتبات، والكُتّاب الزملاء، والمراجعين، ومنظمي المهرجانات، وبائعي الكتب، الذين ساهموا في جعل سنتي الأولى في عالم النشر مذهلة حقًا. لم يكن نشر الكتاب أثناء ذروة الحظر أمرًا مثاليًا، لكن بطريقة ما وبمساعدتكم استطعتم أن تجعلوا دُبّي يطير، وأنا مدينة لكم إلى الأبد من أجل هذا.

من المستحيل أيضًا أن أختار أي مكتبة بيع كتب بعينها، فقد كانت جميعها رائعة، لكن يجب أن أمنح حضن دب خاص إلى نِك وميل في The Rabbit Hole في مدينة بريج، وهيلين في

Our Bookshop في Wonderland Bookshop، وبين وأليسون في Our Bookshop في مدينة ترينج، والجميع في Waterstones في مدينة بيتربوروه.

أيضًا شكر خاص إضافي إلى كل المعلمين في كل مكان لأجل كل ما تمعلونه، وتواصلون فعله، لدعم المؤلفين الجدد وإضفاء متعة القراءة على الفصل الدراسي. أنتم لا تُقدرون بثمن، وأمل أن تعرفوا هذا. لا يُمكنني أن أختار واحدًا منكم بعينه (خشية أن أرتكب أخطاء اجتماعية محرجة) لكني أتمنى أن تعرفوا كم تعنون كلكم لي.

بالنسبة لشق طريقي عبر مسودات مختلفة من هذا الكتاب، أقدم شكرًا جماعيًا لكل من شارون هوبوود، وبولي كروسبي، وكارلي سوروسياك، وأليسون بوند، لقراءة النسخ الأولية وتقديم هذا القدر من التشجيع والتوجيه اللطيف.

ستبقى رحلتي إلى البحيرات الضحلة في ذاكرتي إلى الأبد، لذا أُقدم تحية كبيرةً إلى قطيع الحيتان الخاص بي - بين، وجوليان، وستيوارت (شيربيت)، ولوسي، لمشاركتي أجمل تجربة في حياتي. سنعود إلى هناك يومًا ما والبهجة في قلوبنا. تحية يلوح بها ذيل حوت لكل من شارون وباربرا وجاكسون وراستي وليزا، على

إرسال تفاصيل قاعدة بيانات Happywhale إليَّ. شكرًا لعائلة جاسبر الذين استعرت منهم اسميْ (ريو) و (مارينا)، وشكرًا بالإسبانية Gracias لكل من أورلاندو وأندريا وإيرني، لجعل عطلتنا في مدينة باخا بكاليفورنيا مميزة للغاية. سنحب دومًا جزيرة لوريتو في المكسيك!

شكر لا نهائي لجميع حراس المحيط، الذين يبذلون قصارى جهدهم لرعاية المحيط وحمايته، ولجميع مراقبي الحيتان على طول ساحل المحيط الهادئ وفي جميع أنحاء العالم. أحيي تفانيكم والتزامكم وشغفكم. هذا الكتاب من أجلكم.

أحضان كبيرة لأصدقائي وعائلتي ووالديّ الداعمين دومًا. كان من الرائع مشاركتكم احتفالات العام الماضي. شكرًا لكم على دعمكم المستمر لي ولدب والآن لحوت!

وبالطبع شكرًا لزوجي كريس، أعظم داعم ومشجع، الذي يكون دائمًا بقربي في كل مغامرات الحياة. لا تزال الأفضل، وثاني أفضل شيء في وجود المحيط.

أخيرًا، والأهم، شكرًا لقرائي الأعزاء   أنا ممتنة لمراجعاتكم وثنائكم وخطاباتكم وحبكم. حماسكم يمس قلبي بصدق

ويجعل حياتي أكثر بهجة وإشراقًا. آمل أن تستمتعوا بقصة وايت بيك وريو ومارينا، وأن تودعوهم قلوبكم وتتمسكوا بهم بقوة. وإن رأيتم يومًا حوتًا رماديًّا في المحيط . . . فتذكروا أن تبحثوا عن قوس قزح!



هوامش الكتاب

1 - المِشْمَل هو نوعٌ مِنَ المَلابِسِ مُكوّنٌ مِنْ قِطعَةٍ واحدَةٍ تُغطّي الجُزأينِ العُلويِّ والسُّفليِّ مِنَ الجِسمِ، وتُستعمَلُ غالبًا في العملِ بِالمَصانعِ والوِرشِ وأحيانًا كَملابِسَ رياضيَّةٍ.

2 - بُنْدُقِيَّةُ (هاربون) هيَ بُنْدُقِيَّةٌ تُطلِقُ الرِّماحَ، وَتُستَخْدَمُ في صَيدِ الأَسْماكِ الكَبيرَةِ وَالحيتانِ.

3 - البَرنَقيل هوَ مَحارٌ يَعيشُ في المِياهِ المالِحَةِ، ويَلتصِقُ بأسحح الأجسامِ المَوجودَةِ في البَحرِ.

4 - جَمَلُ البَحْرِ أَوْ حوتُ الأَحْدَبِ أوِ الحوتُ السَّنامِيُّ يَنْتَمي إلى فَصيلَةِ الحيتانِ القافِزَةِ وَهُوَ قَصيرُ الجِسْمِ وَكبيرُ الرَّأْسِ ولَوْنُهُ شَديدُ السَّوادِ.

5 - كَلِمَةُ مارينا تَعْني ميناءً.

6 - البالينُ هُوَ نِظامٌ لِتَصْفِيَةِ الماءِ داخِلَ أفْواهِ الحيتانِ البالينِيَّةِ أَشْبَهُ بِالفُرْشاةِ، يَعمَلُ هذا النِّظامُ عِندَما يَفتَحُ الحوتُ فَمَهُ تَحتَ الماءِ لِيُدْخِلَ الماءَ فيه، وعِندَما يَدْفَعُ الحوتُ الماءَ إلى الخارِجِ تَبْقى بَعْضُ الكائناتِ الحَيَّةِ عالِقَةً فيهِ، مِمّا يُكَوِّنُ مَصْدَرًا غذائِيًّا للحوتِ.

كانَ (ريو) وَحْدَهُ مَنْ رَآهُ. مُخْتَبِئًا تَحْتَ سَطْحِ الماءِ عَلى بُعْدِ ثَلاثَةِ أَمْتارٍ تَقريبًا مِنْ مُقَدِّمَةِ القارِبِ.

أَحَسَّ (ريو) بِجَسَدِهِ ساكِنًا، كَأَنَّ هُناكَ تَيّارًا خَفِيًّا يَرْبِطُهُ بِالحوتِ، وَبِإِبْقاءِ نَفْسِهِ ساكِنًا، يَسْتَطيعُ، بِطَريقَةٍ ما، أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ وَيَتَواصَلَ مَعَهُ.

الحوتُ الماثِلُ أَمامَ عَيْنَيْهِ بَدا مَأْلوفًا لِلغايَةِ.

«وايت بيك!»

رواية متكاملة لا تُنْسى عن علاقة صبي بحوت ومغامرة في عالم البحار.
The Bookseller, Editor's Choice

رواية تقبض على قوة وغموض المحيط، وفي الوقت نفسه، تحثنا على حماية البيئة من آثار تغيُّر المناخ. رواية مؤثرة ومُمَكِّنة.
Kirkus Reviews (starred review)

«أحببت الإبحار في هذه الرحلة مع ريو، وشخصيته المفعمة بالإصرار والتعاطف. هذه مغامرة مليئة بالدهشة والحنين.»
Lynne Kelly, author of Song For a Whale

نسيج لا يُقاوم في حب المحيطات.
The Times

رواية قوية وعميقة ومُؤثرة جدًا.
Daily Mail



